

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أمّ القيوين
كلية الدراسات العليا والبحوث
فروع الأدب



٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٠٠١٨٨٣

أسرار التنوع

في

تشبيهات القرآن الكريم

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في البلاغة

إعداد الطالبة

عبدك حسن عبد الرزاق بن حسي

إشراف الدكتور

عبد الفتاح لايسين

١٤٠٩ / ١٤١٠ م

د. صلاح حسدران

مفتوح

د. محمد محمد عبد الله

د. عبد المنعم

مفتوح

١٤٠٦
١٨١٣٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى:

”وَنَلَاكِ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ

لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ“ (الحشر/ ٢١)

وقال تعالى:

”وَمَا يَعْقَلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ“

(المنكوت/ ٤٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

عنوان الرسالة : أسرار التنوع في تشبيهات القرآن الكريم.

الدرجة العلمية : ماجستير.

الطالبة : ملك حسن عبد الرزاق بخش .

ملخص الرسالة

اقتضت طبيعة البحث لأن يكون في تمهيد وستة فصول وخاتمة. أما التمهيد فقد بينت فيه جهود السابقين في بيان أسرار التنوع ، ثم الفصل الأول عن تشبيهات الحياة الدنيا وأسرار تنوعها ، والثاني عن تشبيهات الانفاق ، والثالث عن تشبيهات الحق والباطل ، والرابع عن تشبيهات أعمال الكافرين ، والخامس عن تشبيهات أوصاف المخالفين ، والسادس عن التشبيهات التي تمثل أحوال الناس عند البعث . ثم الخاتمة وفيها عرضت أهم ما توصلت إليه من نتائج وأصول في أسرار التنوع ، ومن تلك الأصول :

- ١ - تناول المعنى الواحد في كل مرة من جانب من جوانبه التي تتلاءم مع الفرض والسياق .
- ٢ - الانتقال في تنوع التشبيهات من الصورة البسيطة التركيب الى الصورة الأكثر تركيباً تدرجاً في اقناع النفس وتلاؤماً مع وفرة المعاني .
- ٣ - التعبير عن المعنى الواحد بصورتين متضادتين أو متقابلتين كالمثل المائي والناري والماء والنار عنصران يغلبان على أكثر تشبيهات القرآن .
- ٤ - مراعاة أحوال البيئة المعاشية والحضارية كالتعبير بصورة مستقاة من الياديعة وأخرى من الحضرة .
- ٥ - مراعاة المستوى الفكري والحضاري والتقدم العلمي .
- ٦ - الانتقال من الحسي الى المعنوي كالتشيل للانفاق في سبيل الله في صورة الضاعفة الحسابية لاثارة محور الطمع في الريح ثم الانتقال الى ابتغاء مرضاة الله .
- ٧ - من أسرار التنوع وأصوله أن لكل مثل بناؤه ونظمه وعناصره وظلاله التي تتناسب مع السياق الذي ورد فيه فالماء المختلط بنبات الأرض يتلاءم مع الريح الطيبة والبحر والهشيم الذي تذرره الرياح يتلاءم مع الجنة الخاوية على عروشها والظلمات التي تتكاثف في بحر لحي تتناسق مع النور الذي يتضاعف في مشكاة فيها صباح وهكذا .

عميد كلية اللغة العربية

المشرف

الطالبة

د / محمد بن مريسي الحارثي

د / عبد الفتاح لاشين

ملك حسن عبد الرزاق بخش

الموسم

بسم الله الرحمن الرحيم

(أ)

المقدمة

الحمد لله الذى فضلنا بالقرآن على الأمم أجمعين وآتانا به
مالم يوءت أحدا من العالمين والصلاة والسلام على من كان خلقه القرآن
ووصيته القرآن وميراثه القرآن القائل (خيركم من تعلم القرآن وعلمه) (*)
يقول العلامة الزمخشري صاحب عمدة التفاسير في البلاغة العربية "إن أملا
العلوم بما يفهم القرائح وأنهضها بما يجهر الألباب القوارح من
غرائب نكت يلطف مسلكها ومستودعات أسرار يدق مسلكها علم التفسير."
(١)
ثم بين رحمه الله تعالى أن هذا العلم لا يتم تعاطيه وإجالة
النظر فيه لكل ذى علم وإنما لا بد من البراعة في علوم البلاغة المختصة
بالقرآن الكريم كعلمي المعاني والبيان وأن البراعة فيهما تحتاج إلى
تأني في إرتيادهما وتعب في التنقير عنهما. (٢)

ومن هنا يتضح لنا دقة البحث في القرآن الكريم ومشقته ووعورة
مسلكه على جلاله وفضله وشرفه الذى لا يدانى .

ولقد بهرني أثناء دراستي العليا جمال التشبيه في القرآن
الكريم وجلاله فأردت أن يكون موضوعا للبحث والدراسة . ولما كان التشبيه
في القرآن خصباً رحباً يتسع مجال القول فيه وابعاً عجيباً لا تنتهي

(١) الكشاف ١/١٦٠

(٢) المصدر السابق .

(*) أخرجه البخارى والترمذى وأبو داود (جامع الأصول في أحاديث الرسول)

(ب)

لطائفه ومعانيه وفق الله استاذي الدكتور محمد محمد أبو موسى أن يقنني
على هذا الجانب منه ألا وهو أسرار التنوع في تشبيهات القرآن الكريم .
وهو باب دقيق المسلك صعب المرتقى لطيف المأخذ أشبه
بالسحر لم يسبقني إليه أحد بحمد الله فيما أعلم ولم أجد في جهنود
العلماء السابقين من التفت إليه التفاتا مباشراً إلا ما ورد عن الرماني
الذي أشار إلى أسرار التنوع بطريق غير مباشر حين جمع النظير إلى نظيره
وعلق عليه .

وعلماء المتشابه

وتعد كتب المفسرين / هي الحقل الأول الذي نشأ فيه الكلام
عن أسرار التنوع لأن هـ لاء هم الذين وقفوا عند الآيات المتشابهة
والمحو إلى الفروق التي بينها تأمل مثلاً قول ابن القيم حيث يقول :
" فان قيل : فهل يظهر فرق بين قوله تعالى في سورة يونس :
قُلْ مَنْ رَزَقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ
وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ①

وبين قوله في سورة سبأ - قُلْ مَنْ رَزَقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ

قيل : هذا من أدق هذه المواضع وأغضها وأطفها فرقا فتدبر

السياق تجده تقيضاً لما وقع . (٢)

(١) سورة يونس آية ٣١ .

(٢) التفسير القيم لابن القيم ص ٣٠٦ .

ثم يحلل ، ويبين مناسبة كل آية لسياقها الذي وردت فيه .
أما في الشعر فيعد عبد القاهر الجرجاني أول من فتح باب
أسرار التنوع في التشبيه بطريق غير مباشر وذلك في موازناته بيسين
الأبيات المتشابهة في المعنى مثل بيت بشار :

كَانَ مُثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رَوْسِنِيَا
وَأَسْيَافِنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبَهُ

مع قول المتنبي :

يَزُورُ الْأَعْمَادِي فِي سَمَاءٍ عَجَاجِهِ
أَسْنَتُهُ فِي جَانِبَيْهَا الْكَوَاكِبُ

أو قول عمرو بن كلثوم :

تَبْنَى سَتَائِكَهَا مِنْ فَوْقِ أَرْوَاهِ سَهْمٍ
سَقْفًا كَوَاكِبَهُ الْبَيْضُ الْبَاتِيْرُ

فقد أشار عبد القاهر إلى أن هذه الأبيات رغم أنه يجمعها معنى عام واحد
وهو تشبيه لمعان السيوف في السبخار بالكواكب بالليل " إلا أنك تجد لبيت
بشار من الفضل ومن كرم الوقع ولطف التأثير في النفس ما لا يقل مقداره
ولا يمكن إنكاره وذلك أنه راعى ما لم يراعه غيره وهو أن الكواكب تتهاوى
فأتم الشبه (١) .

وهكذا نبه عبد القاهر إلى هذه الفروق والدقائق وأسرار تنوعها .

وقد استقام البحث بعد ذلك في تهديد وستة فصول وخاتمة.
وهذا التقسيم إنما هو بحسب الأغراض الظاهرة وإلا فإن التشبيه في القرآن الكريم
يجرى فيه ما يجرى في أبناء العشرة الواحدة من الصلات والشائج والطباع الخفية.
أما التمهيد : فقد بينت فيه جهود العلماء السابقين في بيان أسرار التنوع في
التشبيه وغيره أى بصورة عامة لأن كتب المفسرين وعلماء المتشابه هي الحقل الأول
الذى نشأ فيه الكلام عن أسرار التنوع بصورة عامة ثم تطرق النظر إلى التشبيه في
القرآن الكريم .
الفصل الأول :
درست فيه التشبيهات التي تمثل الحياة الدنيا وأسرار تنوعها

وفيه بينت لماذا بنى التشبيه مرة على التحليل والتفصيل كما في سورة
يونس ، وأخرى على الطى والدمج كما في سورة الكهف ، وغير ذلك من
فروق ودقائق ظهرت أثناء التحليل والموازنة .

الفصل الثاني :

درست فيه التشبيه الذى يمثل الإنفاق ويتضمن :

- الإنفاق في سبيل الله ، والإنفاق الذى شابه شائعة المن
والأذى أو الرياء أو الكفر الصريح ، وبينت فيه أسرار التنوع وراء تشبيه
الإنفاق في سبيل الله مرة بالحببة التي أنبت سبع سنابل وأخرى بالجنة ذات
الريوة التي أصابها وابل ، كما بينت فيه أسرار التنوع وراء تشبيهات الإنفاق
لغير سبيل الله بالصفوان الذى عليه تراب ، والجنة التي أصابها إعصار فيه
نار فاحترقت ، والحرث الذى أصابته ريح فيها صر فأهلكته .

الفصل الثالث :

درست فيه التشبيه الذى يمثل الحق والباطل وأسرار تنوعه .
بينت فيه أسرار التنوع وراء تشبيه الحق بالماء النازل من السماء والمعدن
الذى يوقد عليه ، وبالشجرة الطيبة الثابتة الأصل وأسرار التنوع وراء تشبيه
الباطل بالزبد الطافي ، وبالشجرة الخبيثة التي اجثت من فوق الأرض .

الفصل الرابع :

درست فيه التشبيهات التي تمثل أعمال الكافرين وأسرار تنوعها
وقفت فيه على أسرار التنوع وراء تشبيه أعمال الكافرين مرة بالرماد وأخرى بالسراب
أو الظلمات أو الهباء المنثور .

الفصل الخامس :

درست فيه التشبيه الذي يمثل أوصاف المنافقين وأسرار تنوعها
وقفت فيه على أسرار التنوع وراء تشبيه المنافقين مرة بالمستوقد نارا وأخرى
بأصحاب الصَّيب .

الفصل السادس :

درست فيه التشبيهات التي تمثل أحوال الناس عند البعث وأسرار
تنوعها ، وقد وقفت فيه على أسرار التنوع وراء تشبيه الناس عند خروجهم
من الأُجداث بالجراد المنتشر أو الفراش المبوث وهكذا . .
ثم الخاتمة : وفيها عرضت أهم ما توصلت إليه من نتائج وما
استخلصته من أصول في أسرار التنوع .

وقد التزمت في هذه الدراسة بمنهج معين :

أولا : وضعت مدخلا لكل فصل بينت فيه كيف ورد هذا المعنى الذي
تناوله التشبيه عن طريق الحقيقة كما ورد عن طريق المجاز . وكل
ذلك تبعالما يقتضيه السياق القرآني .

ثانيا : من أسرار المناسبة : بينت فيه بعض وجوه المناسبة بين العثل وبين مقاصد السورة وأغراضها وسياق الآيات لأن جزءاً كبيراً من بلاغة التمثيل هو من معطيات سياق يرتبط به .

ثالثا : من أسرار اللغة والنظم : حلت فيه العثل تحليلاً بيانياً ووقت فيه أمام كل كلمة وجملدة أتوسمها توسماً واعياً من ناحية بنائها ومعناها اللفوى وعلاقتها بأخواتها وهكذا . .

وكل ذلك في ضوء السياق الذي وردت فيه محاولة استخراج ما وراء ذلك من وحي وأحوال وأسرار .

رابعا : من أسرار التنوع : وفيه عقدت موازنة بين آيات التمثيل وصوره ومعانيه واستخلصت فيه أسرار التنوع ووجوه المقابلة والتضاد وغير ذلك من الدقائق التي ظهرت أثناء الموازنة والمقارنة .

وبعد : فلئن كان سلفنا الصالح رضي الله عنهم يقول :

" قرب آية ألفت في تأملها شهوراً ومن أراد تصديق ذلك فليأمل شيئاً من الآيات قبل أن ينظر ما قلته ثم ينظره يظهر له مقدار ما تعبت وما حصل لي من قبل الله ومن العيون " . (١)

فما عساي أقول وأنا إنما استضيء (بكشفهم) وأتزوّد من (جامع

بيانهم) وأعترف من (بحرمحيطهم) وأنظم من (روح معانيهم) و(نظم

درهم) ثم أحرر ما كتبت (بمحررهم الوجيز) و(بالتحرير والتنوير) . . وهكذا .

فلهذه هذه الودائع التي استخرجت منها ما زادنى
 بصيرة وعلم وشحن فكري وقدح زناد عقلي وأورى جذوة قلبي
 وأوقفتني على أن ما خلصت إليه من نتائج وأسرار ولطائف إنما هي غيض من
 فيض .

ولا يزال القرآن الكريم مأدبة الله التي لا يشبع منها العلماء
 ينطوى على لطائف وأسرار لا تتناهى نرجوا الله أن يعطف نحوه قلوب
 طلبة العلم النقيه الزكية ليستخرجوا ودائعه ويكشفوا حجبه .

بقيت كلمات يمتلي بها القلب اجلالا واكبارا وحمداً وشكراً لله
 الذى وفقني لخدمة كتابه الكريم والانس بصحته أياما خوالي ما أحسب
 أن في الدنيا نعيماً يعدل نعيي بهن ولو لم يكن لي من هذا البحث
 إلا هذه الثمرات لكفتني .

ثم أتوجه بخالص الدعاء وجزيل الشكر إلى (جامعة أم القرى)
 هذه الأم التي ربنتنا وتمهدت فينا أكرم ما خلق الله فينا (عقولنا وقلوبنا)
 ولها علينا فضل لا يدانيه فضل متفضل، وحسبها أنها تابعت بحوثنا،
 وأغدقت علينا من سخاء نفسها وسخاء هذه الدولة الفتية رعاها الله وحماها
 ما قوم اعوجاجها وزور مدارها طوال هذه السنوات الماضية .

وأخص بالشكر والتقدير الدكتور محمد بن مريس الحارثي عميد كلية
 اللغة العربية على ما بذله من جهد حثيث في إتمام هذه المرحلة من
 البحث .

كما أتقدم بالشكر والتقدير والعرفان لأستاذي الدكتور الفاضل المشرف
عبد الفتاح لاشين الذي تابع هذا البحث بجهد صابر وحرص شديد وله في كل
صفحة نظر فجزاه الله عنا خير الجزاء وحسبه فاتحة خير علي أن جعل الله
اجتثائي لشرة هذا البحث على يديه الكريمتين .

وأوجه جزيل شكري وتقديري وخالص دعائي إلى الأستاذين الفاضلين
الدكتور صباح دراز والدكتور الشحات عبد الرحمن أبو ستيت على ما تكرما به من
قبول هذا البحث للمناقشة نفمني الله بحسن توجيهاتهما ورزقني حسن الأدب في
مناقشتها والالتزام بصائب رأيهما فيما قوماني به وأرشداني إليه فجزاهما الله
عني خير الجزاء .

وجزى الله كل من كان له يد العون في إخراج هذا البحث على هذه
الصورة خير الجزاء .

وأخص بالشكر زوجي وقرّة عيني الدكتور الداعية عبد العزيز الجفري
والذي في ظل صحبته المباركة فتح الله علي بهذا العلم المبارك .
كما أخص بالشكر اخوتي الأحبّة عبد الرحيم وخالد وماجد الذين
بذلوا في سبيل هذا البحث ما بذلوه فجزاهم الله جميعا عني خير الجزاء
وثقل موازينهم عند اللقاء .

وأخيرا أتقدم خافضة جناح الذل من الرحمة إلى والدي الكريمين
اللذين غرسا في نفسي حب العلم منذ النشأة وحملاني عليه حملا والذين إن ضاقت
بي الدنيا وتكرلي أهلها خاصة وأنا أكتب هذا البحث تحت ظرف شديد
وجدت لقلبيهما بابا لا يوصد ووني أبدا أرجو الله أن يكون علي هذا ما تثقل
به موازينهما يوم القيامة * وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا * .

ويعد : فهذا جهدي أرجو ربي أن يجعله خالصا لوجهه الكريم
وأن يغفر لي بهذا القصد ما وقعت فيه من فساد الرأي وعدم الإصابة في الاجتهاد

(ط)

وإنما غايتي أن يحرك الله هذه القلوب والمعقول نحو هذا الباب الزاخر
بالبلاغة العالية والتي لا تزال في أكامها .

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب . وآخر دعوانا أن الحمد لله
رب العالمين . والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم
باحسان إلى يوم الدين .

تمهيد

جهود العلماء السابقين في بيان أسرار التنوع

- ١ - الرماني
- ٢ - ابن ناقيا البغدادي
- ٣ - عبد القاهر الجرجاني
- ٤ - الخطيب الإسكافي
- ٥ - الفخر الرازي
- ٦ - الكرمانلي
- ٧ - الفيروزآبادي

١ - الرمانى (أبو الحسن على بن عيسى الرمانى) ت : ٣٨٦ هـ

يعتبر الرمانى أول من التفت إلى أسرار التنوع في تشبيهات القرآن الكريم التفاتاً غير مباشر - بمعنى أنه لم يكن عامداً له محيطاً بكل أغراضه - وذلك حينما جمع النظر إلى نظيره في باب التشبيه وعلق عليه .

فقال في قوله تعالى :

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالَهُمْ كَسْرَابٍ بِقَيْحٍ يُحْسِبُهُ
الظَّمْآنَ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا

فهذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع

عليه وقد اجتمعا في بطلان التوهم مع شدة الحاجة ومظم الفاقة (١).

ثم قرن هذا التمثيل بما يماثله في الغرض نفسه وهو تشبيه أعمال الكافرين

في قوله تعالى :

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ
أَشْتَدَّ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ

(١) النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن

وقال معلقاً عليه : * فهذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه وقد اجتمع المشبه مع المشبه به في الهلاك وعدم الانتفاع والعجز عن الإستدراك لما فات وفي ذلك الحسرة العظيمة والموعظة البليغة * (١)

كما ذكر من التشبيهات التي تمثل الحياة الدنيا تشبيهاً

أحدهما من سورة يونس وهي قوله تعالى :

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ

والثاني من سورة الحديد وهو قوله تعالى :

اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَكِبَارَةٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ

وقال معلقاً على الأول : * وهذا بيان قد أخرج ما لم تجربه عادة إلى ما قد جرت به وقد اجتمع (المشبه) والمشبه به في الزينة والبهجة ثم الهلاك بعده ، وفي ذلك العبرة لمن اعتبر ، والموعظة لمن تفكر في أن كل فانٍ حقير وإن طال مدته وصغيرٌ وإن كبر قدره * (٢)

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق ص ٨٣ .

وقال معلقاً على الثاني : " فهذا تشبيه قد أخرج ما لم تجر
به عادة إلى ما قد جرت به وقد اجتمعا في شدة الإعجاب ثم فسي
التغيير بالانقلاب وفي ذلك الاحتقار للدنيا والتحذير من الإغترار بهما
والسكون إليها " . (١)

كما تناول التشبيه الذي يمثل هلاك قوم عاد وهو قوله تعالى

في سورة القمر :

إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ أَنزَعْنَا النَّاسَ كَأَنَّهُمْ
أَعْجَازٌ مُّنْقَعِرٍ

وقوله في سورة الحاقة :

كَأَنَّهُمْ أَعْجَازٌ مُّنْقَعِرٍ خَاوِيَةٍ

فقال معلقاً على التشبيه الأول : " وهذا بيان قد أخرج ما

لم تجر به عادة إلى ما قد جرت به ، وقد اجتمعا في قلع الريح لهما
وإهلاكها إياهما . وفي ذلك الآية الدالة على عظيم القدرة والتخوف
من تعجيل العقوبة " . (٢)

(١) المصدر السابق ص ٨٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٨٣ .

وقال في التشبيه الثاني : " وهذا تشبيه قد أخرج ما لا

يعلم بالبديهة إلى ما يعلم، وقد اجتمعا في خلوا^١ جساد من الأرواح،

وفي ذلك الإحتقار لكل شي^٢ يؤول به الأ^٣مر إلى ذلك المآل^٤ ". (١)

والرمانى في تناوله للتشبيه في القرآن الكريم ينظر إليه

من جهات عدة :

١ - ينظر إليه من جهة عنصر البيان والكشف وكيف يجرز التشبيه

المعنى الذهني أى الأ^٥مر الذى يدرك بالفكر في الصورة

المحسنة التي تدرك بالحواس .

٢ - يقف أمام الصفة المشتركة التي تجمع بين طرفي التشبيه

ويبين عن وجه الملاءمة الدقيقة بينهما^٦ أى وجه

الشبه والذى يكمن فيه المغزى والفرى وقد عبر عن ذلك بقوله :

" وقد اجتمعا في بطلان المتوهم مع شدة الحاجة وعظم

الفاقة^٧ ". (٢)

٣ - يتذوق العناصر التي تكونت منها صورة التمثيل وما وراءها

من إيحاءات^٨ وفيوضات^٩ وكيف وقمت^{١٠} موقعها^{١١} الممكن والأ^{١٢}بلغ

(١) المصدر السابق ص ٨٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٨٢ .

فيقول في آية النور : " ولو قيل يحسبه الرائي ماء شمس
يظهر أنه على خلاف ما قدر لكان بليغاً وأبلغ منه لفظ القرآن
لأن الظمان أشد حرصاً عليه وتعلق قلب به " (١)

٤ - يهتم بنسيج بناء التشبيه وصياغته والتي تكشف عن خبايا
المعاني فيقول : " وتشبيه أعمال الكفار بالسراب من حسن
التشبيه فكيف اذا تضمن مع ذلك حسن النظم وعذوبة
اللفظ وكثرة الفائدة وصحة الدلالة " (٢)

وهذا النظر المتوسم الواعي والحس المتذوق البصير لصور

التمثيل وعناصر نسيجه وبناءه يعيننا على إدراك الفروق الدقيقة وأسرار
التنوع وراء هذه الصور .

(١) المصدر السابق ص ٨٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٨٢ . وانظر الاعجاز البلاغي ، د . محمد محمد أبو موسى ،
ص ١٠١ - ١٠٤ .

٢ - ابن نايقا البغدادي ت : ٤٨٥ هـ

يعد ابن نايقا هو المصنف الفرد للتشبيهات القرآنية فسي

كتابه "الجمان في تشبيهات القرآن" (١)

ومنهج في كتابه هذا يعتمد على تفسير المعنى القرآني

في الآية ثم الاستشهاد لهذه المعاني بشواهد شعرية يتخيرها من

أروع النصوص الشعرية التي جرت في كلام العرب وأندرها وهو

لا يقصد بذلك إلى الموازنة بين الشعر والقرآن فإنها لا تأتي في هذا

الباب، ولكنه إنما يضع بين يدي القارئ بلاغة الشعراء وغيرهم من

أرباب البلاغة ليجلي بلاغة القرآن وبنه على مكان الفضيلة فيه،

ويؤيد أن التفاوت بين التنزيل والشعر ظاهرٌ ظهوراً شديداً لا يخفى

على ذي كيمس إذا أسهمها نظره وعاطاها تأمله . (٢)

وهذه الأبيات الشعرية التي يسوقها ابن نايقا حول معنى

واحد هي باب من أبواب أسرار التنوع في الشعر ولكن ابن نايقا لم يلتفت

إليها ولم يقف عليها بالتحليل والموازنة وبيان الفروق الدقيقة

(١) انظر الإتيان للسيوطي ٢ / ٥٤٠

(٢) الجمان ص ٧١٠

التي بينها وإنما يكتفى ببيان أن هذا المعنى الذي أخذه الشعراء من لفظ الكتاب الكريم وقوا به دون بلاغة القرآن واستيفاء معانيه يقول :

« وكذلك كل ما ينقله الشعراء أو غيرهم من أرباب البلاغة إلى كلامهم من معاني القرآن لا يبلغون شأوه ولا يدركون مثاله إعجازاً وإعوازاً وإبداعاً وامتناعاً » . (١)

البيان

ويغلب على منهج ابن ناقيما في كتابه / أن يقرن النظر إلى نظيره في التشبيهات القرآنية ليزيد المعنى جلاءً ووضوحاً دون أن يعلق عليهم ————— وأولتفت إلى أسرار تنوعها والفروق الدقيقة التي بينها فيقول مثلاً في تشبيه الموج في القرآن قال تعالى :

وَهُيَ تَجْرِي فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ

« الجرى مر سريع كمر الماء على وجه الأرض . والسفينة تجرى بالماء والفرس يجرى في عدوه والموج جمع موجه وهي القطعة العظيمة ترتفع عن جملة الماء الكبير ، وأعظم ما يكون ذلك إذا اشتدت الرياح فدل التشبيه على عظم شأن الأمر من حال الماء وتطبيقه الأرض ومن ملابسة الرياح له ومن ذكر الاعتبار بجرى السفينة في هذه الأحوال

وناب لفظه مع اختصاره عن شرح كبير . ونحو هذا التشبيه قوله —

تعالى في سورة أخرى :

فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ
كَالطُّورِ الْعَظِيمِ ①

ويكتفي ابن ناقياً بذلك دون أن يعلق على التمثيل الثاني ويذكر
الفرق بينهما ثم يورد تمثيلاً آخر في المعنى نفسه فيقول : "وقد
ورد في التنزيل في صفة موج البحر بالعظم والارتفاع تشبيه آخر
وهو قوله تعالى في سورة القمر :

وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَّجٌ كَالظُّلَلِ

لأن موج البحر يعظم فيصير كالظلل في ارتفاعه وتغطيته ما تحته " . (٢)

ويقرن بين قوله تعالى :

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ
فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ..

وبين قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صِدْقِكُمْ بِاللَّيْلِ وَالْأَذَىٰ

(١) الجمان ص ١٢٦ .

(٢) السابق ص ١٢٨ .

فيقول : " بين الله أن أعمال الذين كفروا في ذهابها وإباحتها كرماد
ذهبت به الريح في يوم عاصف ، وكذلك بين أن العمل يبطل بالمن
والأذى كما يبطل بالرياء ، وكما يذهب الوابل التراب عن الصفا " . (١)

وهذا يدلنا على أن تقسيمنا للتشبيهات في القرآن الكريم على
تلك الأغراض التي تناولناها بالدراسة والتحليل إنما هو تقسيم بحسب
الظاهر وإلا فإن التشبيه في القرآن يتلاحم ويتراحم ويؤكده بعضه
بعضاً ولا يمكن فصله إلا للدراسة والموازنة .

وقد يذكر ابن ناقيما المعنى القرآني الذي ورد عن طريق

التشبيه ويورد المعنى نفسه عن طريق الحقيقة فيذكر قوله عز وجل :

وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهْتَزُّ كَانَهَا جَانٌّ وَلِي مُدِيرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ

ثم يذكر قوله تعالى :

فَأَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تُمُتُّنٌ

ويقول في تحليلها وبيان معانيها : " الثعبان : الحية الضخم الطويل

وأصله من ثعبت الماء ثعباً إذا فجره فسمي بذلك لأنه يجري كجري

الماء عند الانفجار ومعنى " بين " أى بين أنه حيه .

وأما تشبيهه بالجان : فالمراد به أنها في اهتزازها

وخفة حركتها وسرعتها كالجان وهي في صورة الشيطان . . . (١)

كما يقرب بين قوله تعالى :

وَحُورٌ عِينٌ ﴿١٠٦﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْءِ الْمَكْنُونِ (٢)

وقوله تعالى :

وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وُعَلَاءٌ ﴿١٠٧﴾ لَوْ لَوُؤُكُم مَّا كَانَتْ لَهُمْ عَلَيْهِمْ أَعْيُنٌ يَأْتُونَكُم بِهَا ﴿١٠٨﴾

وقوله تعالى :

وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وُلْدٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا
مَّنثورًا ﴿١٠٩﴾

وهو هنا لا ينظر إلى المشبه به ولكنه ينظر إلى وحدة

المشبه به مع اختلاف المشبه .

(١) الجمان ص ١٧٤ .

(٢) الواقعة / ٢٣ .

(٣) الطور / ٣٤ .

(٤) الانسان / ١٠٩ .

٣ - عبد القاهر الجرجاني ت (٧١ هـ) :

يعد الإمام عبد القاهر الجرجاني أول من فتح باب أسرار
التنوع في التشبيه في الشعر بطريق غير مباشر وذلك في موازناته بين
الآبيات المتشابهة في المعنى مثل بيت بشار :

كَأَنَّ مُشَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا
وَأَسْيَافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبَهُ

مع قول المتنبي :

يَزُورُ الْأَعْمَادِي فِي سَاءِ عَجَاجِهِ
أَسْنَتُهُ فِي جَانِبَيْهَا الْكَوَاكِبُ

أو قول عمرو بن كلثوم :

تَبَسُّ سَنَابِكُهَا مِنْ فَوْقِ أَرْوَاهِمْ
سَقَقًا كَوَاكِبَهُ الْبَيْضُ الْمَبَاتِيرُ

فقد أشار عبد القاهر إلى أن هذه الآبيات المتناظرة يجمعها معنى
عام واحد وهو تشبيه لعمان السيوف في الفبار بالكواكب في الليل، ثم بين
أن بيت بشار يفضلها جميعاً، ويحلل سر هذه المزية والافضلية فيقول :
"إلا أنك تجد لبيت بشار من الفضل ومن كرم الموقع ولطف التأشير
في النفس ما لا يقل مقداره ولا يمكن إنكاره ، وذلك لأنه راعى ما لم

يراعه غيره، وهو أن جعل الكواكب تهاوى فأتى الشبه ، وعبر عن هيئة السيوف وقد سلت من الأغصان وهي تملو و ترسب وتجي* وتذهب . . . وكان لهذه الزيادة التي زادها حظ من الدقة تجعلها في حكم

تفصيل بعد تفصيل .» (١)

ولا يكتفى الإمام عبد القاهر بهذا التحليل الواعي الدقيق

لسر المزية التي فضل بها بيت بشار بل أنه يذهب إلى أبعد من ذلك وهو قيام هذا المعنى في نفس قائله وكيفية إحاطته به وقدرته على تصور

دقائقه فيقول عنه أنه قد نظم هذه الدقائق والمعاني كلها في

نفسه واستغرق في تفصيلها والإحاطة بها ثم أحضر إلينا صورتها

(٢)

بلفظة واحدة ونبه عليها بأحسن التنبية وأكمل وهي كلمة (تهاوى) .

وهذا هو جوهر الفرق في أسرار التنوع بين تشبيهات الشعراء

وتشبيهات القرآن الكريم . .

(١) أسرار البلاغة ص ١٥٢ .

(٢) المصدر السابق .

فتشبيهاث الشعراء وراءها هذه النفس التي تتغير عليها
الأحوال فتفاوت قدراتها في تصور المعاني والإحاطة بها لذلك
تفاضل أقوالها وتمايز بلاغتها .

بينما تشبيهاث القرآن الكريم لا تتفاوت بلاغتها وإن تنوعت
صورها واختلفت أسرارها فكل صورة بل كل كلمة في موضعها هي
البليغة وحدها .

٤ - الخطيب الاسكافي ت ٤٢٠ هـ :

وعلماء المتشابه
تعد كتب المفسرين / هي الحقل الأول الذي نشأ فيه

الكلام عن أسرار التنوع وذلك لأن هـ لا هم الذين وقفوا عند

الآيات المتشابهة وألحوا إلى الفروق التي بينها .

ومن هـ لا الخطيب الإسكافي الذي يقول في مقدمة كتابه :

" إني منذ خصني الله بإكرامه وعنايته وشرفني بإقراء كلامه ودرأيته ،

تدعوني دواع قوية يبعثها نظر ورؤية في الآيات المتكررة بالكلمات

المتفقة والمختلفة وحروفها المتشابهة تطلباً لعلامات ترفع ليس إشكالها

وتخص الكلمة بآيتها دون أشكالها فما وجدت أحداً من أهلها بلغ غاية

كنهها . . . ففتقت من أكام المعاني ما أوقع فرقانا وصار المبهم المتشابه

وتكرار المتكررتبياناً ولطمع الجاحدين رداً ولمسلك الملحددين سداً

وسميته " درة التنزيل وغرة التأويل " . (١)

وسنستشهد بمثلين من تلك الآيات المتشابهة التي ذكرها

في كتابه .

(١) درة التنزيل وغرة التأويل ص ٧ ، ٨ .

الاول قوله تعالى :

وَأْمُرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ①

وقوله تعالى :

وَأْمُرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ②

يقول الخطيب : * وللسائل أن يسأل عن اختصاص هذا المكان بالمؤمنين

واختصاص آخر سورة النمل بالمسلمين * (٣)

ثم تأمل كيف يعلل لذلك بالنظر في سياق كل آية فيقول :

* والجواب ^{أن} قبل هذه الآية في سورة يونس قوله تعالى :

ثُمَّ نُنزِلُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنزِجُ الْمُؤْمِنِينَ

فقال بعده : وأمرت أن أكون منهم .

أما في سورة النمل فإن قبل هذه الآية منها :

وَمَا أَنْتَ بِإِلَهِ الْعَالَمِينَ وَمَا أَنْتَ بِإِلَهِ الْعَالَمِينَ وَمَا أَنْتَ بِإِلَهِ الْعَالَمِينَ وَمَا أَنْتَ بِإِلَهِ الْعَالَمِينَ

(١) يونس / ١٠٤ .

(٢) النمل / ٨١ .

(٣) درة التنزيل وغرة التأويل ص ٢١٥ .

فكأنه قال : أمرت أن أكون ممن إذا سمع بآيات آمن بها
 وكان من المسلمين الذين مدحوا بأن النبي صلى الله عليه وسلم يسمعهم
 أى ينتفعون بما يستمعونه منه ، فلما تقاربت اللفظتان وكانتا تستعملان
 لمعنى واحد حملت كل واحدة منهما على اللفظ الذى تقدمها ولاءها . (١)
شاهد آخر :

قوله تعالى في سورة الأعراف :

قَالُوا إِنْ لَنَا لأَجْرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ۝ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ
 الْمُتَرَبِّينَ

وقال في سورة الشعراء :

قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُتَرَبِّينَ

يقول الخطيب : " للسائل أن يسأل عن زيادة (إذا) في سورة الشعراء
 وخلق سورة الأعراف منها .

والجواب أن معنى قوله (إذا) جواب وجزاء وكان من قول
 فرعون لهم إن غلبتم فجزأى أن أجازيكم بإعلاء رتبتهم وتقريب

منزلتكم فلاجل ذلك أفعل هذا بكم ، فاختصت سورة الشعراء
بهذا دون غيرها لأنها موضع بني علي فضل اختصاص لما جرى
لم يبين غيرها عليه من نحو ما تقدم وما يجيء بعد* (١)

(١) درة التنزيل وغرة التأويل ص ١٧٣ .

٥ - الإمام فخر الدين الرازي ت ٦٠٤ هـ :

اهتم الإمام فخر الدين الرازي بالموازنة بين الآيات المتشابهة في المعنى والفرض، وبين الفروق التي بينها في كتابه السمي " التفسير الكبير " وإن لم يستقصها كلها على الوجه الذي سلكه الكرمانسي في كتابه (البرهان) والذي تميز بالإيجاز والوضوح .
ومن تلك الآيات المتشابهة التي وُزن بينها الرازي قوله تعالى في سورة الأعراف :

وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا
هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ
سُبْحَانَ اللَّهِ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ①

وقوله تعالى في سورة البقرة :

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ
ارْغَادًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ
وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ②

(١) آية ١٦١ / الأعراف.

(٢) آية ٥٨ / البقرة .

فقد تناول الرازي الفروق التي بينها وأوجه الاختلاف من وجوه

عده نذكر منها قوله : * إن أفاظ هذه الآية تخالف أفاظ الآية

التي في سورة البقرة من وجوه :

الأول : أنه قال في سورة البقرة :

وَأَدْخُلْنَا أَدْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ

وهاهنا قال :

وَأَدْخُلْهُمْ أَسْكِنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ

الثاني : أنه قال في سورة البقرة فَكُلُوا بالفاء وهاهنا

وَكُلُوا بالواو .

والثالث : أنه قال في سورة البقرة (رغدا) وهذه الكلمة غير مذكورة في

هذه السورة * . (١)

إلى آخر الوجوه التي ذكرها .
في الوجه الأول

ثم يعلل لهذا الاختلاف بالنظر في معنى الكلمة وكيف أن

الدخول يسبق السكنى ولما كانت تلك السورة تسبق هذه كان الأمر

بالدخول أولا ثم السكنى ثانيا ، يقول : * فالفرق أنه لا بد من دخول

القرية أولا ثم اسكنوها ثانيا * . (٢)

(١) ٣٧/١٥ - ٣٨

(٢) المصدر السابق .

ويعمل للوجه الثاني بقوله : " ان الدخول حالة مخصوصة

فما يوجد بعضها يتقدم فإنه إنما يكون داخل في أول دخوله
وأما ما بعد ذلك فيكون سكناً لا دخولاً .

وإذا ثبت هذا فنقول : الدخول حالة منقضية زائلة وليس

لها استمرار فلا جرم يحسن ذكر فاء التعقيب بعده، فلماذا قال :

أَدْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا

وأما السكن فحالة مستمرة باقية فيكون الأكل حاصل منه عقبه

فظهر الفرق . (١)

وهكذا نجد الرازي يعمل لموقع الفاء بالنظر إلى السياق الذي

وردت فيه وصلتها بما قبلها فالفاء هنا للتعقيب لأن الدخول حاله
منقضية .

بينما الواو في (وكلوا) لمطلق الجمع والاستمرار مع السكنى

الدائمة لأن النعمة تقتضي دوام السكنى مع دوام الأكل .

ثم يعلل للوجه الثالث بقوله : " وأنه ذكر في سورة البقرة (رَغَدًا)
وما ذكره هنا، فالفرق الأكل عقب دخول القرية يكون ألد لأن الحاجة
إلى ذلك الأكل كانت أكل وأتم ولما كان ذلك الأكل الذ لا جرم
ذكر فيه قوله " رَغَدًا " .

وأما الأكل حال سكون القرية فالظاهر أنه لا يكون في محل
الحاجة الشديدة ما لم تكن اللذة فيه متكاملة فلا جرم ترك قوله (رَغَدًا)
فيه . (١)

وها هنا يعلل الرازي سر الاختلاف بالنظر بجانب السياق
إلى الحالة النفسية التي هم عليها عند دخولهم القرية وشدة حاجتهم
إلى الطعام فلا شك أن الطعام يكون ألد وأطيب عند شدة الحاجة
إليه فأتى عليهم النعمة بذكر كلمة (رَغَدًا) بينما هم في الحالة الثانية
متنعمون يأكلون من حيث شاءوا .

ومن الآيات المتشابهة التي وقف عندها الرازي قوله تعالى

في سورة الأنعام :

وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَهُوَّ

(١) ٠٣٨ - ٣٧ / ١٥

(٢) الأنعام / ٠٣٢

وقوله في سورة العنكبوت :

(١) وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ

فبشير الرازي إلى أوجه الاختلاف بينها وهو أنه سبحانه قال هناك :

وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا * وقال في سورة العنكبوت * وما هذه الحياة

الدنيا * بزيادة (هذه) ثم يعمل لذلك بقوله : * لأن المذكور من

قبل ها هنا أمر الدنيا حيث قال تعالى : * فأحيا به الأرض بعد

موتها * فقال هذه، والمذكور قبلها هناك الآخرة حيث قال بِحَسْرَتِنَا

عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ مَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ فلم تكن الدنيا

في ذلك الوقت في خاطره فقال (٢) وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا .

تأمل كيف أشار (بهذه) إلى قربها وشولها في حسه ولم يشير

في الآية الثانية بذلك لبعدها عنه .

وبهذه الحاسة الذواقة التي قد تستطرد أحيانا وتندق وتلطف

أخرى وتتأمل في سياق الآيات وفروق الكلمات يعمل الرازي ويوازن ويقارن .

(١) العنكبوت / ٠٦٤

(٢) ٠٩٣ - ٩٢ / ٢٥

٦ - الكرماني (١) :

أفرد تاج القراء الكرماني كتابا في (أسرار التكرار في

القرآن) سماه " البرهان في مشابه القرآن لما فيه من العجبة والبيان "

وقد حدد منهجه في كتابه هذا حين قال :

" هذا كتاب أذكر فيه الآيات المتشابهات التي تكررت في القرآن

والفاظها متفقة ، ولكن وقع في بعضها زيادة أو نقصان أو تقديم أو تأخير

أو ابدال حرف مكان حرف أو غير ذلك ما يوجب اختلافا بين الآيتين

أو الآيات التي تكررت ..

وأبين ما السبب في تكرارها والفائدة في اعادةها .. " (٢)

ثم أنه يبين الحامل له على هذا العمل فيقول : " لأن الأئمة

رحمهم الله تعالى قد شرعوا في تصنيفه واقتصروا على ذكر الآية ونظيرتها

ولم يشتغلوا بذكر وجوهها وعللها والفرق بين الآية ومثلها وهو

المشكل الذي لا يقوم بأعبائه إلا من وفقه الله لأدائه " . (٣)

(١) محمد بن أبي نصر بن عبد الله الكرماني (مجهول التاريخ) ،

صاحب كتاب " شواذ القراءات واختلاف الصحائف " .

النشر ج ١ باب ٣٥ - ٣٦ .

(٢) أسرار التكرار في القرآن ص ١٧ - ١٨ .

(٣) الصدر السابق .

ومن هذه الأسرار التي ذكرها في التكرار قوله عن آية

(٦٠) من سورة البقرة (فانفجرت) وكيف أنها وردت فسي

الأعراف (١٦٠) بصيغة **وَأَنْجَسَتْ** . ثم يعمل ذلك

بقوله : * لأن الانفجار انصباب الماء بكثرة ، والانجاس : ظهور الماء

وكان في هذه السورة (كلوا واشربوا) فذكر بلفظ بليغ ، وفي الأعراف

(١)

* **كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ** * وليس فيه (واشربوا) ، فلم يسالغ فيه * .

ومن ذلك قوله في سورة الزمر ، قال تعالى :

(٢) **ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْهَا مَصْفًورًا مُصْفًورًا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا**

وفي سورة الحديد :

(٣) * **ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا** *

ويعمل الكرمانى سر ذلك بقوله : * لأن الفعل الواقع

قبل قوله **ثُمَّ يَخْرُجُ** في هذه السورة مسند إلى الله تعالى وهو

قوله :

(٤) **ثُمَّ يَخْرُجُ بِهِ زُرْقًا**

(١) أسرار التكرار في القرآن ص ٣٠ .

(٢) الزمر / ٢١ .

(٣) الحديد / ٢٠ .

(٤) الزمر / ٢١ .

فكذلك الفعل بعده (ثم يجعله) .

أما الفعل قبله في سورة الحديد فسنجد إلى النبات وهو :

(١) **أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ**

فكذلك ما بعده وهو **ثُمَّ يَكُونُ** ليوافق في السورتين

ما قبله وما بعده . (٢)

(١) الحديد / ٢٠ .

(٢) أسرار التكرار في القرآن ص ١٨٥ .

٧ - الفيروزآبادى ت سنة ٨١٧ هـ :

اعتنى الفيروزآبادى بالآيات المتشابهة في القرآن الكريم في

كتابه المسمى (بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز) وإن لم يستقصها ^{كلها} وأورد لكل سورة ذكرها فقره بعنوان المشابهات * .

فمن ذلك قوله في سورة المنافقين :

* المتشابهات قوله تعالى :

(١) **وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ**

وبعده : (لا يعلمون) ، لأن الأول متصل بقوله تعالى :

وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

وفي معرفتها غموض يحتاج إلى فطنة والمنافق لا فطنة له ، والثاني متصل

بقوله :

وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ

ألى لا يعلمون بأن الله ممزلا ولياه ومذل لأعدائه * . (٢)

وقال في سورة المؤمنون :

(٣) **لَكُمْ فِيهَا آفَافٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ**

(١) المنافقون / ٥٧

(٢) بصائر ذوى التمييز / ١ / ٤٦٥

(٣) المؤمنون / ١٩

(فواكه) بالجمع و (منها) بالواو وفي الزخرف (١) (فاكهة) على

التوحيد (منها تأكلون) بغير واو .

ثم يعملل الفيروزابادي لذلك بقوله : " راعى في السورتين لفظ

الجنة وكانت في هذه (جنات) بالجمع فقال (فواكه) بالجمع .

وفي الزخرف ﴿ وتلك الجنة ﴾ بلفظ التوحيد وإن كانت هذه جنة

الخلد لكن راعى اللفظ فقال (فيها فاكهة) وقال في هذه السورة

بزيادة الواو لأن تقدير الآية : منها تدخرون ومنها **وَمِنْهَا أَنْ تَكُلُونَ**

تأكلون ، ومنها تبيعون ، وليست كذلك فاكهة الجنة فانها للاكل

فقط . فلذلك قال : (منها تأكلون) ووافق هذه السورة ما بعدها

أيضا ، وهو قوله تعالى :

لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ

فهذا للقرآن معجزة وبرهان . (٢)

(١) الزخرف / ٥٢٣ .

(٢) بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز / ١ / ٣٣٠ .

الفصل الأول :

التشبهات التي تمثل الحياة الدنيا
وأسرار تنوعها .

المدخل :

ورد ذكر الحياة الدنيا وأحوالها في القرآن الكريم في موضع كثيرة منه، جاء بعضها على طريق التشبيه والتشيل، وبعضها الآخر على غير طريق التشبيه أى بأساليب متنوعة تتلاءم مع السياق الذى وردت فيه، بين فيها سبحانه أن ساعها منها عظم فهو في الآخرة قليل

فَمَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ①

وَأَنَّهُ مَتَاعُ الْغُرُورِ ② وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ③

وأنها قد غرت أقواما فأهلكتهم وأن سبب غرورهم بها طمأننتهم إليها وطمأننتهم فيها وإنكارهم للبعث وطمأننتهم أنها هي حياتهم الدنيا -

وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ④

لذلك حذرنا منها غاية الحذر فقال :

إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا تَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ⑤

كما جاء وصف زهرتها في الحديث النبوى الشريف إذ يقول

عليه الصلاة والسلام :

(١) التوبة / آية ٣٨ .

(١) الحديد آية ٢٠ .

(٢) الأنعام آية ٢٩ .

(٤) لقمان آية ٣٣ .

(إِنْ الدُّنْيَا حَلْوَةٌ خَضِرَةٌ وَإِنَّ اللَّهَ سَتَخَلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ
كَيْفَ تَعْمَلُونَ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النَّسَاءَ) (١)

وكان أخش ما يخشاه عليه الصلاة والسلام على أمته ما يفتح

لهم من زهرتها وزينتها :

(إِنْ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي مَا يَفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا
وَزِينَتِهَا) (٢)

وذلك لما سيؤدى إليه هذا الانفتاح من التكالب على نعيمها

والتنافس في متعها والتكاثر والتفاخر بزینتها ومن ثم التحاسد والتدابير

والتباغض والانشغال بهذه المتع عن طاعة الله .

لذلك يقول عليه الصلاة والسلام في حديث طويل :

(فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تَبْسُطَ الدُّنْيَا

عَلَيْكُمْ كَمَا بَسَطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتَهْلِكُكُمْ كَمَا

أَهْلَكْتَهُمْ) (٣)

(١) رواه مسلم ٢ / ٢٧٤ .

(٢) متفق عليه ، البخارى ٣ / ٢٥٨ .

(٣) مختصر صحيح مسلم ، تحقيق ناصر الدين الألباني ص ٥٥٣ .

وقد جاء بيان أحوال الدنيا وسرعة انقضائها مع قوة اقتزار
الإنسان بها من طريق التشبيه والتشليل في مواضع صدودات / القرآن
الكريم جاء في سورة يونس قوله تعالى :

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ
نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ
زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَطْنَ أَهْلِهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَنهَذَا أَمْرُنَا
لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ
نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ①

وجاء في سورة الكهف :

وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا
تَذَرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ②

وجاء في سورة الحديد :

أَعْلَوْا إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ
وَزِينَةٌ وَمَفَاخِرٌ بَيْنَكُمْ وَكَثُورٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ
أَعْجَبَ الْكُفَّارِ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا
وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ
الدُّنْيَا إِلَّا لَمْتَعٌ مُّزْمَرٌ ③

(١) يونس آية ٢٤ .

(٢) الكهف آية ٤٥ .

(٣) الحديد ٢٠ .

ويلاحظ أن هذه التشبيهات تشترك في معنى عام وهو تقرير
وتأكيد أن الحياة الدنيا آيلة إلى الفناء سريعة الانقضاء ، ومع ذلك
فإنسان قوى الفتنة / غافل عن حقيقتها وقد تحمله فتنته واغتراره بها
إلى أن يظن القدرة عليها أو يفاخر بها على فقراء المسلمين ، أو يشغله
العجب بها عن طاعة الله والإنفاق في سبيله حتى تنتهي هذه الدنيا
وتتجلى حقيقتها الفانية إما بعقوبة من الله أو باستدراج الله لهم .

كما يلاحظ أن هذه التشبيهات تشترك في عناصر عامة هي
الماء النازل من السماء ونيات الأرض المختلط به ، والفناء الذي يؤول
إليه بعد زهوه ونضارته .

وتنفرد كل صورة من صور التشبيه بعد ذلك بعناصر خاصة
تتلاءم مع السياق الذي وردت فيه .

وفي هذا الفصل سوف أجتهد في بيان مناسبة كل تشبيه لسياقه
لأننا نعرف ابتداءً أن كل تشبيه جاء مطابقاً لسياقه ، وهذا لا يحتاج
إلى إثبات لأنه ثابت ببلاغة القرآن فضلاً عن إعجازه .
وإنما الذي أحاوله هو بيان هذه المناسبات وأسرار تنوعها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى :

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ
نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ
زُخْرُفَهَا وَازَّيَّتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَنهَذَا أَمْرُنَا
لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ
نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ①

(١) الآية ٢٤ من سورة يونس .

من أسرار المناسبة :

يقول العلامة الإمام البقاعي رحمه الله تعالى (١)

ما ملخصه :

" ان الأثر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذي سبقت له السورة ، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات ، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب ، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل ، بدفع عنا الاستشراف إلى الوقوف عليها فهذا هو الأثر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن فإذا عقلت تبين لك وجه النظم مفضلاً في كل آية ، وآية في كل سورة "

ويقول الإمام البقاعي :

" وقد ظهر لي باستعمالي لهذه القاعدة أن اسم كل سورة مترجم (دال) على مقصودها لأن اسم كل شيء تظهر المناسبة بينه وبين سماه (عنوانه الدال اجمالاً على تفصيل ما فيه) ومقصود كسل سورة هاد إلى تناسبها " (٢)

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ح ١/ ١٨ - ١٩

(٢) نظم الدرر ١/ ١٨ - ١٩

وقد علق الدكتور محمد محمد أبو موسى على هذا النص بقوله

ما ملخصه :

والنظر هنا ينَّهَل في جهات أربع :

الأولى : نظري في الفرض واستكشافه وتحديده ، وليس هذا بالأمر

المهين لأنه لا يظهر إلا بفحص الكلام كلمة كلمة ، وتركيبا تركيبا ،
وصورة صورة .

والجهة الثانية : النظر في المقدمات ، يعني معرفة منازل المعاني

ومراتبها في ضوء المعرفة الواضحة للفرض الذي انعقد عليه
الكلام وبهذا نوضح المعنى الذي هو بمثابة الأصل والمعنى
الذي هو مبهام ووظء وهذا باب من النظر يحتاج إلى مراجعة
وأناة .

والجهة الثالثة : أن ننظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من

المقصود يعني العلاقة بين المقدمة والمطلوب . . .

وهذا في الشعر يفيد أن الحديث عن الظل والرحلة

والصاحبة في قصيدة المديح غير الحديث عن الظل والرحلة

في قصيدة الهجاء ومدائح الكتاب والعلماء غير مدائح غيرهم

وهكذا . . .

والجهة الرابعة : هي النظر في حركة الكلام وكيف تشير في سيرتها

هو اجس وأحوالا وأشجانا نرى الكلام يقف عندها ويتقلقل

حتى يشيع أحوال الاستشراق هذه وذلك وفاء لحسب
البلاغة كما قالوا وهو جيد لأنه استكشاف حالة المجازية
بين اللغة والنص . (١)

وإذا ما عدت إلى الآية الكريمة الواقع فيها المثل وجدت
أن من الدوافع العامة /تغتضي إبراز هذا المعنى في صورة المثل أن هذا
المعنى ما تقع الغفلة فيه ، غفلة لا توقظها اللغة المجردة ، فأكثر
أهل الأرض غافلون عن حقيقة هذه الحياة الدنيا مفترين بها ، هذا
إلى جانب أن تقرير هذا المعنى وتوكيده في النفس يمثل ركنا من أركان
الإيمان ، فالوقوف على حقيقة هذه الحياة الدنيا واليقين بسرعة انقضاءها
وقلة بقاءها ، ما يحمل النفس على الإقبال على الدار الآخرة ، والتأهب لها .
ولا سبيل إلى تحريك هذه الدوافع وإيقاظ تلك الغفلة إلا بفتح
باب من العين إلى مكان العقول من قلبك يجعلك تبصر هذه الحياة
الدنيا في إقبالها وإدبارها ماء ينزل من السماء فيختلط به نبات الأرض
فإذا هو مرنق مغدق ، وإذا به قوام حياتك * حتى إذا أخذت
الأرض زخرفها وازينت * فإذا هي عروس فاتنة تسبي الأرواح وتأخذ
بمجامع القلوب ، وإذا الإنسان أسير فتنتها وهو يظن أنه أسرها ومالكها
والقادر عليها فتندرة لا يشوبها فتور ولا وهن ، فيطفئ ويبقى فسي
الأرض ويففل عن الدار الآخرة والتأهب لها ، وسرعان ما يأتي أمر الله

(١) مقدمة البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ؛ د / محمد محمد أبو موسى

فيحمد جذور هذه الحياة الدنيا ، ويغني* هذا الوهج المتألق وجعلها

حَصِيدًا كَانَ لَمْ تَعْنِ بِالْأَمْسِ

ومن خلال هذا التمثيل البديع ترى وتسمع وتفكر وتجسد
وتعقل وتحس ، حتى يتقرر ذلك في النفس أبلغ قرار وأكده وقد نفذ
إليها من منافذ شتى لا من منفذ الذهن وحده وباللغة المجردة .

وعند النظر والتأمل لسباق الآيات في سورة يونس قبل بدء
المثل يتبين لنا كيف تمهد الآيات السابقة لهذا المعنى وتوطن* له .

يقول عز وجل :

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا
وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ①

هذا القول الكريم يوحى بأنهم لا يأملون لقاء الله بالبعث
والإحياء وآثروا هذه الحياة الفانية واطمأنوا إليها وانكبوا عليها قاصرين
مجامع همهم على لذائذها وزخارفها* . (٢)

وفي لفظ الاطمئنان ما يوحى بالفغلة والبعث والإغراق .

وفي قوله عز وجل بعد :

فَنذُرًا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ②

-
- (١) الآية ٧ من سورة يونس .
(٢) أبو السعود ٠١٢٢ / ٤
(٣) الآية ١١ من سورة يونس .

استدراجاً من الله سبحانه وتعالى وإمهالا للكافرين الغافلين
عن البعث والجزاء ، حتى يظن الظان منهم أنه ليس بمعذب وإنما هوفي
مهلة ثم يوه خذ على غرة منه .

وفي قوله عز وجل بعد :

كَذَلِكَ نُنزِّلُ اللَّيْلُ فِي نِجْمٍ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ①

فيه من أسباب تماديهم في الغفلة والبغي والإسراف ما يزيّن
لهم سوء أعمالهم .

ثم يعقب ذلك قوله عز وجل :

هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَ بِكُمْ
بِريحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحْتُمْ بِهَا جَاءَ تِيَارٌ مِّنْ عَاصِفٍ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ
مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ
لَئِن أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ② فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ
يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ
مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ③

يصف جهود الإنسان الكافر وكنوده لربه ، وشدة افتتانه
بالحياة الدنيا وأن فطرته التي فطره الله عليها لا تصفو ولا تتجلى إلا في

(١) الآية ١٢ من سورة يونس .

(٢) الآية ٢٢ ، ٢٣ من سورة يونس .

وقت الشدائد والمحن عندما يحاط به ثم لا تثبت أن تخالطها الشهوات والشبهات وعبادة غير الله ، حينما يشعرون بالأسن ويمتد بهم الزمان فيطففون ويبفون في الأرض .

ثم تأمل كيف فعلوا هذا النداء * يَا أَيُّهَا النَّاسُ * بمافيه

من التهديد والمبالغة في الوعيد ، ليكشف لهم حقيقة نعيمهم وأن العاقبة عليهم وأن ما هم فيه من المتعة والمنفعة العاجلة شيء لا يعتد به سريع الزوال دائم الوبال * ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ * تأمل ما وراء "ثم" التي توحى بتراخي العسر عليهم وأن هذا التراخي استدراج من الله لهم ، ثم * فَتَنْبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * في الدنيا من الاستمرار في البغي وهو وعيد بالجزاء والعذاب .

وهكذا يوطن سباق الآيات لهذا التشيل ويقتضي هذا التحليل والتفصيل والذي يكشف لهم القناع عن حقيقة هذه الحياة الدنيا وحالها " العجيبة الشأن البديعة المثال المنتظمة لغرابتها في سلك الأمثال، في سرعة تقضيها وانصرام نعيمها غمب إقبالها واغترار الناس بها بحال ما على الأرض من أنواع النبات في زوال رونقها ونضارتها فجأة وذهابها حطاماً لم يبق لها أثراً أصلاً بعدما كانت غضة طرية قد التف بعضها ببعض وزينت الأرض بألوانها وتفتت بعد ضعفها بحيث طمع الناس وظنوا أنها سلمت من الجوائح .^(١)

(١) أبو السعود ١٣٧/٤ .

وقد ذكر أهل العلم في أسرار مناسبتها ووجوه شبهها كلاما

فقالوا :

قال الزمخشري : "شبهت حال الدنيا في سرعة تقضيها

وانقراض نعيمها بمد الإقبال بحال نبات الأرض في جفافه وذهابها

حطاما بعدما التف وتكاثف وزين الأرض بخضرتها ورفيفه * (١)

وقال أبوحيان : " ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى

لما قال :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَعَيْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

ضرب مثلا عجيبا غريبا للحياة الدنيا يذكره من يعرض فيها على سرعة

زوالها وانقضائها وأنها ليجال ما تعز وتسر تضمحل ويؤول أمرها إلى

الفساد * (٢)

وقال ابن القيم : " شبه الحياة الدنيا في أنها تتزين فسي

عين الناظر فتروقه بزینتها وتعجبه فيميل إليها ويهواها اغترارا بها حتى

إذا ظن أنه مالك لها قادر عليها سلبها بغتة أحوج ما كان إليها

وحيل بينه وبينها * (٣)

(١) الكشاف ٢/٢٣٣

(٢) البحر المحیط ٥/١٤١

(٣) التفسير القيم للإمام ابن القيم ١/٣٠٥

وقال الفخر الرازي : " اعلم أنه تعالى لما قال :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ وَمَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا

أتبعه بهذا المثل العجيب الذي ضربه لمن يبغى في الأرض ويفتر بالدنيا ويشدد تسكه بها ويقوى إعراضه عن أمر الآخرة والتأهب لها " (١)

وقال الإمام البيهقي : " ولما كان السياق لإثبات البعث

وتخويفهم به وكانوا ينكرونه ويعتقدون بقاء الدنيا وأنها إنما هي أرحام

تدفع وأرض تطلع دائما بلا انقضاء فهي دار يرضى بها فيطمئن

إليها وللتنفير من البغي والتعزز بغير الحق وكانت الأمثال أجلى

لمحال الإشكال قال تعالى مثلا لمتاعها قاعرا أمرها على الفناء ردا

عليهم في اعتقاد دوامها من غير بعث " (٢)

(١) تفسير الفخر الرازي ٧٦/١٢

(٢) نظم الدرر ١٠١/٩

من أسرار اللغة والنظم :

قال تعالى: **إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ①** جاءت هذه الآية الكريمة

بمنزلة البيان لجملة "متاع الحياة الدنيا" في الآية السابقة .
لذلك لم تعطف على ما قبلها وإنما قطعت واستأنف بها ، وأتت "إنما" هنا
لتشير إلى أن قصر الحياة الدنيا على هذا المثل المصور لبدأيتها
ونهايتها ، أمر واضح معلوم لا يجوز لذي عقل أن ينكره ، فما أشد
جهل أولئك الغافلين عن هذه الحقيقة المطمئنين لهذه الحياة الدنيا
المنكرين للبعث والجزاء . إذ الأصل في الأداة "إنما" أن تأتي
فيما هو معلوم وغير منكر ، كما أنها توحى بالتمريض بغفلة هو لا
القوم وجهلهم وهو من أجل مواقع "إنما" وألقها بالقلب .

والقصر هنا قصر قلب يعني على تنزيل المخاطبين منزلة من
يحسب دوام بهجة الحياة الدنيا فقلب عليهم المثل القرآني اعتقادهم
وبصرهم بخطأ تصورهم .^(٢)

وقد التمس هذا على أبي حيان ، فنفى أن تكون "إنما" للحصر
فقال : " وإنما هنا ليست للحصر لا وضعا ولا استعمالا ، لأنه تعالى ضرب
للحياة الدنيا أمثالا غير هذا " .^(٣)

(١) انظر آية ٢٣ من سورة يونس .

(٢) انظر التحرير والتنوير ١١ / ١٤١ .

(٣) البحر المحيط ٥ / ١٤١ .

ولو أنه راعى السياق الذى وردت فيه "إنما" لما فاتته ذلك
(رحمه الله) لأننا لو نزعنا من "إنما" إفادتها القصر وجعلناها
للتوكيد فقط لا غفلنا قدرًا عظيمًا من المعنى المقصود من إيرادها وهو حسم
شبهة المنكرين ، والتعريض بغياباتهم وغفلتهم . ولما كان وراء ذلك
أكثر من إثبات هذه الصفة للحياة الدنيا وليس هذا المراد فحسب ،
وإنما المراد هذا النفي بعد الإثبات المستفاد من إنما وهي نفي أن تكون
الحياة الدنيا كما توهموها فانكبوا عليها وتعلقوا بها وهذا هو محض المعنى .
والشبهه : حال الحياة الدنيا في سرعة انقضائها وانعدام نعيمها غيب
إقبالها واعتزاز الناس بها .

والشبهه به : هو الصورة المكونة من ماء ينزل من السماء فيختلط

به نبات الأرض فيزهو النبات ، وتتزين به الأرض ثم يصبح فناً .

والمثل : " الحال المائلة على هيئة خاصة " ، " وأصل الثول

الانتصابُ والمثلُ المصور على مثال غيره ، يقال مثل الشيء أى انتصب
وتصور ، والمثل عبارة عن قولٍ في شيء يشبه قولاً في شيء آخر بينهما
مشابهة ليبين أحد هما الآخر ويصوره وهو أعم الألفاظ الموضوعات
للمشابهة . (١)

(١) الفردات في غريب القرآن للراغب - مادة (م ث ل) .

ثم تأمل مشول الحياة الدنيا وانتصابها بين يديك ، بعد أن كانت
معنى مضمراً في ذهنك ، وما وراء ذلك من قوة الإحساس بها ورويتها
مقبلة مدبرة وتوكيد هذا في النفس أبلغ توكيد .

"لأن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي
وتأنيها بصريح بعد مكنى" . (١)

وقوله تعالى : الْحَيَاةُ الدُّنْيَا

" تعنى مدة الحياة الناقصة غير الأبدية ، لأنها مقدر
زوالها ، فهي دنيا ، وتشمل مدة بقاء الأشياء الحية ، ومقام الأرض ، وقد
تعني مدة حياة الأقران أى حياة كل أحد ، ووصفها بالدنيا لقربها ،
أى الحاضرة غير المنتظرة كنى عن الحضور بالقرب" . (٢)

وفي هذا الوصف إشارة إلى نقصانها وقربها وزوالها وأن هناك
حياة أخرى تقابلها لها الكمال والبقاء .

وقوله تعالى :

كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ

وَالْأَنْعَامُ ﴿١٠٢﴾

(١) أسرار البلاغة ص ١٠٢ .

(٢) التحرير والتنوير ١٥ / ٣٣١ .

وراء اختيار هذه العناصر المكونة لصورة المشبه به ما وراءها من

اللطائف والدقائق .

ففي تنكير كلمة " ماء " تشریف وتعظيم لهذا الماء الذي به بدأ

الحياة ، وما يؤيد هذا المعنى قوله " أنزلناه " إذ لا يذكر القرآن
هذا الفعل بهذه الصيغة إلا في مواضع التشریف والتكريم والتعظيم كقوله

تعالى :

(١) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَّارَكٌ

وقوله : إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (٢)

وفي قوله : " من السماء " تأكيد لسوء هذا الماء وطهارته

ونقاته وعلو مصدره .

فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ

" خَلَطَ مخالفٌ لَخَلَصَ مُضادٌ له ، تقول خَلَطْتَ الشَّيْءَ بِغَيْرِهِ

فاختلط ، والخليطُ المجاور ، ويقال : الخِلْطُ ؛ السَّمُّ يَنْبِتُ عِوَجًا عَلَى

عِوَجٍ فَلَا يَزَالُ يَتَمَوَّجُ وَإِنْ قَوْمٌ وَهَذَا مِنَ الْبَابِ لِأَنَّهُ لَيْسَ يَخَالَطُ فِي

الاستقامة " . (٣)

(١) الآية ٩٢ من سورة الأنعام .

(٢) سورة القدر آية ١ .

(٣) القاموس مادة (خلط) .

وقد يوحي هذا النص بأن النفس تولد على الفطرة ثم يخالطها من المطامع والشهوات ما يشوب صفاً فطرتها ، وسياق الآيات العاضية أرانا كيف تعود هذه الفطرة إلى التجلى والصفاء عندما يحاط بها فتخلص الدين لله ، ثم كيف تخالطها الشهوات عندما تأمن مكر الله ويطول عليها العمر .

وقد اختلف العلماء في معنى (الباء) في قوله

تمالسى :

فَاخْتَلَطَ بِهَا نَبَاتُ الْأَرْضِ

أهي للمصاحبة أم للسببية ؟ وهم باختلافهم هذا يفسحون معنى الكلمة ويستخرجون ودائعها ، لأن الكلمة القرآنية رحبة سخية لا ينتهي عطاؤها ، لأنها كلام الله ما دامت تلك المعاني لا تتضارب ولا تخرج عن مقتضى السياق .

ومعنى المصاحبة : أن النبات اختلط بالماء نفسه فهو يجرى

فيه مجرى الغذاء وخالطه . (١)

(١) انظر روح المعاني للأوسى ١١/١٠٠ .

خذ مثلاً قول أبي حيان : في معنى (الاختلاط) وأنه
تشبث النبات بالياء وتلقفه إياه ، وقوله له لأنه يجري مجرى الغذاء ،
وكيف خالطه وداخله فغزى كل جزء منه . (١)

وما يفيض به هذا الجزء من المشبه به على المشبه من فيوضات
فهذه الياء توحى بتشبث الإنسان بهذه الحياة الدنيا وتعلقه بها
وقوله لها ، وهي تجرى منه مجرى الدم . فأرضها مهاده ، وسماؤها
دثاره ومنها خلق وفيها يعباد ومنها يخرج تارة أخرى .

بينما يذهب الزمخشري وغيره من المفسرين إلى أن "الياء" هنا
للسببية والمراد : اشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضاً (٢) "فتقوت
بعد ضعفها بحيث طمع الناس وظنوا أنها سلمت من الجرائم" (٣)

وكلمة "نبات الأرض" : توءد معنى الضعف والطرادة ثم ما
آل إليه حاله بعد اختلاطه بالماء فطال وامتد وقوى واشتد وتكاثف وتكاثر
واشتبك بعضه ببعض .

وهذا الجانب من المشبه به : يوحى بنضارة العيش ونعيمه
واقبال زهرة الحياة ، وكيف تألقت نضرتها في العين وأشرفت بهجتها
في النفس فأقبل عليها الإنسان وافتتن بها .

(١) البحر المحيط ٥/١٤١

(٢) الكشاف ٢/٢٣٣

(٣) أبو السعود ٤/١٣٧

فتأمل كيف استأنس الماء نبات الأرض، فلان له واحتفظ به أو كيف أسرع في بعث الحياة، ولا زال الجور طبعاً نديا فتكاثر النباتات وتكاثر .

هذا ما توحى به الفاء في قوله " فاحتفظ به " والتي توحى أن بسرعة نماء الحياة وإقبالها ، وإن كل ذلك مترتب على نزول الماء . (١)

وقوله عز وجل :

مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ

تأمل قيمة هذه الجملة التي أتت لتصف حال هذا النبات ، فليس هو النبات الذي يجهج منظره وتسره النفوس فحسب ، وإنما هو فسوق ذلك النبات الذي به قوام حياة الناس والأنعام ، لأن النبات كما يقول علماءنا ينقسم إلى مأكول وغيره (٢) ، والآية أجلت قيمة هذا النبات وأوحت بالرغبة العارمة والتعلق الشديد بما هو قوام حياتهم ، ويقابل ذلك التعلق الشديد بهذه الحياة الدنيا .

وسا يزيد هذا التعلق والرغبة فيه ككرة هذه النعم ووفرتها وسخائها تأمل هذا حين تكون الأنعام مشاركة للناس في الأكل تجسد

(١) انظر التحرير والتنوير ١١/١٤٢٠

(٢) انظر البحر المحيط ٥/١٤٢٠

هذا في القرآن عند التذكير بنعم الله على خلقه :

وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى
كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ①

ولكن شدة فرق دقيق بين قوله تعالى :

كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ

مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ

وقوله :

إذا أردت أن تتف على فتأمل هذه الإضافة الفصحة عن أن

الأنعام سخرة مذلة لهم ، لأنها أنعامهم ، وأنهم المالكون لها القدرون

عليها وما وراء ذلك من التكريم لهم .

ووازن بينها وبين هذه المشاركة في الفعل مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ

والتي توحى باستوائهم في التمتع والتذوق بنعم هذه

الحياة :

وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ ②

وما وراء ذلك من الازدراء والإهانة والتحقير حين لا يكون هم الناس إلا

متاع الحياة الدنيا .

(١) الآية ٥٣ ، ٥٤ من سورة طه .

(٢) سورة محمد آية ١٢ .

ولو أنه أراد سبحانه وصف تنوع الأكل لقال : (مِمَّا يَأْكُلُ
النَّاسُ وَيَأْكُلُ الْأَنْعَامُ) ولكن هذه المشاركة في الفعل أوحى بهذه
المخالطة في طلب المتعة والتلذذ .

والتعبير بالأكل عن التمتع بالحياة تمبير سخى جدا يجسم
في الخيال صورة حسية لهذا التمتع ، يشارك في إدراكها الحس والذوق
وهو أبلغ في الإحساس ، مما يورى إلى تميق هذا في النفس الحية ،
ومن ثم ترغيبها عنه .

وهذا الالتفات في صيغة الفعل (يَأْكُلُ) من الماضي السدى
عليه نسق الآيات إلى المضارع . فيه إيقاظ ولفت وتنبه إلى ضرورة التأمل
والتفكر في هذه الصورة الحافظة بالحركة ، والسعي الحثيث المتجسّد
في طلب التمتع ، ترى فيه الناس والأَنْعَام لا يفتأون منكبين متهاكبين ،
يأكلون كما أفاقوا من لذة فزعوا إلى أخرى في حرقة ونهم بالغ وعشق
حارق للحياة .

وإذا راجعت المثل واستقصيت التأمل ، وجدت أن المثل
يحكي قصة مضت وانتهت ويتحدث عن حياة قامت ثم بادت ، ولكن هذه
اللقطة " ما يأكل الناس والأَنْعَام " تظل تنبض بالحركة ترى فيها
الناس والأَنْعَام لا يزالون يأكلون ، ولكن ماذا يأكلون ؟

يأكلون الحصيد و يأكلون الفناء !

نقلة نفسية عظيمة ترينا ما سوف يقع بأنه واقع الآن وأمام أعيننا
فهو لا محالة واقع .

وأما قوله تعالى :

حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ ①

" ففي معنى الغاية الاستفادة من (حتى) كما يروى أن
بين يدعى ظهور لذات الحياة الدنيا وبين منتهاها مراتب جملة وأطواراً
كثيرة طويت في معنى حتى " (٢).

وهذا من بدائع أحكام هذا النظم الشريف وجليل سبكه وكيف
يرتبط الكلام بعبءه ببعض ، ويتناول الزمان في ذلك الفعل حتى يصل
ما قبلها بما بعدها ، ويجعل ما بعدها غاية لما قبلها ولا يكون ذلك
إلا باحدى وجهين إما بتقدير محذوف :

" أى فما زال ينمو حتى إذا "

أو يتجاوز في (فَأَخْتَلَطَ) أى فدام اختلاط النبات بالماء
حتى إذا " (٣).

وراء ذلك ما وراءه .

فقوله " فما زال ينمو حتى إذا " وراءه توغل جذوره وكثرة
قطوعه وقوة تماسكه + وراءه " فدام اختلاطه بالماء حتى إذا " بقاء
نضارته وبهيجته ودوام طراوته وفتنته .

-
- (١) يونس آية ٢٤ .
(٢) التحرير والتنوير ١١/١٤٣ .
(٣) انظر البحر المحيط ٥/١٤٢ .

وورا^١ ذلك إلا من إلى هذه التي تقوت بعد ضعفها بحيث طمع

الناس فيها وظنوا أنها سلمت من الجوائح .

يقول صاحب التحرير والتوير : " والقول في (حتى إذا أخذت

الأرض زخرفها) كما تقول في قوله **حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِّ** وهو

غاية ، شبه بها بلوغ الانتفاع بخيرات الدنيا إلى أقصاه ونضوجه وتماه ،

وتكاثر أصنافه وانهماك الناس في تناولها ونسيانهم المصير إلى الغناء^(١) .

ولا يفوتك وأنت مسحور بهذا الكلام الذي قال عنه علماءنا :

" إنه أغض من السحر وأهول من البحر وأعجب من الشمر^(٢) . أن تقف

أمام هذا التعبير في أداة الشرط (إذا) فترى كيف أكسب الكلام قوة

أسر ، وشدة تلاحم ووقفة سبك وأحالة من الخبر إلى تحقق الوقوع ، وعقد

آخره على أوله وجعل بعضه آخذاً بحجز بعض .

ولو قيل **حَتَّىٰ أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا** لانحلت عقدة

الكلام وانقصت عراه وتناثرت لآلئه وذهب ماؤه .

وهذه الجملة وهي قوله عز وجل :

حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَأُزِّقَتِ

وقف عندها المفسرون وقالوا عنها : إنها " كلام فصيح وجملة بدعيمة

اللفظ ، جعلت الأرض آخذة زخرفها متزينة ، وذلك على جهة التشييل بالمروس

إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكتست وتزينت بأنواع الحلبي^(٣) .

(١) التحرير والتوير ٤٣/١١ (١٠٠) .

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني ص ٨٦ .

(٣) البحر المحيط ١٤٢/٥ وانظر الكشاف ٢/٢٣٣ .

فالمعنى مبني على استعارة وهي لينة في هذا المثل ما يجعله
أخصب وأشد تأثيراً وأقوى إيحاءً، لأن هذه العناصر البلاغية إنما تدمج
بعضها في بعض عندما تتكاثف المعاني وتتكاثر وتكون من الغزارة والوفرة،
بحيث لا يوجد سبيل للإيانة عنها إلا هذا، ولأن التعبير بها في
هذا الموضع، أغزر وأبين وأمكن، وهذه سمة من سمات الإعجاز في القرآن
الكريم ترى فيه هذه الصور البيانية لا تأتي توشيحاً ولا حلية لفظية،
وإنما تأتي في موضع لا يتم المعنى إلا بها، فتجد كل جملة في موضعها
بليغة .

ثم ماذا وراء هذه العروس التي أخذت الثياب الفاخرة من كل
لون واكتست وتزينت بأنواع الحل والفتنة إلا تصويرٌ دقيق بالغ لحس
هذه النفس الغافلة والمفتنة بهذه الحياة الدنيا .

أرايت كيف تصل هذه اللغة الشريفة العالية إلى مضمرة النفوس
وتتفرس في جذور القلوب لتبين عما يتراءى لها وتوهمه، وكيف تتكاثف
عناصر التعبير تبعاً لقوة الإحساس بهذه الحياة الدنيا، وطغيانسه
على الناس، فإذا الأرض لم تعد أرضاً، بل غادة حسناء ترفل في ثوب
عرسها .

ليس هنا تشبيه، لأن في التشبيه إيحاء بأن شمة فرق
بين المشبه والمشبه به يحتفظ كل منها بخصائصه وحقيقته أما في
الاستعارة فوهم بالغ يفلب النفس * ترى فيه الجماد حياً ناطقاً والأعجم
فصيحا والأجسام الخرس مبينة والمعاني الخفية بادية جليلة" (١)

(١) عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة ص ١٠٢

ثم دع الخيال يتلمس ما وراء ذلك من شدة التعلق واستغراق القلب والمبالغة في الحفاوة والأُنس .

وإذا ما عدنا إلى الآية الكريمة ، وجدنا مفرداتها تتضافر جميعا لتوكيد هذا المعنى .

تأمل كلمة (أَخَذَتْ) وهل تجد كلمة تعطي عطاءها في هذا الموضع . " فالأخذ هو التناول باليد " (١) ووراءه القوة والقدرة والتمكن " والأخذ حَوَزَ الشَّيْءِ وَجَبَّهُ وَجَمَعَهُ " (٢)

ووراء هذا إيحاء بأن هذه العروس إنما تأخذ في أخذها القلوب وتسبب العقول وتستولى على النفوس لشدة اغترارهم بها .

ولو نزعنا هذه الكلمة من مكانها ثم أبدلت بما يراد فيها لا نطقاً بهذا المعنى ، ولفظ القرآن أبلغ وأمكن .

والزخرف : " الزينة المزوقة ومنه قيل للذهب زخرف " (٣)

والمراد : " حسنيتها وهجتها " (٤)

(١) البحر المحيط ٥/١٤٢ .

(٢) المقاييس مادة (أخذ) .

(٣) المفردات للراغب مادة (زخرف) .

(٤) روح المعاني ١١/١٠٠ .

وهذه اللفظة تُشيع القرآن جواً ساحراً آخذاً يكاد يخطف
الأبصار ببريقه وتألقه وكمال حسنه وفي إضافة الزخرف إليها دليل على
ميلغ احتفائها به .

وقوله تعالى : (وَأَزَيَّنَّتْ) : استيفاءً لا يُعاد هذه الصورة الفصيحة

اللفظ عن بديع معناها وذلك بترشيح الاستعارة وإشاعتها وفي ذلك
إيغال في الوهم وزيادة في الافتنان ، وإغراق في البعد والغفلة .

وفي عطف (وَأَزَيَّنَّتْ) على قوله : " أخذت الأرض زخرفها " توكيد

لما قبلها لأنك حين تتأمل المعنيين ، تجدهما من باب واحد ، وهذه الواو
المؤنونة بتغايرهما كأنها أوهمت أن قوله (وأزينت) صفة جديدة مفايرة
للتى قبلها ، ومستقلة في إبراز حالة أخرى من حالات هذه العروس وهي
حرصها العميق على هذا التزين لما وراءه من تأثير وفتنة .

وما يوجب ذلك صيغة الفعل ، وكيف داخلها الإدغام

اليوحى بأنها تختفي بهذه الزينة وتحتفل بها ، وكأن هناك نوعان من
الزينة ظاهر جلي ومدغم وخفي (١) .

وقد يكون قوله " وأزينت " والله أعلم من عطف الخاص على العام

وفي تضعيف حرف الزاي في " وأزينت " ما يوحى بأن هذه الأرض تكاثفت
فيها الزينة وتضاعف فيها الرونق .

وَوَظْنَ أَهْلَهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا

وكلمة (ظَنَّ) في اللغة تأتي بمعنى الشك كما تأتي بمعنى
"اليقين" . (١)

والسدى يظهر لي - والله أعلم - أنها لا تضيق عن هذين
المعنيين مجتمعين فقله عز وجل : * وَظَنَّ أَهْلَهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا *
يقين مابعد يقين بالقدرة عليها والتمكن من تحصيل منفعتها ورفع غلتها
وذلك لحسن نموها وسلامتها من العاهات . (٢)

وما يؤيد ذلك هذا اليقين قوله :

أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا .

تأمل كل هذه التأكيدات من أن واسعة الجملة ، واختيار لفظ القدرة ،
كل ذلك يدل على قدرتهم الدائمة عليها ، والتي لا يمتريها فتور ولا وهن
وأن ذلك اليقين بالقدرة الدائمة عليها صا در من أهلها ، أي ممن خالطوها
وألغوها زماناً أزال وحشتهم بها وغربتهم فيها ، فأصبحوا من أهلها وما وراءه
من الأنس بها .

وهذا المعنى يتلاءم مع السياق السابق الذي ترى فيه أولئك
الغافلين " يسيفون في الأرض " أي يسرعون في الفساد فيها متجاوزين
كل حد .

(١) المفردات للراغب مادة (ظن) .

(٢) انظر الكشاف ٢٢/٢٢٣ .

فيقول الراغب : " وَظَنَّ أَهْلَهَا أَنَّهُمْ قَدَرُونَ عَلَيْهَا " تنجيسه
على أنهم صَارُوا فِي حُكْمِ الْعَالَمِينَ لِفِرْطِ طَمَعِهِمْ وَأَمَلِهِمْ " . (١)

فإذا ما عدنا إلى هذا اليقين الذي خالط قلوبهم نجد أنه
سني على الظن وغلبة الهوى وما سولته لهم أنفسهم حتى استيقنته قلوبهم
تأمل بناء الجملة كيف ينست هذا اليقين على الظن فعبرت بهيئتها
عن معانيها .

ثم تأمل كيف ينهار هذا اليقين والظن البالغ الذي بنوه على
شفا جرف هار ، أمام إتيان أمر الله بفتة .

أَتَيْتُكُمْ بِآيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُبَيِّنَ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ هُمْ يَكْفُرُونَ

ومعناه " نزل بها ما قدرناه من العذاب وهو ضرب زعمها
بما يحتاجه من الآفات والمعاهات " . (٢)

ويقول الزمخشري : " وهو ضرب زعمها ببعض المعاهات بعد
أنهم واستيقنتهم أنه قد سلم " . (٣)

تأمل ما وراء ذلك من عظم الخطب وشدّة الحسرة وهذا يتناسب
مع طغيانهم وشدّة الغفلة .

(١) المفردات للراغب مادة (ظن) .

(٢) روح المعاني ١٠١/١١ ، أبو السمود ١٣٧/٤ .

(٣) الكشاف ٢٢٣/٢٢ .

ثم تأمل ما توحى به لفظة " أمرنا " من السرعة ، إذ من معاني الأمر : سرعة الإيجاد بأسرع ما يدركه الوهم :

وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (١)

و كيف يتلاءم مع (أتى) " لأن أتى مجيء بسهولة " . (٢)

وفي الاضافة في كلمة (أمرنا) ما يوحى بالتمعظيم والهيبة والإجلال والإكبار لهذا الأمر وعظيم القدرة التي تطوى الكل في وضعة .

ثم تأمل هذا التناسق البديع بين قوله تعالى :

هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِ وَجَعَلْنَا مِنْكُمْ

إِلَى قَوْلِهِ : وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ

وقوله :

أَتَيْتُمْ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا

وكيف أحاط بهم الموت من كل جانب في الآية الأولى وإحاطة مكانية وهم في لجاج البحر ثم لما أمهلهم الله أمنوا مكره وبنفوا في الأرض فنبههم عز وجل في هذه الصورة العائلة بين أيديهم بأن قدرته محيطية بهم إحاطة زمانية وهما الليل والنهار إذ لا يخرج كائن عن وقوعه فيهما

(١) المفران للراغب مادة (أمر) . القرآنية ٥٥ .

(٢) المصدر السابق مادة (أتى) .

فهي زمانية مكانية فإن هم نجوس الموت وأنستهم فرصة النجاة لحكمة
الله واستدراجاً لهم فلن يأمنوا إتيان أمر الله ليلاً أو نهاراً. وقد أحاط
بهم زمن غلتهم أوزن يقطتهم فيجعلهم حصيذا ويستأصلهم
استئصال هذا النبات الذي ضربه مثلاً لحياتهم فيهلكهم كما أهلك
القرن الأولى. (١)

فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا

الجعل : "عامٌ في الأفعالِ كُلِّهَا ومن معانيه تضيير الشيء
على حالةٍ دونَ حالةٍ وهو يمدُّ مَرَحَلَةَ الخَلْقِ". (٢)

والحصيد : "أصلُ الحَصْدِ قَطْعُ الزَّرْعِ" وقوله : "فجعلناها
حصيذا" فهو الحَصَادُ في غيرِ إبانِهِ على سبيلِ الإفسارِ". (٣)
ومعنى فجعلناها حصيذا أي فجعلنا زرعها ونباتها شبيها بما
حَصِدَ مِنْ أصله. (٤)

-
- (١) انظر التحرير والتنوير ١٤٣/١١ ، وانظر روح المعاني ١٠١/١١ .
(٢) الراغب مادة (جعل) .
(٣) المصدر السابق مادة (حصد) .
(٤) الكشاف ٢٣٣/٢ ، روح المعاني ١٠١/١١ .

فيعد أن عظم الانتفاع بهذا النبات وكمل حسنه ومهجه وودت
قطوفه وظنوا أنهم قادرون عليه متمكنون من الانتفاع بفلته وقع اليأس منه
إذ باغتهم أمر الله فأحاط بالزرع فجعله حصيدا . وفي إضافة الجعل
الى الأرض وحذف نباتها من المبالغة والايحاء بشمول تلك الإصابة وعمومها
وعظيم خطبها واستئصالها للزرع حتى كأن الأرض نفسها لم تكن لتغيرها
بتغير ما فيها . (١)

كَانَ لَمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ

غنى : " غنى القوم في دارهم أقاموا كأنهم استغنوا بها . والفانية
: المرأة . . استغنت بجمالها عن لبس الحلبي . " (٢)

" وغنوا في ديارهم ثم فنوا وخربت مبانئهم وحلت مغانيهم
" كأن لم يغنوا فيها " وقال بشر :

وَقَدْ تَفَنَّى بِنَا حِينًا وَنَفَنَسِي

بها والدهر ليس له دوام . (٣)

(١) انظر روح المعاني ١١ / ١٠١ .

(٢) المقاييس مادة (غنى) .

(٣) أساس البلاغة (غنى) .

فقوله تعالى :

كَأَنَّهُ تَعَنَّ بِالْأَمْسِ

"أى كأن لم يعفن نباتها أى لم يمكث ولم يقم". (١)

تأمل التقابل البديع بين تلك الصورة الفخيمة الحافلة بالبهجة والأانس والحركة والحياة ، وقد غني القوم فيها بالمكان ، ولفوا الغاية في الاستغراق في الدنيا والاطمئنان إليها والأانس بها ، وما آل إليهم حالها بعد ذلك .

فهذه الجملة تؤكد لما قبلها " وبالغفة في الطف والهلاك حتى كأنها لم توجد قبل ولم تقم بالأرض بهجة خضرة نضرة تسر أهلها". (٢)
"والأمس مثل في الوقت القريب كأنه قيل كأن لم تغن آنفا". (٣)

كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَنْفَكِرُونَ

" تذييل (*) جامع أى مثل هذا التفصيل ، نفصل ونبين الدلالات كلها الدالة على عموم العلم والقدرة وإتقان الصنع". (٤)

-
- (١) روح المعاني ١١ / ١٠١
 - (٢) البحر المحيط ٥ / ١٤٢
 - (٣) الكشاف ٢ / ٢٣٣
 - (٤) التحرير والتنوير ١١ / ١٤٤

(*) معنى التذييل : أن يذيل المتكلم كلامه بعد تمام معناه بجمله تحقق ما قبلها . بديع القرآن ص ١٥٥

* والتفكر التأمل والنظر وهو تَفَعَّلُ مشتق من الفكر* (١)

* وقال بعض الأُدباء : الفِكرُ في المعاني وهو فَرَكُ الأُمُورِ وَحَثُّهَا
طَلَباً لِلوُصُولِ إِلَى حَقِيقَتِهَا* (٢)

فتأمل كيف يتلاءم التفكير مع هذا التفصيل .

وفي الآية تعريض بالذين لم ينتفعوا بهذه الآيات بأنهم ليسوا

من أهل التفكير . .

وجيء بـ " التفكير " بصيغة المضارع للإشارة إلى تفكير شديد
ومكرر . (٣)

ثم تعرض الآيات صورة مقابلة لتلك الدار الفانيّة

للتّمييز المعاني وتتجلى الصور .

(١) المصدر السابق (١) / ١٤٤ .

(٢) الراغب مادة (فكر) .

(٣) التحرير والتنوير ١٣ / ٨٥ .

يقول تعالى :

وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ

وفيها ترغيب للناس إلى الدار الباقية بعد ترغيبهم عن الدار
البائدة . وتوحى هذه التسمية من كونها سالمة ما يكدر صفو عيشها
سالم أهلها ما يجتلى به أهل الدنيا من الآفات والمعاهات والموت والهلاك ،
فضلا عن سلام من ربهم وسلام الملائكة عليهم وسلام بعضهم على بعض .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى :

وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا
كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ
فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
مُقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾

من أسرار المناسبة .

تمتد أسرار المناسبة بين هذا العثل البديع وبين بداية السور
الكريمة التي أنزل الله فيها الكتاب على عبده :

لِيُنذِرَ بِأَسَاسٍ شَدِيدٍ مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ
الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿١﴾ مَلَكِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٢﴾

تأمل هذا النعيم المقيم الذي لا انتها له ولا انقضاء . والذي يحيط
بهم فلا يفارقهم لحظة عين، وقارنه بنعيم الحياة الدنيا السريعة الانقضاء
القريبة الفناء .

ثم تأمل قوله تعالى :

إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿١﴾
وَإِنَّا جَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٢﴾

أى سنجعل ما عليها من زينة ونعيم حطاما وكاما كأرض جرداء
لا نبات فيها . وقارنه بتلك الحياة التي اختلطت بنبات الأرض فاخطبت
بنضرتها القلب ثم ما لبثت أن أصبحت هشيما تذروه الرياح .

وبعد أن بين سبحانه الحكمة من ذلك وهي اختيار الخلق أيهم

(١) سورة الكهف آية ٣ .

(٢) سورة الكهف آية ٧ .

أحسن عملاً يعرض لنا قصة من روائع قصص القرآن لمن أعرض عن الدنيا وزينتها وأقبل على الرحمن فاراً بدينه مثبتاً لنفسه على الإيمان فأواه الله / وهياً له من أمره رشداً وربط على قلبه فثبته غاية الثبوت .

ومن لطائف هذه القصة وأسرار مناسبتها للتشيل الذي نحن بصدده أن الحياة الدنيا في حس المؤمن من قصيرة جداً تأمل قولهم بعد أن بعثوا من تلك الرقدة الطويلة التي تشبه الموت فقالوا :

(١)
لَيْسَ أَيُّومًا أَوْ بَعْضَ أَيُّومٍ (١)

وما وراءه من الإحساس بقصر الحياة الدنيا ، وهو المعنى الذي جاء المثل لتقريره وتوكيده وما وراءه من ^{تأكيد} البعث الذي ينكره الغافلون لافتخارهم بهذا الارتفاق المماجل وتعاليمهم على فقراء المسلمين .

فأمر عليه الصلاة والسلام أن يصبر نفسه مع هؤلاء الذين تتعالى عليهم قريش، ونبيه إلى أنهم هم الذين يجب أن يجاهي صناديد قريش بمجالستهم لأنهم الذين يدعون ربهم بالفداء والعشي إن دعت قريش مفاخرها وآباءها وأموالها .

ثم بين عز وجل كيف أعد لهم من العقوبة ما يجانس عملهم فمن أحاطت به مفاخره وطوقته أنسابه وأمواله وحالت بينه وبين الإيمان بالله ورسله أحاطت به جهنم بسرادقها، وأغيثوا بما كالمهل يشوى الوجوه

(١) الكهف آية ١٩ .

المتكبرة التي أنفت الإسلام ورفضته لأنه يساوى بينهم وبين هؤلاء
الضعفاء الذين تعاف أنفسهم مجالستهم لأنهم لا زينة لهم من بزة
وسمت . (١)

سبحانه

ثم بين / أن هؤلاء الذين لم يعطوا في الدنيا حظاء هولهم خالص
يوم القيامة على أبيهم سمت وأكمل بزة :

أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّونَ فِيهَا مِنْ
أَسَاوِدَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ
مُتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢﴾

وقارن بين هذا الارتفاق العاجل الذي فاخره القوم وبين
ذلك الارتفاق الآجل الذي أعد لمن آمن وعمل صالحا .

ثم لما بلغ بهم الحال إلى هذا المال فأبطرتهم النعمة وطلبوا
طرد فقراء المسلمين ، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يضرب لهم مثلا
لرجلين أحدهما للموء من الذي يعمل بطاعة الله والآخر الكافر الذي أبطرت
النعمة وعاقبة كل منهما .

ومخاطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم تشيع في أجواء السورة
الكريمة لأنها نزلت تسلية لهذا الحبيب الباخع نفسه على آثارهم حزنا
على ألا يوءنوا فحسن إسناد ضرب الأمثال إليه .

(١) انظر التحرير والتنوير ١٥ / ٣٠٥ .

(٢) الكهف آية ٣١ .

من أسرار اللغة والنظم :

قال تعالى :

* وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ
وَحَفَافًا لَهُمَا نَخْلٌ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرَّعًا ۝ كَلِمَاتٍ الْجَنَّتَيْنِ ءَأَنْتَ أَكْلُهُمَا
وَلَمْ تَطْلُمِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ۝ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ
لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۝

تأمل هذا التصوير الرائع البديع الذي يصوره القرآن منظر
هاتين الجنتين المشرتين بأنواع الكرم، المحفوفتين بأشجار النخيل فكان
ضعف تلك وطراوتها أحيط بقوة/ ومكانتها ^{هذه} ليحفظها من الماهات والآفات
ف ءَأَنْتَ أَكْلُهُمَا وَلَمْ تَطْلُمِنْهُ شَيْئًا ۝ (٢) غاية الوفاء ومنتهى العطاء
والسخاء والجودة والطيب .

ثم تأمل صفاءها حين لا تتوزعها المشا رب بل يعدها ويسقيها
نهر عظيم واحد ، وقارن هذه النعمة التي ينطق حالها بشكر المنعم
بصاحبها الذي بلغ به العجب والفخر والتناول غايته ومنتهاه فما كان
منه إلا أن يجادل صاحبه الموء من الذي يذكره بالله بقوله :

(١) الكهف آية ٣٤ .

(٢) الكهف آية ٣٤ .

أَنَا كَثْرَتِكَ مَا لَأَوْعَزْتَنَّا ① وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ②

تأمل ظلمه لنفسه حين أشرك بالله وكذب بالبعث وبطر بالنعمة فكانه عرضها للهلاك (٢) فلم يحط ضعفها بسياج قوى من إيمان بالله وعمل صالح دائم كما أحيطت جنتاه بذلك وأمدت بما يديسم حياتها ونضرتها، وأخذ العبرة والعظة من هذه الطبيعة والكون من حولنا أمر يحث عليه الشارع الحكيم . فانظر إلى ضعف نفسه وقد توزعت في الهواء وخالطه الكبر والعجب والشرك بالله ثم تأمل كيف يتضاعف غروره ويتكاثف عجبُه فيقول :

كَمَا أَظُنُّ أَنْ نَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ③

وهكذا تمتد جذور الأمل في الحياة ويشتد الحرص عليها —
وتعظم الفتنة بها فلا يتجاوز نظره إلى ما وراءها ، فيقول :

وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً

ثم يستخفه العجب والغرور فيقول لصاحبه :

وَلَيْن رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ④

(١) الكهف آية ٣٤ .

(٢) انظر روح المعاني ١٥ / ٢٧٥ .

(٣) الكهف آية ٣٥ .

(٤) الكهف آية ٣٦ .

ثم يخبره بفراسة الموء من الصادق الذي ينظر في العواقب بما
ستؤول إليه جنته إن هو ظل على معصيته لربه :

○ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُوْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ
فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا ○ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَوْ أُطْلِبَا ○^(١)

أى لا تأمن أن تأتيها آفة من فوقها أو من تحتها .

ثم تأمل كيف أحاطت بشره عاقبة كفره :

وَأُحِيطَ بِشْرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَدِّبُ كَفَيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ
خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ○^(٢)

”والإحاطة الاخذ من كل جانب، مأخوذة من إحاطة العدو بالتوم إذا غزاهم“^(٣)

والشُّرُّ: المال الكثير المختلف من التقدين والآنعام والجنات
والمزارع . وهو مأخوذ من شَرَّ ماله ، يقال شَرَّ اللهُ مَالَهُ إِذَا كَثُرَ قَال
النايغة :

فلما رأى أَن شَرَّ اللهُ مَالَهُ

وَأَثَلُ مَوْجُودًا وَسَدَّ مَفَاتِيرَهُ ○^(٤)

(١) الكهف آية (٤) .

(٢) الكهف آية ٤٢ .

(٣) التحرير والتنوير ١٥ / ٢٢٦ .

(٤) المصدر السابق ١٥ / ٣١٨ .

وهذه الغاء في قوله : **فَأَصْبَحَ يَقْلِبُ كَفَيْهِ** للتعقيب والتحسر
إذا وقع الأمر بفتة . (١)

* هُنَالِكَ الْوَلَايَةَ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا *

تأمل كيف أتت هذه الجملة تذييلًا للجمل التي قبلها ، فالكافر
لما علم أن إلهه لم تفن عنه شيئًا أدرك أن الولاية لله فقال :

يَا لَيْتَنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا

وهكذا نرى أن أعظم حائل بين الشركين والنظر في أدلة التوحيد
كان انهماكهم في الإقبال على الحياة الدنيا الزائلة وافتخارهم بهذا الارتفاق
العاجل ، واعتقادهم أن الحياة هي حياتهم الدنيا ، فأمر عليه الصلاة والسلام
أن يضرب لهم مثلا آخر لهذه الحياة الدنيا التي غرتهم بهجتها بعد أن
ضرب لهم مثلا بين فيه لهم أن ما يفتخرون به على فقراء المسلمين ليس أهلا
لأن يفتخر به لأنه إلى زوال . (٢)

قال تعالى :

**وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا
كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا
تَذَرُوهُ وَالرِّيحُ تَنْفُثُ مِنْهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٧٥﴾**

(١) انظر روح المعاني ٢٨٣/١٥ .

(٢) انظر نظم الدرر ١٢/٦٥ .

(٣) الكهف آية ٤٥ .

في ظل هذا الإحساس البالغ الأُس والحسرة الذي تتأجج في صدر هذا الشرك وهو (يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها) ينقله الحق نقلة أرحب يرى فيها حياته الدنيا ماثلة أمام عينه ما ينزل من السماء فيختلط به نبات الأرض فيصبح هشيما تذروه الرياح ويوقفه على أن الحسرة العظمى هي في خسارته لحياته كلها :

يَخْسِرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ①

ثم تأمل كيف ناسب أن يبدأ المثل بقوله : " واضرب لهم " لأنه يتناسب مع قوله تعالى :

* وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ ②

وكانها إيقاعات تشدد وتقوى وتتوالى لتنبه النفس الغافلة لتقف على فقه هذه الأمثال الغريبة الصفة العجيبة الشأن وتأخذ العظة الوجدانية من هذه الطبيعة حولها .

والمعنى : " اذكر لهم ما يشبهها في زهرتها ونضارتها وسرعة زوالها لتلايفتروا بها ولا يضربوا عن الآخرة صفحا " . (٣)

- (١) الحج آية ١١ .
- (٢) الكهف آية ٣٢ .
- (٣) روح المعاني ٥ / ٢٨٥ .

وفي تقديم الضمير " واضرب لهم " مزيد عناية واهتمام بضرب العثل
لهو " لا الفاقلين وكأنهم لشدة غلظتهم ضمير غائب ، وغمجة الضمير
توحي بفقدان الحس ، وفيه تحقير لهم وازدراء لشأنهم لعدم تشريفهم
بالخطاب ، وإذا ما عدت إلى الضمير وجدت يتناسق مع ضمائر الجمع
في سياق الآيات كقوله تعالى : " وحشرناهم - وهرضوا . . .) .

والمراد بمثل الحياة الدنيا أى الحياة القريبة الحاضرة ، كنى عن
الحضور بالقرب . (١)

فهي قريبة في حسهم وتصورهم بتعها لذاتها ، ولكن حقيقة
أمرها وسرعة انقضائها بعيد عن إدراكهم لذلك مثلت لهم في هذه
الصورة الحسية حتى تدرك كتبها العقول الغافلة والقلوب الشاردة التي
لا تقوى على إدراك غير المحس ولا تؤمن إلا بالحاضر :

كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ

فاختلط به نبات الأرض : لكثرة وتكاثفه ووفرت التف بعضه
ببعض فهو في غاية الخصب والنضارة والازدهار ، أو المراد أن الماء دخل
في النبات حتى روى واهتز ورف . (٢)

فهو في غاية النضرة والبهجة .

(١) انظر التحرير والتنوير ١٥ / ٣٢١ .

(٢) المصدر السابق ٨٥ / ٣٢١ روح المعاني ٥ / ٢٨٥ .

وقارن هذه الحال بحال ذلك صاحب الذي بلغ أوج الكمال والقوة مع وفرة نعمه وكثرتها واعتزازه وافتخاره بنفسه وشعره .

فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ

«(١) والمهشم : كسر الشيء الرخو كالنبات» .

وهو اسم على وزن فاعيل بمعنى مفعول أى مهشوما محطما ،
فالمهشم : الكسر والتفتيت . (٢)

(٣) (والمهشيم : ما تهشم وتحطم الواحد هشيمه) .

وفي صيغة هشيم مبالغة تفيد شدة تهشمه ولوغه غاية التفتت والتلاشي .

والمعنى : " أى فأصبح ذلك النبات الملتف أثر بهجتهم ونضارته هشيمًا تذرؤه الرياح " . (٤)

وقوله : تذرؤه " الرياح " أى تشيره وتفرقه في الهواء وتذهب به .
وهذه الجطة تأكيد لعدم بقاءه وتنصيص على زواله كأنه لم يكن

(١) المفردات للراغب . مادة (هشم) .

(٢) انظر التحرير والتنوير ٥ / ١ / ٣٣١ .

(٣) روح المعاني ٥ / ٢٨٦ .

(٤) المصدر السابق .

لأن (نرو) لها أصلان أحدهما الشئ يُشْرِفُ عَلَى الشئ ويظله والآخر الشئ يتساقط متفرقاً . (١)

وقارن هذه بتلك الجنتين اللتين أظلت صاحبها ثم تساقطت عنه وهوت على عروشها وكذلك هي حياته الدنيا وما يسورها من مفاخره تتساقط عنه فتصبح هشيما تذروه الرياح .

فإذا قوته التي فاخر بها وكاثر وتباهى وتعالى توول إلى منتهى الضعف والذلة والهوان ، يقول الزمخشري * شبه حال الدنيا في نضرتها وبهجتها وما يتعقبها من الهلاك والفناء بحال النبات يكون أخضر وارفاً ثم يهيج فتطيره الرياح كأن لم يكن * . (٢)

وهي (رياح) وليست ريحا تلك التي تذهب بحياته الدنيا وتفرقها وتذروها كأن لم تكن فهو جزاء يجانس عطفه حين توزعت الأهواء والمطامع والشهوات من العجب والغرور والافتخار بكثرة ماله ونفقه وشمره ثم الجحود لنعم الله والشرك به وإنكار البعث والتهمك والسخرية بمن يذكره ويدعوه وهكذا . . .

وقارن بين قوله :

وَأَصْبَحَ يَمْتَلِكُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا

وقوله : فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحَ

(١) المقياس مادة (نرو) .

(٢) الكشاف ٤٨٦ / ٢ .

وأصبح بمعنى صار ولكنها تغيى من احياءتها وظلالها إن توحى
بانبلاج وظهور صبح الحقيقة الثابتة التي غفلوا عنها تحت وطأة الشهوات
وظلمة الشرك والمعجب فكان خواءهما على عروشها أذهب ليل غلقتهم
فأصبح الحق جلياً لكل من تتأتى منه الروءية .

كما أن تهشم النبات وتفتته أى زوال الحياة الدنيا وسرعة
تقضيتها جلّى حقيقتها وأنها مهما بلغت من النضرة والبهجة فهي إلى
زوال فجديرٌ بمن هذه طبيعتها الزهدُ فيها والرغبةُ عنها وألا يفخر بها
عاقلاً فضلاً عن أن يكثر بها غيره .

ثم أنك إذا استقصيت التأمل وراجعت المثل وجدت أن المشمل
يحكى قصة مضت وانتهت ويتحدث عن حياة كانت خضراء وارفة ثم أصبحت
هشياً واهياً ولكن هذا الالتفات من الماضي الذى عليه نسق الآيات
الى المضارع في قوله " تذروه الرياح " فيه حياة لا زالت تنبض بالحركة
ترى فيه الرياح في عمل دؤوب وسعى حثيث متجدد تذروه الهشيم
وتظل هذه الصورة ماثلة أمام أعيننا حتى تتم العظة وتحصل العبرة .

فله هذه الطبيعة التي يمثل الله بها ما لا تدركه الحاسة

ولا يقف عليه بصر .

* وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا *

(١) (المقتدر : قوى القدرة كلها) .

وجملة التذليل هذه موقعها التذكير بقدرة الله تعالى على خلق الأشياء وأعدادها وجعل أوائلها مغضية إلى أواخرها وترتيب أسباب الفناء على أسباب البقاء وذلك اقتدار عجيب . (٢)

كما أن قوله (مقتدرا) جاء متناسبا مع الحياة الدنيا التي تطويعها يد القدرة في لحظة تطويع لا أحداث القياسة الرهيبة بعد ذلك ولذا جاء باطلاق آخره ومعلقه . (٣)

ثم نعود للآيات الكريمة ننظر في طريقة صياغتها ونظمها لنرى كيف أتى التمثيل ليخرج الأمر المعقول في صورة المحسوس .

والمشبه : هو حالة هذه الحياة الدنيا في إقبالها ومهجتها ونعيمها وسواء أكان المراد الحياة الدنيا كلها أم حياة الأفراد أم المراد بها حياة الثمرات من المال والولد أى زينتها ، ثم توليها وزوال ذلك كله أو زوال نفع هذه الثمرات وانعدام التمتع بها .

(١) التحرير والتنوير ١٥ / ٣٣١ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) من الإعجاز البلاغي في القرآن / د . صباح دراز ص ٦٧ .

والشبه به : حال النبات المنبت بالماء يكون أخضرًا وارفًا ثم يصير يابسًا تطيره الرياح كأن لم يكن .

وقد بُنيت الآية على هذا الإيجاز البديع والترتيب والتعاقب السريع الموحى بقصر الحياة الدنيا وما يقتضيه قصرها من قصر مدة التمتع بها وأنها وشيكة الارتحال سريعة الزوال . وتعاقب الفاء في الآية :

فَأَخْتَلَطَ بِهِنَّ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذَرُوهُ الرِّيحُ

لم يدع للزمن فترة يتراخى فيها ويخلد إلى الأرض كما في سورة يونس بل ربطت الكلام بعضه ببعض ورتبت ثانيه على أوله وثالثه على ثانيه بهذا التعاقب السريع المنبني على الإيجاز .

يقول صاحب روح المعاني : " وعبر بالفاء في الآية للاشعار بسرعة زواله وصورته بتلك الصفة فليست فصيحة " . (١)

بمعنى أننا لو قدرنا المحذوف فقلنا : (فزها ومكت فأصبح) لكنا قد أغفلنا هذا الجانب العظيم المراد من نظم الآية وهوسرعة زوالها كأنها لم تثبت ولم تمكث فتزهو .

كما أن في عدم ذكره وتقديره تأكيد بأنه لم يكن، ورحم الله الإمام عبد القاهر حين قال : " وتجديك أنطق ما تكون إذا لم تنطق " . (٢)

وقارن بين سرعة الفناء وطول أمل البقاء .

(١) روح المعاني ٥/٢٨٦ .

(٢) الدلائل ص ١٤٦ - تحقيق محمود محمد شاكر .

(٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى :

اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة
وتفانح بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث
أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتره مصفرا ثم يكون
حطما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله
ورضوان وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور ﴿١﴾

(١) سورة الحديد آية ٢٠ .

من أسرار المناسبة :

من المقاصد الأساسية لسورة الحديد تحقيق إيمان المؤمنين وتزكيتهم في القلب وما ينبثق عن ذلك من تضرع واخبات وخشوع لله الذي يسبح له ما في السموات والأرض والذي وصف نفسه سبحانه بصفات الجلال والكمال والبقاء مع بداية هذه السورة الكريمة ما يحمل القلب على التضحية بالنفس والنفيس لإعزاز دين الله الذي له ميراث السموات والأرض .

آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ
فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ①

ثم تأمل التوبيخ والتعجيب من أمر التقاعس عن تلبية نداء ربهم وعن تصديق إيمانهم والعلّة وراء ذلك .

وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ
يَدْعُوكُمْ لِنُؤْمِنُوا بربِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ②

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ③

(١) سورة الحديد آية ٧ .

(٢) سورة الحديد آية ٨ .

(٣) سورة الحديد آية ١٠ .

ثم نوه سبحانه بفضل أولئك السابقين الى مرضاة ربهم :

لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ①

وبين ما أعد لهم من خير عظيم وما أعد ضد ذلك للمتأخسين
الغافلين أو المنافقين وبين لهم سبب ارتكاسهم وحرمانهم من الأجر
العظيم :

وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ
وَعَرَّيْتُمْ الْأَمْوَالَ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَعَرَّيْتُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورَ ②

ثم يحذر عز وجل عباده المؤمن من بلوغ هذه الحالة والوقوع
في سهوارة تساوة القلوب التي وقع فيها أهل الكتاب من قبلهم وبعابتهم
عتابا بالفا تخبت له القلوب المؤمنة :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُكُمْ لِدِكْرِ اللَّهِ
وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ
عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ ③

ثم يطمعهم عز وجل في عونه ورحمته وقدرته على إحياء قلوبهم
بذكره كما يحيى الأرض الميتة بوابل السماء .

(١) الحديد / ١٠ .

(٢) الحديد / ١٤ .

(٣) الحديد / ١٦ .

ويبين لهم أن من أسباب خصوبتها وإخباتها أن يصدقوا فسي
سبيل الله ففي ذلك تحقيق لايمانهم وتزكية لقلوبهم وأن هو لا الذين
حققوا ايمانهم صدقوه :

أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا
بِعَايِنَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ①

ولما كانت العوائق التي تحول بين العبد والإنفاق في سبيل
الله هو الشح والحرص على استبقاء المال لانفاقه في لذائذ الحياة
ومتعها من لهو ولعب وتفاخر وتكاثر مثلت لهم الدنيا من هذا الجانب
الذي يحرصون عليه ويتنافسون فيه .

صدرت بما يوجب غاية اليقظة والحضور . (٢)

يقول الزمخشري : * وشبه حال الدنيا وسرعة تقضيها مع قلقة
جدواها بنبات أنبته الفهيت فاستوى واكتهل وأعجب به الكفار الجاحدون
لنعمة الله فيما رزقهم من الفهيت والنبات فبعث عليه المعاهدة فهـاج
واصفر وصار حطاماً عقوبة لهم على جحودهم * .
(٣)

(١) سورة الحديد / ١٩ .

(٢) انظر نظم الدرر ١٢ / ٦٨ ، التحرير والتنوير ١٥ / ٣٣٨ .

(٣) الكشاف / ٤ / ٦٠ .

ويقول صاحب التحرير والتنوير : " أعقب التحريض على الصدقات
والإنفاق بالإشارة إلى دحض سبب الشح وأنه الحرص على استبقاء
المال لإنفاقه في لذائذ الحياة الدنيا فضرِب لهم مثل الحياة الدنيا
بحال محقرة على أنها زائلة تحقيرا لها وتزهيدا فيها لأن التعلق
بها يعوق عن الفلاح كل ذلك في سياق الحث على الإنفاق الواجب
وغيره وأشار إلى أنه ينبغي أن تتخذ الحياة وسيلة للنعيم الدائم في الآخرة
ووقاية من العذاب الشديد وما عدا ذلك فهو متاع قليل " (١)

(١) التحرير والتنوير ٢٧/٤٠٠

من أسرار اللفظة والنظم :

اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب وهو
وزينة وثقل آخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد ①

"اعلموا" : افتتح الكلام بـ "اعلموا" ليشير إلى أن الكلام الذي

بعده له مغزى عظيم يجب التفات الذهن بلكيته إليه . (٢)

الفافلين
"والخطاب في (اعلموا) للمؤمنين / على طريقة الالتفات

اقبالاً عليهم للاهتمام" . (٣)

تأمل كيف أن القصر انصبَّ على مافي الحياة الدنيا من اللعب

واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر إذا حال بين العبد وطاعة ربه ،
فمتع الحياة أوحياة المتعة فانية كهذا الزرع الذي هذا مثله ، فما أحراهم
أن يغنوا ما هوفان في الإعداد للآخرة التي آمنوا بها والسابقة إلى
جنة عرضها السموات والأرض .

وهذا القصر الإضافي في "إنما" لتنزيل المنكرين منزلة غير
المنكرين لأن لديهم من البراهين والأدلة ما لو فطنوا إليها لرأوها على
وجهها الذي وصفها بها القرآن من أنها لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر .

(١) سورة الحديد / ٢٠ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ٢٧ / ٣٩٣ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٩٤ .

كما أن فيه تعريضا بهم لغفلتهم عن هذه الحقيقة وتحذيرا لهم من أن يكونوا كالمنافقين الذين فتنوا أنفسهم وتربصوا وفرتهم الأمانى وقرهم بالله الفرور ، أو كأهل الكتاب الذين طال عليهم الأمد فقتت قلوبهم وكثير منهم فاسقون ، أو الكفار الذين كفروا وكذبوا بآيات الله وأولئك أصحاب الجحيم .

وراء وصف الحياة الدنيا باللعب بسهولة انخداع النفس بها وسرعة استجابتها لما هو في طبعها وفطرتها من حب اللعب الذي فيه من الأناج والمسرة والحلاوة للنفس ما فيه وما هو إلا وهم وسراب لا يلبث أن ينجلي عن إضاءة للأوقات والأزمان التي هي رأس مال الإنسان . . ثم إن الإفراط فيه من غير أصحاب طوره يؤذنه بخسة العقل . (١)

فضلا عما في تنكير (لعب) ما يوحي بأنه لعب عظيم بالسبغ (٢) .
يكثُر ويغلب على أحوال الناس في الدنيا ويستغرق جزءا عظيما من حياتهم .
وقد ورد وصف الحياة الدنيا بأنها لعب ولهو في أكثر من موضع في القرآن الكريم ، قال تعالى :

وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَهُوَ

وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّذِينَ يُسَبِّحُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾

(١) انظر التحرير والتنوير ٢٧ / ٤٠١ .

(٢) المصدر السابق ٢٧ / ٤٠٢ .

(٣) سورة الأنعام آية ٣٢ .

وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ

لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١)

إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ

أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٢)

وقدم اللعِب على اللهْو في الاكثر * لأن اللعِب زمانه الصبا

واللهْو زمانه الشباب و زمان الصبا مقدم على زمان الشباب * (٣)

بينما قدم اللهْو على اللعِب في سورة العنكبوت * لأن المراد

زمان الدنيا وأنه سريع الانقضاء قليل البقاء * وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ *

أى الحياة التي لا أمد لها ولا نهاية لا بد لها بدأ بذكر اللهْو لأنه

في زمان الشباب وهو أكثر من زمان اللعِب . (٤)

وَاللَّهُوُ : " مَا يَشْفَلُ الْإِنْسَانَ عَمَا يَعِينُهُ وَيَهْمُهُ يَقَالُ

لَهْوْتُ بِكَذَا وَلَهَيْتُ عَنْ كَذَا اسْتَفَلْتُ عَنْهُ بَلْهَوُ .

... وَيَعْبُرُ عَنْ كُلِّ مَا بِهِ اسْتِمْتَاعٌ بِاللَّهُوِ ...

وَمَنْ أَرَادَ بِاللَّهُوِ الْمَرْأَةَ وَالْوَلَدَ فَتَخَصَّصَ لِبَعْضِ مَا هُوَ مِنْ زِينَةِ

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الَّتِي جُعِلَ لَهَا وَلَعِبًا : (٥)

(١) سورة العنكبوت آية ٦٤ .

(٢) سورة محمد آية ٣٦ .

(٣) اسرار التكرار في القرآن للكرمانى ، ص ٦٨ .

(٤) المصدر السابق .

وانظر : ضفء الكلمة ص ٢٢٠ ضمن سلسلة من أسرار التعبير في القرآن ،
د/عبد الفتاح لاشين .

(٥) الراغب ، مادة (لهي) .

وهكذا تتكاثف المعاني وتفيض وتعزز .

ترى هذا وتدركه في تكشيف الحياة الدنيا من تطبيسها وإغرائها
وخداعها للنفس على مراحل زمنية تستغرق عمر الإنسان فكما امتد به
العمر مرحلة قوى تعلقه بها واستفراقه فيها فهي تبدأ باللعب فترة
الطفولة لتفري النفس ببراءة مقصدها ثم لا تلبث أن تستميل القلب فترة
الشباب والطاقة والنشاط فتطهيه عن غايته العظمى وهدفه الأسمى عما
يُهمُّه ويعنيه من طاعة ربه والإقبال على آخرته فإذا لهن القلب أصبح
مصيدة للشيطان فزين له سوء عمله .

تأمل كيف وصف الحياة الدنيا بأنها زينة بعد هاتين المرحلتين

وقد تهيأت فيها النفس لاستقبال هذا التويه والخداع والتزيين فإذا بها
ترى القبيح الفاسد والزائل الفاني جميلاً باقياً (١) فتحرص على عمارته
وتتفق في سبيل ذلك العمر والمال بدلا من إنفاقهما فيما هو خير
وأبقى .

ثم تأمل كيف أتت كل من كلمة (لهو وزينة) نكرة لتوحسي
بأنه لهو عظيم يشغل الناس ويشغلوا به ، وزينة طاغية تأسر القلب أسرا
بينما هي في الحقيقة زينة حتميرة باطلة لا يحصل من وراءها شرف ذاتي .

(١) انظر تفسير الفخر الرازي ١٥ / ٢٣٤ .

فإذا ما غلبت هذه الأمور على النفس وضربت بجذورها فهي

تربة القلب آتت أكلها وكان من ثمارها التفاخر والتكاثر .

أرأيت كيف تتولد المعاني بعضها من بعض ، وكأن الحياة

الدنيا شجرة انبثقت داخل نغمه فازينت فبلغ به العجب غايته أن يفاخر

ويكثر بزینتها من الأموال والأولاد وقارن هذا بأولئك الذين

يفخرون بالأضعاف المضاعفة عندهم .

وهكذا تتأكد المعاني وتتراقى الصفات وتقوى وتشتد .

فاللهو فيه معنى اللعب وزيادة والزينة فيها معنى اللهسو

وزيادة والتكاثر والتفاخر نتيجة وشرة لإنهيار النفس بهذه الزينة وكان التكاثر

امتداد لنفسه التي يفاخر بحسبها ونسبها . * وتفاخر بينكم * الفاء

والخاء والراء أصلٌ صحيحٌ يدل على عظيمٍ وقدمٍ . من ذلك الفخر . ويقولون

عن الفخر هو عدُّ القديم . والتفخرُ التعظيمُ ونخلةٌ فخورٌ عظيمة الجذع

غليظة السعف . . . (١)

وهكذا يأتي الفخر بعد طول أمد لأنه عد القديم الذي

زين له ، ووراء طول الأمد قسوة القلب وغلظة نفس تحول بين العبد

وامتثاله أمر به ، وقارنه بأولئك المسخبة قلوبهم من المصدقين والمصدقات .

(١) المقاييس مادة (فخر) .

وتأمل ما وراء صيغة (تفاخر وتكاثر) على وزن تغاعل من بلوغه
غاية الانفعال والهيجان لأن هذه الصيغة تزيد من حدة التكاثر
والتفاخر وطمعانيهما وتوحى بهذا التنافس والتباهي والعجب الذي غلب
نفوس أهل الهوى .

ثم هو لا يتجاوز هذه البيونة **وَتَفَاخُرَ بَيْنِكُمْ** أي هذه
المسافة الضيقة بينكم من الأنساب البالية والمتع الفانية ، وقارن هذا
بما يتسابق إليه المؤمنون * مغفرة من ربهم وجنة عرضها السموات والأرض
فالتفاخر والتسابق هناك له ذلك البعد وتلك الرحابة التي تسع
السموات والأرض أي الكون كله .

ثم تأمل كيف بدأ التكاثر بالأموال والأولاد أي بالقدور
والعدد وما وراء ذلك من توزع نفسه واستفراق قلبه بما هو زائل
مائل .

وقارن هذا التكاثر بما هوفان بالأضعاف الباقية

وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعَفُ لَهُمْ وَأَوْجَدَ لَهُمْ كَرِيمًا ①

ولما كانت هذه الامور قد شغلت الناس عن الدار الآخرة وألهت
القلوب عن الطاعة والإخبات لربها وجعلتهم يقصرون همهم على متعتها

بدلاً من اتخاذها وسيلة لنعيم الآخرة.

ولما كان الإعجاب بها قد بلغ بالنفوس غاية العجب مثلت لهم هذه الحقيقة في هذا التشيل البارح الذي يصور أطوار الحياة الدنيا وما فيها من شباب وكهولة وهمم وفناء، ومن إقبال الأمور في زمن إقبالها ثم إدارها بعد ذلك، بأطوار الزرع وكلها أعراض زائلة وأخرها فناء. (١)

قال تعالى :

كَمَثَلِ غَيْثٍ
أَنْجَبَ السَّكَّارِ نَبَاتَهُ ثُمَّ يَبْسُجُ فَتَرَكُهُ مَصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حَطَبًا
وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ
الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ

فالمشبه : هنا أحوال أهل الدنيا الغالبة عليهم الصارفة لهم عن طاعة ربهم ، والمشبه به : نبات الغيث الذي بلغ غاية النضوة والخضوية والجمال فلم يلبث أن اصفر ثم أصبح حطاباً .
تأمل كيف بدأ التشيل (بغيث) وما وراء ذلك من العناية والاهتمام .

والغيث : هو الذي يأتي بعد قنوط الناس " وهو الحيا .
النازل من السماء " . (٢)

(١) انظر التحرير والتنوير ٢٧ / ٣ / ٤٠٣ .

(٢) المقاييس مادة (غيث) .

وفي تنكيره ما يوحي بأنه غيث متفرد في جوده وعظم نفعه
لذلك صدر به المثل حفاوة به واعظاما لشأنه .

ثم تأمل تركيب هذه الجملة القرآنية على هذا النمط البديع
الذي يكاد ينطق بما يختلج في صدورهم ويعتصر في نفوسهم من
نشوة الإعجاب .

وذروة الافتتان بهذا النبات الذي بلغ المعجب به أن غلوا
عن مصدره فأوغلوا في البعد .

وأداروا ظهورهم للغيث وأقبلوا على نباته مفتتين معجبين
فشغلوا بالمعمول عن العامل وبالنبات عن المنبت وقارن هذا بأولئك
الذين فتحت لهم الدنيا بعد جذب وشقاء وأوتوا من زهرتها ما آنس
نفوسهم وشغل قلوبهم فافتتوا بها وغلوا عن واهب هذه النعم فلم
يوءدوا حق شكرها .

أوباولئك الكافرين الذين إذا رأوا معجبا لم يتخط فكرهم
عما أحسوا به فيستفرقوا إعجابا .

وأعجب : " أمرٌ عجيب إذا استكبر واستعظم . وقد أُعجبتُ به وشيءٌ
مُعجِبٌ إذا كان حسناً جداً " (١)

(١) المقاييس مادة (عجب) .

والكفار : " في اللغة من الكُفْرِ وهو ستر الشيء ، ووصف الليل
بالكافر لستره الأشخاص ، والزارع لستره البذر في الأرض ، وكُفِرَ
النَّعْمَةُ وكُفِرَ نَهَا سِتْرَهَا بترك أدائها شكرها . (*)

ثم تأمل كيف تتضافر عناصر التمثيل لتؤكد وتقوى معنى الإعجاب
وشدته وأخذها بمجامع القلوب .

وذلك لأن تخصيص الكفار بالذكر هنا " لا" نهم أهل البصر
بالنبات فلا يعجبهم إلا المعجب حقيقة . (١)

(٢)
" فإذا أعجب الزارع نياته مع علمهم به فهو في غاية الحسن ."
(٣)
ولكن في إظهار كلمة (كفار) بدلا من (زراع) كما في سورة الفتح
(يعجب الزارع) إحياءً بأن عملهم لم يتجاوز ستر هذا البذر في الأرض
وأن المنبت الحقيقي والزارع الحقيقي هو الله سبحانه وتعالى .

ثم لاحظ كيف بُنيت عناصر التمثيل على المبالغة لتؤكد

معنى الإعجاب وشدّة الغفلة فهم كفار على صيغة المبالغة لتوحي بكثرة

(*) الراغب مادة (كفر) .

(١) البحر المحيط ٢٢٤ / ٨ .

(٢) الفخر الرازي . ٢٣٥ / ١٥ .

(٣) آية ٢٩ من سورة الفتح .

الأغطية والأسدال التي حجبت عنهم نور الفطرة والإيمان من اللهو
واللعب والزينة والتفاخر والتكاثر تعظيماً لأمر الدنيا وإعجاباً بحاسنها
وحطام بنائها .

والنبات بما نبت من ذلك الفيث وحصل به ونشأ عنه وهو اسم
مصدر من (نبت) وهو هنا أطلق على النبات من إطلاق المصدر على الفاعل
للمبالغة . (١)

وفي إضافة النبات للفيث لتأكيد تفردِه عن النبات بخصوصيته
ومهاك ونضارته وروائه فهو غاية الحسن .

كما أن في ذلك إيحاءً بأنه نبات ذلك الفيث وليس ما عملت
أيديهم وقارنه بتلك النعم من الأموال والأولاد وأنها ما وهبهم
الله ليبتليهم فيها وليست ما كسبت أيديهم . * ثم يهيج فتراه مصفراً
ثم يكون حطاماً * .

يهيج : * يقال هاجَ البقلُ يهيجُ وإصفر وطابَ . (٢)

* يهيج يتحرك إلى أقصى ما يتأتى له . (٣)

(١) التحرير والتنوير ٢٧/٤٠٦ .

(٢) الراغب مادة (هاج) .

(٣) حاشية الشهاب على البيضاوي ٦/١٦٠ .

ثم تأمل دقة أهل العلم في استنباط المغزى من التشيل إذ يقولون : * واصفرار النبات أعظم دلالة على التهيؤ للزوال وهذا هو الأهم في مقام التزهيد في متاع الدنيا * . (١)

ولم يقل : (فتراه يابسا) لأن الاصفرار يقابل الخضرة والجمال أي العرض الذي أعجبهم وحال بينهم وبين رؤية الجواهر .

ولم يقل (فتراه يصفر) والتي توحي بتجدد هذه الصفة وحدوثها حالا بعد حال ، وإنما أوحى بقوله صذرا إلى ثبوت ذلك ودوامه وكأنه الأصل وكأن الهيجان هو الحادث الطارئ الذي ما لبث أن زال ليترتب عليه هذه الحقيقة الثابتة اللازمة له .

هذه الحقيقة التي تجلت في قوله (مُصَفَّرًا) والتي أفرغت النبات من كل معاني الحياة والسرور والمطامء وجعلته خاويًا تصغرفيه الريح ومن كانت هذه صفته اللازمة له لم يكن قط محط إعجاب .

ثم أنك إذا ما عدت إلى معنى (رأى) في قوله تعالى :

(فتراه مصفرا) لرأيته يقتضي معنى العلم هذا ما يشير إليه الراغب في أن (رأى) إذا عدى إلى مفعولين اقتضى معنى العلم . (٢)

(١) التحرير والتنوير ٢٧ / ٤٠٦ .

(٢) الراغب مادة (رأى) .

تأمل هذا وكيف أن كل راءٍ تأتي منه الروءية يرى النبات

مصفرا ببصيرته الموءمة روءية إثر روءية .

(ثم يكون حطاما) .

• الْحَطْمُ كَسْرُ الشَّيْءِ مِثْلُ الْهَشْمِ وَنَحْوِهِ اسْتَعْمِلَ لِكُلِّ كَسْرٍ
وَمِثْلِهِ . (١)

حطم : " هو كسر الشيء ؛ يقال للمتكسر في نفسه حطم . ويقال

للفرس إذا تهدم لطول عمره حطم . الحطم راءٌ يصيب الدابة في

قوائمها أو ضعف . والحطمة السدة الشديدة لأنها تحطم كل شيء .

والحطم السواق يعنف يحطم بعض الإبل ببعض . (٢)

ثم تأمل جملة (ثم يكون حطاما) ولم يقل : (يجعله حطاما)

أى كان هذه الحطامية في جبلته وطبعه وفطرته . (٣)

ويتلاءم التحطيم هنا مع تلك الأموال المكدسة والقطوب

المستغلظة البالغة غاية الفخر والعجب والقوة والقسوة .

ولما كانوا قد بلغوا الغاية في الإنهاك في الدنيا والإعراض عن

الآخرة عظم عزوجل أمور الآخرة الأبدية تنفيراً من الإنهاك في الدنيا

(١) الراغب مادة (حطم) .

(٢) المقاييس مادة (حطم) .

(٣) نظم الدرر ١٩ / ٢٩٠ .

وحشا على ما يوجب كرامة العقبين فقال **وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ** (١)

وبهذا التذييل البديع تتأكد حقيقة هذه الدار التي غرت

وخدعت وألبست الأمور غير لباسها فأوهم النفع فيما فيه الضرر البالغ فقال

وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَعُ الْغُرُورِ .

والغُرُورُ : الخديعة أو إظهار الأمر الضار الذي من شأنه

أن يحترز العاقل منه في صورة النافع الذي يرغب فيه . (٢)

وفي الراغب : " الغرور كلُّ ما يغرُّ الإنسانَ من مالٍ وجاهٍ

وشهوةٍ وشيطانٍ ، وقد فسَّرَ بالشيطانِ إذ هو أحبُّ الفارينِ ، وبالدينِ

لما قيلَ : الدنيا تغرُّ وتضرُّ وتغرُّ . (٣)

(١) حاشية الشهاب ٨/١٦٠ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٧/٤٠٧ .

(٣) الراغب مادة (غرر)

من أسرار التنوع في التشبيهات التي تثل الحياة الدنيا :

أول ما يلفت النظر للتأمل والتفكر هذا البناء البديع المحكم
السبك المتقن المتلاحم ، الذي بنى عليه التشبيه التشيلي في القرآن
الكريم ، وقد أفرغ إفراغا واحداً ، بحيث يرى وهو على حد واحد
من الاستواء والتلاحم والتحدر ، أخذاً بعضه بحجز بعض متميزاً بصورته
وهيئته وسمته ولامحه عن صور التشبيه الأخرى ، وإن كان يتحسد
معها في الغرض والمعنى العام لأنه قد اتضح لنا بالتحليل والدراسة ،
أن كل تشبيه تشيلي متميز يتناول جانباً من جوانب هذا المعنى العام
لم يتناوله غيره .

ولما كان أهل العلم يرون أن لكل معنى في الجملة هيئة
وستا يعرفه به أهل العلم معرفة لا تلتبس .^(١)

صار بالضرورة لكل تشبيه في القرآن الكريم هيئة وصورة يتميز
بها ، وهي من جهة أخرى تتلاءم وتتناسق مع السياق الذي ورد فيه ،
لأن جزءاً كبيراً من بلاغة التشبيه ودقائق معانيه هي من معطيات هذا
السياق .

(١) انظر الصورة في التراث البلاغي ص ١٧٩ عن مجلة
اللغة العربية جامعة أم القرى السنة الثانية ١٤٠٤ - ١٤٠٥ هـ ،
د . محمد محمد أبو موسى .

١ - وأول تلك الأسرار في هذا التنوع هذا المطلع البديع لكل مثل من أنواع التشبيه التمثيلي ، والذي يتلاءم مع طريقة النظم في السياق الذي ورد فيه .

ففي سورة يونس (عليه السلام) ورد قوله تعالى :

لِنَمَّا بَعَيْتُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

ثم قارن طريقة النظم هذه مع طريقة النظم في التثليل :

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ

وفي سورة الكهف قال سبحانه :

وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ

وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

وفي سورة الحديد يقول سبحانه :

أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا

أَعْلَمُوا أَنَّ مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي

الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ

وهكذا وكأنها إيقاعات أو ضربات متواليات متناسقات تتلاءم

وتتلاحم مع السياق ، فيشتد ويقوى وتتكاثر معانيه ، وتغني وتكون من

الغزارة والوفرة بحيث لا يحيط بها ، وسجين عنها إلا ضرب الأمثال

وقيامها ، فترى بداية كل مثل فضلا عن أنها تتناسق مع السياق من جانب

الإيقاع الخارجي طريقة النظم فانهما أيضا تتلاءم مع المعنى الذي
سيقت له .

٢ - تدور المادة اللغوية أو عناصر التشبيه التي كونت أساليبه
حول الماء النازل من السماء أو الفيث - نبات الأرض واختلاط الماء
به - الزخرف - الزينة - أهل الأرض وافتنانهم بها - الحصيد - الهشيم
الرياح - الكفار أو الزراع - الأحوال التي طرأت على النبات من الهيجان
والاصفرار والحطام .

هذه التشبيهات وإن كانت قد اشتركت في معنى عام وهو
تشبيه حال الحياة الدنيا في نضرتها وبيهجتها وافتتان الناس بها
ثم ما توول إليه من الهلاك والفناء إلا أن لكل تشبيه معرضاً ومعنى
يتلاءم مع السياق الذي ورد فيه .

ففي سورة يونس أتى التعبير بأسلوب القصر (إنما مثل
الحياة الدنيا) ليقلب معتقداً باطلاً تغفل في قلوب القوم وحطهم
على التعادى في ذلك إنكارهم للبعث فاطمأنوا إلى الحياة الدنيا وغفلوا
عن الآخرة فناسب مجيء هذا الأسلوب ليحسم شبه المنكرين وليعرض
بفياوتهم وشدة غفلتهم .

فالتشيل هنا مبني على التفصيل والتحليل الذي يصف فيه
تغفل هذه الحياة الدنيا في قلوب أهلها وشدة افتتانهم بها وفيه

إشارة إلى ناحية من نواحي الإعجاز العلمي في القرآن الكريم
وهو ظهور سلطان العلم وطفيفانه على الناس حتى توهموا أنهم متمكنون
من الدنيا قادرون عليها عالمون بها كل العلم .

بينما نجد التمثيل في سورة الكهف مني على الطي والايجاز،
فالمراحل التي فصلت في سورة يونس مطوية هنا ، لأن الغرض الاساسي
بيان سرعة زوال هذه الحياة الدنيا وقصر مدة التمتع بها ، وهذا يتناسب
ويتناسب مع عقيدة المشركين ، الذين يظنون ان هي إلا حياتهم الدنيا ،
والذي يمثله موقف هذا المشرك المعجب الذي بلغته شدة افتتانه
بجنته أن يقول :

مَا أَظُنُّ أَنْ يُبَدِّلَهُ دِينًا أَبَدًا ﴿١٠٠﴾ وَمَا أُظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً

تأمل طول أمله بهذه الحياة الدنيا وكيف ناسب ذلك أن يبنى التمثيل
على قصر مدة التمتع بها وسرعة زوالها ، وهي الحقيقة الثابتة التي تقابل
هذا الاعتقاد الواهم ، والتأمل لسياق الآيات في سورة الكهف يجدها
تتحدث عن افتخار المشركين بأموالهم وأولادهم على فقراء المسلمين
وضعفاءهم الذين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبصر نفسه
معهم .

ما يقتضي أن يتناول التمثيل أيضا سرعة زوال متعهم
وزينتها من الأموال والبنين لكونهما من أقوى أسباب التعالي على الناس
وطول الأمل وشدة الحرص .

وكان التمثيل يوحي بمعنى خاص يستقيه من السياق
بعد ذلك المعنى العام الذي يتبادر إلى الذهن عند تلاوته ،
ومما يؤيد كد أن التمثيل لا يضيق عن هذه المعاني قوله سبحانه بعد ذلك :

الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ
ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلًا ①

التنوع قوله تعالى وأحيط بثمره : بينما كانت الإحاطة بهم ٣ - ومن أسرار في سورة الكهف / :

في سورة يونس ، وكيف جاء نسق التمثيل متناسقا مع هذا المعنى

الذي سبق له .

يقول سبحانه :

وَأَحِيطَ بِثَمَرِهِ ۗ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفِّتِهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ
خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ②

وكيف يتناسب مع قوله تعالى :

فَأَصْبَحَ هَمِيمًا نَذِيرُهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا

(١) الآية ٤٦ من سورة الكهف .

(٢) الآية ٤٢ من سورة الكهف .

لأن هذه الحالة التي بلغها صاحب الجنين من العجب والافتتان والفغلة ، حينما استوفت جنته غاية الحسن والطيب والجمال وشعوره بالقوة والاعتدار ، ثم ما آل إليه حاله من ضعف وزلة وهوان بعد أن تفرقت عنه نعمته وخوت جنته .

وَلَوْ كُنَّ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِرًا

يتناسب مع بلوغ هذا النبات غاية قوته وتكاثفه ونضارته ومهجته ، ثم ما آل إليه حاله :

فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ

فغاية القوة والاعتداد يقابلها منتهى الضعف والهوان .

بينما تجد الإحاطة بهم في سورة يونس إذ يقول سبحانه :

وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ ابْتِغَيْتُمَا مِنْ هَذَا دِينَ تَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ

إلى قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ
مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَأُنْفِثُكُمْ نَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١)

(١) الآيات ٢٢ ، ٢٣ من سورة يونس .

كان المخاطبون في الأمثال السابقة شركين منكرين للبعث أو مؤمنين غافلين أو منافقين كما في سورة الحديد .
مثبت لهم الحياة الدنيا وقد مضت وفتت ، لتؤكد وتقرر الإيمان باليوم الآخر فإذا البعث الذي ينكرونه أو يففلون عنه مائل لهم من بين حصيد الفناء .

هـ - ومن التناسق البديع التناسب بين العاقبتين في الثلاثين الكريمين اللذين ينتهيان باتيان أمر الله ومباغته لهم ، فالنبات المختلط بالماء والذي يبلغ غاية قوته وكمال بهجته ووفرتة لا يترك لتتابع مراحل الطبيعة نحو الفناء ، ولكنه يفاجأ ليلاً أو نهاراً بما يقتلعه ويحتاجه من آفات وعاهات فيجعله حصيداً .

أو يذهب ماؤه غوراً ، فيجف ويتهشم فتراه في أوج إقباله قد أدير .

وكلمة (أصبح) تؤكّد معنى المباغته والمفاجأة التي أذهلتهم بعد أن كشفت عنهم قناع الغفلة .

وهذا الذي يتناسب مع الطاغين المفسدين في الأرض المنكرين للبعث ومع المفتخرين بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين .

بينما يتابع الفتيات في سورة الحديد أطواره ومراحله الطبيعية
فمنصر العقوبة غير موجود، لأن المخاطبين هنا أولئك الذين فتحت لهم
الدنيا بعد الفتح وأوتوا من زهرتها ما آمن نفوسهم واختلبها، وقد
يكون بعضهم حديثي عهد بالاسلام،
ولا زال التكاشف بالمال والتفاخر بالولد بقايا الجاهلية في نفوسهم
فلما فتحت لهم الدنيا وذاقوا من نعيمها بعد بؤس وجدب، فبلغ
فسي أعينهم غاية العجب،
ثم دعوا إلى الإنفاق في سبيل الله والمجاهدة بأموالهم وأنفسهم
تقاعست نفوس بعضهم، وحال بينها وبين المسارعة لتلبية نداء الله،
وداع الجهاد، حرصها على استبقاء المال لإنفاقه في لذات الحياة الدنيا
ومتاعها من اللعب واللهو والزينة، والتفاخر والتكاثف فحصر الله سبحانه
أسباب الشح هذه. وقصر الحياة الدنيا قصر اضاعي على هذه الأمور التي
حالت بينهم وبين المسارعة بانفاق أموالهم في سبيل الله، فهي أصول تنضوى
تحتها كل متعة أو متاع. (١)

(١) انظرا لامثال في القرآن الكريم، محمد جابر الفياض ص ٣٢٨.

٧ - ومن أسرار التنوع أن التشيل في سورة الحديد أثر التعبير
بلغظة (كفار) والمراد بهم الزراع ، لأنهم أهل
البصر بالنبات فلا يعجبهم إلا المعجب حقا ، فهو إيمان
إلى بلوغ هذا النبات كمال الحسن ومنتهاه .

بينما عبر عنه في سورة يونس بقوله سبحانه :

* وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا *

لأن الحياة الدنيا لما كانت مثله هناك بالمعنى ، كان لفظ
أهلها ما يقتضيه النظم القرآني البديع لما في ذلك من
الإيمان إلى أنهم أهل البصر بها ومعرفة وجوه طلبها
والذين انقطعوا لها وجعلوها كل همهم وغاية أمرهم .

٨ - ومن أسرار التنوع أيضا إضافة النبات الى الغيث في سورة الحديد

بينما أضيف الى الأرض في سورة يونس والكهف ، لأن المقصود من إضافته

للغيث التنويه بروائه وقوته وجماله الذي لعب بالقلوب ، واختلب النفوس

فألهاها عن طاعة الله وعن العسارمة لإعزاز دين الله ، ولا/حسنه يتكاثف ويقوى
زال

ويشدد حتى باتت لا ترى كحسنة مبهائه .

كما أن وراء إضافة النبات للغيث - والله أعلم - ايما بأن هذه

النعم التي يفاخرون ويكاثرون بها إنما هي من رحمة الله وفضله الذي أغاثهم

بها ثم هم يجحدونها ويمنعوها أداء شكرها .

بينما أضيف النبات الى الأرض في سورة يونس والكهف لأن المقصود

(والله أعلم) الإشارة إلى ضعف نشأته التي توحى بها طراوة هذا النبات ورخاوته

، والإنسان في بدء خلقه ، كنبات الأرض ثم يشدد ساعده ويقوى فينسى

ضعف نشأته ويففل عن هدى ربه ، فيقسو قلبه ، فيطمس ويبقى ،

ويفتخر ويتعالى ويفاخر ويكاثر .

٩ - ومن أسرار التنوع أن يقتضي النظم القرآني البديع ، وسياق الايات التعبير

عن بلوغ النبات أقصى ما يتأتى له من النمو والنضارة والبهجة بقوله (ثم

يهيج) لأنه اللفظ الذي يفى بالمعنى الذي سيق له ، ألا وهو اللعب

واللهو والتفاخر والتكاثر وما وراء ذلك من الهيجان والجلبة ، ففي لفظ
(يهيج) اضطراب وشوران يتلاءم مع شدة الانفعال والعجب التي
تصاحب حالة اللعب واللهو والتفاخر والتكاثر فتبلغ أشدها وما عليه
واقع الناس اليوم من شدة افتقارهم بهذه الأمور وكذا هذا المعنى .

بينما فصل هذا المعنى في سورة يونس بقوله :

حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا
أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا

لأن سياق الآيات هنا مهني على التحليل للحياة الدنيا وتفصيلها وهو الذي
يتناسب مع أهلها الذين رضوا بها وأنسوا وأطمأنوا إليها ، والذين هم
عن آيات الله غافلون .

بينما طوت سورة الكهف كثيرا من هذه المعاني ، لأن السياق

ليس سياق تحليل للحياة الدنيا ورسم خطواتها التي أوغل القوم فيها
فابعدوا .

وإنما هو تصوير للإقبال ثم الإعراض وهو الأشبه بحال صاحب

الذي أحيط بشمره بينما كانت له جنة لا يظن أن تبعد أبدا .

١٠ - ومن أسرار التنوع أيضا ملاءمة العناصر التي بني عليها التشبيه

للسياق الذي ورد فيه ففي سورة يونس نجد أن البحر والريح الطيبة والعوج

والماء والنبات كل هذا من واد واحد .

وفي سورة الكهف نجد الجنة التي أمست خاوية على عروشها والماء
والنبات والهشيم الذي تذرره الرياح أيضا من واحد واحد في التلاو^مم والتناسق
والاحكام^م.

وفي سورة الحديد تلج هذا التناسق بين اللهو واللعب والزينة
والتفاخر والتكاثر وما يحدثه من هيجان وشوران / حالة العجب بنبات الغيث
وحركة هذا النبات عندما يهيج فتراه صفرا ثم يكون حطاما .

وهكذا نجد أن تنوع التشبيه في القرآن الكريم يفسح مجالاً للدراسة
دقيقة تبحث الأسباب والأسرار التي من أجلها كان هذا التنوع ، وهي
فروق لا تظهر ولا تتجلى إلا بمقدار ما تعطى منها من المتابعة والمدارسة
والتحليل وجمع النفس : وتفرغ الخاطر ، والنظر بسكون طائر ، وخفض
جناح .

وكما اقتربنا أكثر وجدنا أسراراً أجمل وخواطر أعظم وكان الرماني
يقصد إلى هذا اللون من البحث حين ساق آية يونس ، وآية الحديد في قرن
واحد ، وعلق على آية يونس بقوله :

(وقد اجتمعنا في الزينة والبهجة ثم الهلاك بعده ، وفي ذلك
الصبر لمن اعتبر والموعظة لمن تفكر في أن كل فانٍ حقيرٌ وإن طال مدته ،
وصغيرٌ وإن كبر قدره . (١)

(١) النكت في إعجاز القرآن للرماني ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن
ص ٨٣ .

وقال في تعليقه على آية الحديد * وقد اجتمعتا في شدة الإعجاب

، ثم في التفسير بالانقلاب ، وفي ذلك الاحتقار للدنيا والتحذير من الاغترار
(١)
بها والسكون إليها وهو بذلك يلفت الإنتباه إلى أسرار التنوع بطريق غير

مباشر.

(١) المصدر السابق ص ٨٣.

الفصل الثاني :

التشبهات التي تمثل الإنفاق

وأسرار تنوعها .

ويتضمن :

- ١ - الإنفاق في سبيل الله .
- ٢ - الإنفاق المشوب بالمن والاذى أو الرياء أو الكفر .

المدخل :

ورد ذكر الإنفاق في القرآن الكريم في مواضع عديدة وعلى صور
بلاغية مختلفة جاء بعضها عن طريق التشبيه والتشليل وبعضها الآخر
عن غير طريق التشبيه حيث فيها سبحانه النفوس على البذل والإنفاق
بألطف أنواع الخطاب فقال تعالى :

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ وَأَكْرَمَهُ كَرِيمًا (١)

ووعدهم بأنه سيخلفه وأنه يوفى إليهم غير منقوص :

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٢)

وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤْتِ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تظْلَمُونَ (٣)

وأنه فوق ذلك سيتجر لهم بما أنفقوا وينسيه وشره لهم حتى

يصبح أضعافاً مضاعفة :

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أضعافاً كثيرة (٤)

-
- (١) آية ١١ من سورة الحديد .
 - (٢) آية ٣٩ من سورة سبأ .
 - (٣) آية ٢٧٢ من سورة البقرة .
 - (٤) آية ٢٤٥ من سورة البقرة .

وان لهم فوق ذلك أجرا عظيما وعطاء كريما والآن من يوم الوعيد

وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

ثم بين لهم سبحانه صفات قبول هذه النفقة الطيبة التي لها

هذا الفضل وهذه العزبة .

فاشترط أن تكون من أطيب المال :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ (١)

لِنَسْأَلُ الْبَرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ (٢)

وأن تكون خالصة لوجه الله :

وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ (٣)

وأن لا يمن بها ولا يؤذى :

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى (٤)

وأن أعلى مراتب الإنفاق ، الإنفاق على كل الوجوه سراً وعلانيةً

حتى تصبح هذه الصفة خصلة قائمة في نفوسهم وجبلة تنطبع عليها

قلوبهم فلا يبالون أن ينفقوا على أية حال :

(١) البقرة / ٢٦٧

(٢) آل عمران / ٩٢

(٣) البقرة / ٢٧٢

(٤) البقرة / ٢٦٦

(١)

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُفْرِ وَالْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ

ثم مثل سبحانه لهذه المعاني كلها في صور تشيلية رائعة

المعنى بديعة النظم خصبة التشبيه تنفذ إلى القلب من نوافذ شتى

ترى فيها تلك الأضغاف المضاعفة ماثلة في :

حَبَّةٌ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ

أوترى فيها تلك النفس الزكية الطمئنة ونفقتها بخيرها

الخصيب :

كُلُّ حَبَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَجَاءَتْ أَكْثَابُهَا ضَعْفَيْنِ

كما ترى مقابل ذلك تشيلاً لمن شابت نفقته شائبة المن

أو الكفر

والأذى أو الرياء / فتراه كصفوان عليه تراب :

فَأَصَابَهَا وَابِلٌ فَتَرَكَهُ وَصَلَدًا

أوترى أعماله جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأَنْهَارُ

فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ

١ - الاتفاق في سبيل الله .

قال تعالى :

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ

أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أُنْبِتَتْ سَبْعَ سَاوِيِلٍ فِي كُلِّ
وَأَبْوَةٍ مِائَةِ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٦﴾

(سورة البقرة) .

وقال تعالى :

وَمَثَلُ الَّذِينَ

يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثِيْتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ
حَبَّةٍ بَرْتَوْقٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَكَانَتْ أَكْطَاهَا ضَعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ
فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٧﴾ (سورة البقرة) .

٢ - الإنفاق المشوب بالرياء أو المن والاذى أو الكفر -

وقال تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا بُطْلُوهَا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي
يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ
صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى
شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٦٩﴾

(سورة البقرة)

أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ
مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ
وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ
فَأَحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿١٦٦﴾

(سورة البقرة)

مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ
حُرثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ

أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ (سورة آل عمران)

من أسرار المناسبة :

للآيات في القرآن الكريم سياق قريب ترتبط به وسياق عام لا تتفصل عنه ولذلك تتعدد وجوه النظر في أسرار المناسبة ولطائفها فالآية القرآنية أشبه بفرع في دوحة ، وكما عظمت هذه الدوحة وطالت دقت أسرار المناسبة ولطفت ومدت وامتدت فإذا أردنا الوقوف على بعض تلك الأسرار في السياق العام لهذه الآيات نجد أنها تمتد إلى بداية السورة ، كقوله عز وجل :

وَمِمَّا زَكَّيْنَاهُمْ يُعْتَبِرُونَ (١)

إجمال لصفة من صفات المتقين ثم يأتي التفصيل بعد ذلك في ثنايا السورة ، حيث يأمر الله عز وجل بالإنفاق ويصفه بأنه بمثابة القرض لله ويرغب في ذلك ، وبعد بمضاعفته أضعافا كثيرة ، ثم يضرب الأمثال ويقص القصص لمن بذلوا أموالهم وأرواحهم في سبيله ، ثم يذكر البعث وإحياء الموتى وانتهاءهم إلى الدار التي يوفون فيها أجورهم يوم لا تنفع فدية ولا خلعة ولا شفاعة : وَإِنَّمَا تَغْفَبُهُمْ أَعْمَالُهُمُ الَّتِي أَهْمَبُوا فِي سَبِيلِهِ ، ثم يضرب المثل

(١) الآية ٣ من سورة البقرة.

الحديث عنه برهانا ودليل صدق على الإيمان بالله الذي تجلت صفته
في أعظم آية . والإيمان باليوم الآخر الذي أقيمت له الأدلة لأن المال
شقيق الروح لا يجذل ولا يبهان ما لم يعبر القلب بالإيمان واليقين .

ثم تأمل هذا الذي :

مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا (١)

وكيف حفظ الله له طعامه ، وشرابه لم يتسنه بينما فنيت راحلته ثم بعثت ،
وما وراء ذلك من إثبات القدرة لله على كل شيء ، فالقادر على حفظ قوت
الإنسان الذي هو مظنة اللطف والفساد قادر على حفظ جزاء الأعمال
التي هي الزاد ليوم المعاد .

وهكذا يقر المؤمن من بقدرته ربه إيماننا وبقينا :

قَالَ أَكْبَرُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢)

ثم تأتي مرحلة أعلى وأعظم مرحلة الاطمئنان القلبي بروء يسهة
الحياة ، تبعث بعد موت في هذه الاطيار الممزقة بين يدي رجل مؤمن من
من
قد بلغ إيمانه علم اليقين ولكنه الشوق العالي الذي يحرك قلبه ، فلا يهدأ

(١) البقرة / ٢٥٩ .

(٢) البقرة / ٢٥٩ .

ولا يطمئن حتى يأنس بروءية صنع الله وقدرته تشل بين يديه فإذا هو
عين اليقين .

ويا لهذه النفوس الموءنة العالية كيف تشوق إلى هذا الأُنس
والاطمئنان من الرحمن الرحيم . ويا لله لهذا الود والرحمة الربانية تفر قلب
عبده الأواه الحلِيم .

فإذا كان إبراهيم طلب من ربه ذلك وهو من هو إيماناً وقيناً ،
فما أخرى هذه النفوس الموءنة التي نوديت بصفة الإيمان وحرضت على الإنفاق
في سبيل الرحمن أن تطمئن وتأنس بمعاندة وروءية ما أنفقت بيعت ومثل
بين يديها أضعافاً مضاعفة ليكون ذلك تحريضاً لها وتأليقاً لقلبها ، ما دنا
سياق
في/الحديث عن البعث فهذه الشمس تأتي من المشرق فتولد معها الحياة
والدفء ، وتلك القرية الخاوية على عروشها تعود إليها نضارتها وخصوبتها
بعد يبس وجفاف ، وهذه العظام تتشز ثم تكس لحماً بعد رفات ورميم ،
وتلك الطيور ترفرف في السماء ، وقد جمعت عليها أشلاؤه ها بعد فناء ،
وهذه الحبة التي أنبتت سبع سنابل في كل سنبله مادة حبة واللحم
يضاعف لمن يشاء ، كل هذه المظاهر يظهر فيها روح الحياة والخصوبة
والتوالد والتكاثر .

ثم تذوق بديع هذا التناسق بين العناصر التي مثلت كيف
تبعت الحياة من عالم الفلك إلى عالم الحيوان إلى عالم الطيور إلى عالم
النبات .

ومع ذلك فان السياق القرآني لا يضيق عن معان وأسرار آخر
فكلها حلقات في سلسلة سياق ضيق، فقد ذكر أهل العلم أنه لما ذكر
عز وجل فيما سبق جهاد الدعوة وجهاد النفس شرع الآن في ذكر سير
الجهاد بالمال. (١)

كما قالوا " انه لما ذكر العبد والمعاد ودلائل صحتها أتبع
ذلك ببيان الشرائع والأحكام والتكاليف فبدأ بإنفاق الأموال في سبيل
الله. " (٢)

وفي ذلك إرساء لقواعد النظام الاقتصادي والاجتماعي الذي يقوم
عليه المجتمع المسلم الجديد وهذا النظام يقضي على النظام الربوي الذي
كان سائدا في الجاهلية ويزرع السخاء والعطاء والإنفاق في سبيل الله
الذي له ميراث السموات والأرض بدل الربا الذي صار حربا لله ولرسوله
وهذا هو الفرق بين التوجه الإنساني الرحيم في الاقتصاد الإسلامي والتوجه
الأناني البغيض في النظام الربوي .

والمعتمد لا مثال القرآن الكريم في سورة البقرة يجد أن التشثيل
للإنفاق في هذه السورة له من العناية والاهتمام ما ليس لغيره وذلك لشرف
النفقة وفضلها ومكانتها .

(١) تفسير الرازي ^{الفخر} ٥٨/٧ .
(٢) البحر المحيط ٣٠٣/٢ .

فقد ورد في سورة البقرة تشييل للمنافقين في مثلين بديعين وهما

قوله تعالى :

أَمْثَلَهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا

أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ (١)

كما ورد فيها تشييل لقسوة قلوب اليهود قوم موسى :

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبَهُمْ فَمِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ (٢)

وجاء فيها تشييل للذين كفروا :

أَوْ مَثَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعُقُ (٣)

والم تأمل لهذه العناصر التي بنيت فيها صور التشبيه يجدها

من واد واحد ويرى بينها من التناسب والاحكام ما يحمل النفس على

الاخبات لربها مصرف الامثال، فالمستوقد ناراً يستضيء بها وأصحاب

الصيب الذين يتعثرون في خطاهم بين ظلمات وبرد وبرد ،

وأولئك القاسية قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة وسط طبيعة

تتفجر أحجارها ينابيع ثرة وتهبط من خشية الله، وذلك الناقع على غنمه

(١) آية / ١٨-١٩ من سورة البقرة .

(٢) آية / ٧٤ من سورة البقرة .

(٣) آية / ٧١ من سورة البقرة .

وهم في غفلة عنه، وتلك الحبة التي أنبتت سبع سنابل، والجنة بربوة
التي أصابها الوبيل، والصفوان الذي عليه تراب، والحبة التي احترقت
فزالت، كلها صور متناسقة وهيئات للمعاني متناسبة تدل على طبيعة
واحدة تجلت على مراتبها قدرة رب واحد واريء واحد . . .

ولكن شدة فرق دقيق بين تلك الصور وبين الإنفاق في سبيل
الله إذا أردت أن تقف عليه فتأمل ما توحى به تلك الصور من معاني
الحيرة والشك والضلالة والقسوة والغفلة وعدم الانتفاع والفناء والهلاك
بينما يمثل الإنفاق في سبيل الله معاني الخير والخصوبة والبركة المضاعفة
والحياة النامية الزاكية الباقية عند الله .

من أسرار اللغة والنظم :

يقول ابن القيم : " شبه سبحانه نفقة المنفق في سبيله سواء

أكان الراد بها الجهاد أو جميع سبل الخير من كل بر بمن بذر بذرا

فأنبت سبع سنابل اشتملت كل سنبل على مائة حبة والله يضاعف بحسب

(١)

حال المنفق وإيمانه وإخلاصه وإحسانه ونفع نفقته وقدرها ووقوعها موقعها "

وهذا من التشبيه التمثيلي الذي يمثل المعقول في سورة المحسوس : " ولا يد

(٢)

حذف فيه من/ مضاف : أي مثل نفقتهم كمثل حبة، أو مثلهم كمثل باذر حبة .

وأما كان المحذوف ففي الآية إيجاز بالحذف في المفرد وهو كثير في كلام

الله تعالى .

وفي البدء بالذين آمنوا إشارة إلى أن رأس الأمر في هذه

المضاعفة هو الإيمان ومقدار عمقه في القلب يعظم الأجر عليه .

وهو ما يوصف^{إليه} بالسنايل السبع والمضاعفة المطلقة لمن يشاء .

وهذا المثل مدني مضروب للمؤمنين لذلك بدأ بذكرهم ووجه

الحديث إليهم، فهم موضع العناية والاهتمام لذلك أرجح أن يكون

(١) ابن القيم، كتاب إعلام الموقعين ص ١٨٣ .

(٢) الكشاف ١/ ١٩٣ .

المحذوف مقدراً في المشبه به لأن ذكر الحبة لا يُغني عن ذكر ياذرها
لأن المراد/ تعود به هذه المضاعفة من خير خصيب على نفس زارعها. (١)
والمشبه به: حال إعطاء النفقة
ومصادفتها موقعها وما أعطى من الثواب لهم والمشبه به: هذه
الحبة التي هذه صفتها :

كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلٍ قَائِدَةٌ حَبَّةٌ

وأما وجه الشبه فله / كثيرة قد تشعب وتمتد وتظهر أثناء التحليل

والدراسة والتأمل ولكنها على وجه الإجمال تلخص في " أن كليهما دفع
ما يميز عليه وما حبه من فطرة النفوس دفعه عاجلاً من أجل نفع آجل
وخير فعاد عليه نفعه وأجره أضعافاً مضاعفة ". (٢)

فهي الهيئة الحاصلة من النمو والزيادة في شيء بعد قلته

وضالته .

ثم تأمل ما وراء التعبير بهذه الصلة :

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ

(١) انظر الأمثال في القرآن د / محمد جابر الفياض ص ٣٥٦ ،

(٢) التحرير والتنوير ٣ / ٤٩٠ .

والموءذنة بأن المراد حال إنفاقهم خصوصا هذه الحال التي تكاد تكون عزيزة ونادرة إذ هي مما تتميز به النفوس الكريمة :

وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١)

ثم تأمل كيف يستنهضون أنفسهم من الإخلاق إلى حب المال

فيه لكونه سخيا في سبيل الله بهذا الفعل " ينفقون " والذي يوحى

بتجدد ذلك الوابل المصدق بالعطاء واستمراره، هذا بعض ما تشي به

هذه الصلاة بموصولها من هذه النفقة ينفقها من دقائق فتعظم قدرهم

وتغني بسخاوة نفوسهم وإيثارهم الباقي الخالد على الفاني البائد .

ثم إذا ما عدت إلى هذه الصلاة ، وجدت أن التعبير بها جاء على

هذه الصورة الجماعية : **مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ** والتي تتجاوب

فيها القلوب الموءذنة تتنافس على البذل والعطاء ، وتتسابق إلى الأجر

والجزاء لا تبتغي تميزا ولا شهرة ، بل حيث كان الخير سارعت إليه

وزاحمت عليه ، ثم استحضر في نفسك صورة عبد الرحمن بن عوف - رضي الله

عنه - حين جاء بأربعة آلاف مقرأاً ربه يسابقه عثمان رضي الله عنه

وهو يجهز جيش العسرة بألف يعير بأقتابها وأحلاسها .

(١) الآية ٩ من سورة الحشر .

ووازن هذا التناقض والتعاون والإخاء بصورة ذلك المنافس

في قوله تعالى :

(١)

كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ .

فهو ينفق وحده وراثي وحده ، وكأنه لا يرى إلا نفسه ولا يسمي إلا لما فيه استعلاؤها وتميزها وشهرتها .

وفي إضافة الأموال إليهم في قوله تعالى :

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ

رغم كونهم مستخلفين فيها ما يشير إلى طيب نفوسهم عند بذلها لأنها أموالهم التي منحوها من وكدهم نفوسهم وصباية قلوبهم فهم لا يجذلونها إلا فيما فيه بركتها وبقاؤها . ولأن المال بعد النفقة صار مالهم المدخر لهم عند ربهم فالسياق سياق تكريم لهم وتشريف لأنهم امتثلوا وأنفقوا كما أن فيه إشارة إلى طيب الأموال لأنها من هذه المعادن الكريمة الطيبة . وازن هذا بأولئك الذين يتخبرون الخبيث الردي لينفقونه .

ثم تأمل كيف قيد الإنفاق بقوله : ﴿ في سبيل الله ﴾ .

إشارة إلى الإخلاص في العمل ، ووقوع النفقة موقعها حيث

وقعت في سبيل الله الذي له الكمال كله . وهذه الجملة هي مناط الفائدة

فليس المهم أنهم ينفقون أموالهم لأن من الخلق من ينفق الكثير من ماله
وإنما المهم أنهم ينفقونها في سبيل الله .

ولما اجتمع لهذه النفقة طيبها ، وطيب منفقها ، وطيب موقعها

كانت بركتها وما أعطى من الثواب لهم :

كَمَثَلِ حَبَّةِ أَذِنَتِ سَبْعِ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ مِثْقَالَةِ مِائَةِ حَبَّةٍ

وهكذا يقع التمثيل في القرآن موقعه الاًمكن حيث ينقلهم

عزوجل إلى عالم الغيب فإذا هو برئي وشاهده، وإذا أموالهم التي فنيت

وهلكت ماثلة أمام أعينهم وبين أيديهم أضعافا مضاعفة ، وبهذه الصورة

الحية الخصبة يستجيش القرآن المشاعر ويملك القلوب ويحضر ويرغب إن

يريهما ما يغلب على الظن أنه مغرم بأنه مغنم وما يرونه نقصا بأنه

زيادة وأى زيادة .

يقول ابن القيم : " والبازل مستى علم أن عين ماله يعود إليه

ولا يد طوعت له نفسه وسهل عليه إخراجة .

فإن علم أن المستقرض ملئ وفي محسن كان أبلغ في طيب فعله

وساحة نفسه ، فإن علم أن المستقرض يتجره بما اقترضه وينمي له ويشمره

حتى يصير أضعاف ما بذله كان بالقرض أسح وأصح ، فإن علم أنه نسي

ذلك يزيده من فضله وعطائه أجرا آخر من غير جنس القرض وأن ذلك الأجر

حظ عظيم وعطاء كريم ، فإنه لا يتخلف عن قرضه إلا لآفة في نفسه من البخل

والشح أو عدم الثقة بالضمان وذلك من ضعف إيمان^(١).

وراء تنكير (حبة) ما وراءها من كونها حبة فريدة مميزة فصي
صفتها صركتها وطيبها، والحب ما يزرع للاقتيات ففيه إقامة أود الإنسان
كما أن النفقة عمود من أعمدة الدين، وبها يقام ركن من أركان الإيمان
وهي الزاد ليوم المعاد .

وفي كلمة (أَنْبَتَ) : أي بما جعل الله لها من قوة الإنبات
بطيب أرضها واعتدال ريئها فهي أبرك بذر وقعت في أخصب أرض فتمت
أحسن نمو فجاءت غلته مضاعفة إلى سبعمئة ضعف أي منتهى الخصب
والنماء أوتماه وكماله . (٢)

والمثبت الحقيقي هو الله وفي إسناد الإنبات لها تأكيد لقوة
السببية^(٣).

و (السنبلة) : فُتَعِلَهُ من أسجل الزرع إذا صار فيه السنبل
أي استرسل بالسنبيل كما يسترسل الستر بالإسبال، وقيل معناه: صار فيه

(١) تفسير ابن القيم ، ١/١٤٩٠

(٢) تفسير الخنار ٣/٦٠٠

(٣) انظر الكشاف ١/٣٩٣٠

حب دستور كما يستر الشيء بإسبال الستر عليه". (١)

و (أَنْبَيْتٌ سَبْعٌ سَبَائِلٌ) أى تشعب منها سبع شعب في كل

شعبة سنبلة وهو من السنبيل ، وهو مجتمع الحب في أكمامه كأنه آيسة

استحقاق اجتماع أهل ذلك الرزق في تعاونهم في أمرهم وتعريف بأن

الحب يجمعه لا يوحدته". (٢)

وإذا ما استقصيت التأمل وراجعت هذا المعنى الذى ذكره

الامام اليعاقبي رأيت فيه أن هو لاء الذين ألف بين قلوبهم الإيمان وجمعتهم

النفقة في سبيل الرحمة

لنا تشابهت قلوبهم وأعمالهم ونفقاتهم وخلصت

الله جاء التعبير عنهم في صورة تجلت على مراتبها قلوبهم المجتمعمة

على محبته وطاعته فكان الحب في أكمامه صورة لتلك القلوب المتحابية والمتضامنة

والتي صارت تشل كياناً واحداً وتفدى بقاءً واحداً وتعيش حياة واحدة ،

وهذا لب ما يهدف إليه التشريع الحكيم من الأمر بالإففاق المؤدى إلى

ضرب من التكافل والتعاون ، والتضام والتحاب .

(١) تفسير القرطبي ٣ / ٣٠٤

(٢) نظم الدرر ٤ / ٢٧٥

وفي ذكر (السَّبْعِ) لما يوحي به من التمام وما يقبله من التكرير لأن العرب تكرر به ما هو أقل منه أو أكثر (١) ولأن عدد السبعة ومضاعفاتها حظيت في القرآن الكريم بعناية خاصة وأنها استخدمت للدلالة على الكثرة الكثيرة والتعبير عن أقصى ما تستشعره النفوس من الأضعاف المضاعفة (٢).

فتأمل كيف جعل سبحانه أرنى النفقة في سبيله سبعمائة

ضعف ثم فتح باب التضعيف إلى ما لا يصل إلى عدد أوحد . وهذا الذي

(٣)

ذكره سبحانه من التمثيل للإنفاق في سبيله إنما هو لاول الإنفاق .

وجملة التذييل هذه
وَاللَّهُ يَضْعَفُ لِمَنْ يَشَاءُ : / إعلام من الله سبحانه وتعالى بأنه

” يضاعف لمن يشاء فوق ذلك بحسب حال المنفق وإيمانه وإخلاقه وإحسانه ونفع نفقته وتدرها ووقوعها وموقعها ” . (٤)

قاله الذي له الكمال في كل صفة ، والله بما له من السعة يضاعف

ولم يقل (يزيد) إذ المضاعفة أن يضم إليه مثله فماعدًا ، وذلك منتهي

(١) انظر نظم الدر ٠٧٥ / ٤

(٢) انظر الأمثال في القرآن الكريم ، د / محمد جابر الفيض ص :

٠٣٦٩ - ٣٦٨

(٣) انظر نظم الدر ٠٧٥ / ٤

(٤) أعلام الموقعين ٠١٨٤ / ١

العطاء والفضل والسعة ، ولأنه (عليم) بنية المنفق وسائر أحواله ، فهو يضاعف لمن يشاء بحسب علمه ، فسبحان من لا يحصر فضله ولا يحسد عطاؤه ، وهكذا تتناسب الفاصلة (عليم) مع السياق السابق . وهذا التذييل البديع يتم المعنى ليستأنف بعد ذلك معنى آخر مرتبط بما قبله من حيث أنه بيان لكيفية الإنفاق الذي بين فضله ، أى الإنفاق الذى ينمو ويربو ويتضاعف إلى ما شاء الله ، ومن جهة المشبه به فهو بيان للحوادث كيف يحترق حرته ويحفظه ما يستأصله أو يفسده فيتعاهده بالسقي ونفي الآفات المهلكة عنه .

ويقاله في المشبه ألا يتبع المنفق إنفاقه بما يبطله من المن والأذى أى يذهب ثوابه بقوله تعالى :

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَمْ يَتَّبِعُوا مِمَّا انْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

نص على هذه الصلة بموصولها فقال :

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

وأعادها هنا مرة ثانية وأظهرها حفاوة بها واهتماما لأنها رأس المعنى وأصله ، ثم عطف عليها قوله :

لَمْ يَتَّبِعُوا مِمَّا انْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى

فهذه الجطة معطوفة على حيز الصلة وهي قوله :

يُفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

فهو الإنفاق النائي عن المن والأذى .

والمن : أن يعتد على من أحسن إليه باحسانه ويريه أنه

اصطنعه وأوجب عليه حقا . (١)

وكانوا يقولون إذا صدعتم صنيعا فانسوها ، وفي نوابغ الكم :

طعم الآلاء أحلى من المن وهو أمر من الآلاء مع المن (٢) وفي هذا

من مرارة المن وشدة وطأته على النفوس الكريمة ما فيه .

والأذى : أن يتناول عليه بسبب إنعامه عليه فيتعالى .

ويتفاخر أو يذكره لغيره ، فالأذى أشمل وأعم ، فهو من قبيل عطف العام

على الخاص ، وإنما قدم المن لكثرة وقوعه . (٣)

ثم تأمل ما وراء لفظ (ثم) من دقائق .

و " ثم " في الأصل لتباعد الأزمنة وتراخيها ، فقالوا إنها

استعيرت من معناها الأصلي لتدل على التفاوت بين الإنفاق وتترك

(١) الكشاف ١/٣٩٣ .

(٢) الآلاء الأولى : النعم ، الآلاء الثانية : شجر مر العرق .
المن الأول : يشبه العسل ، المن الثاني : تذكير النعم عليه
بالنعم .

(٣) انظر أبو السعود ١/٢٥٨ .

المن والأذى في الرتبة والبعدهما في الدرجة . (١)

يقول الزمخشري : " و معنى (ثم) إظهار التفاوت بين

الإففاق وترك المن والأذى وأن تركهما خير من نفس الإففاق . " (٢)

وفي الشريعة درء الفاسد مقدم على جلب المصالح .

ومنهم من أبقى (ثم) على معناها الأصلي وهي الإشعار ببعده

الزمن فأفادت دوام وجود الفعل وتراخي زمن بقاءه أي أنهم " يدومون

على تناسي الإحسان وترك الاعتداد والامتنان ليسوا بتاركيه . " (٣)

وهكذا تخلص العبودية لله عندما تخلص هذه القلوب وتطهر

من حب الدنيا وتستعلي بإيمانها ونفقتها عن الرغبة في نيل الجزاء

من الناس ، والذي هو المعرض الأول للمن والأذى .

ولما كانت الحكمة من الإففاق تطهير النفس وتزكيتها من البخل

والشح ، كان لا بد من مجاهدة النفس في ذلك ، فجاء التعبير القرآني :

ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى

وتربيتها على دوام الإففاق واستمرار العطاء مع تناسي الإحسان وترك الامتنان ،

(١) انظر روح المعاني ٣ / ٣٣٠ .

(٢) الكشاف ١ / ٣٩٤ .

(٣) المصدر السابق .

لأن المال مال الله وهم يستخلفون فيه ، وما جرى على أيديهم من فضل
فله الفضل والمنه جميعا ، وذلك توهيت النفقة ثمارها حين تسمو بنفس
صاحبها ، فتنمو وتقوى روابط المحبة والتكافل والتعاون وتزكسو النفوس
بالمشاعر ، ويظهر المجتمع من الفقر والحرمان والشر والطغيان وهكذا
ينأى المسلم بنفسه عن أن يكون عبدا للمال أو عبدا لإحسانه أو مستعبداً
لأخيه الإنسان .

ثم تأمل ما وراء تعريف (الصدقة) وتكبير (المن والأذى) في

قوله تعالى :

سَمَّ الْأَيْدِيَّ وَالرِّجْلَيْنِ وَالْأَعْيُنَ وَمَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى

المراد منا ، أى من ، ولا أذى ، أى أذى ، أى أنه للتقليل وإذا نهوا عن
القليل من المن والأذى فهم عن الكثير أشد نهياً .

والنفس المؤمنة تعرف المعروف وتكر المنكر مهما عظم وطغى

أو قل وخفي ، قال تعالى :

لَهُمْ أَجْرٌ هُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا يَخَافُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

(١) لما كان الإنسان قد يزرع ما يكون لغيره بين أن هذا لهم (١)

لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ . وفي تكرير الإسناد وتقييد الأمر بقوله تعالى
(لهم) (عند ربهم) من التأكيد وتشريف ما لا يخفى . (١)

ثم تذوق كيف أثنى هذا القيد (عند ربهم) المعنى وضاعفه
إلى حد يفوق الوصف وأشار إلى التربية ومزيد الفضل والعناية بها . فهو
ر بهم المحسن إليهم بتربيتهم القائم على ما يقبل من النفقات بالحفظ
والتنمية حتى تصير في المعظم إلى ما لا حد له أوعد . (٢)

فلهذا هذا الفضل العظيم والخير الخصيب وهو ينمو ويربو
عند الرب الكريم الذي يأخذ الصدقة بيمينه فيرببها كما يربي أحدكم
فأوه أو فضيله .

يُؤَلِّفُ خَوْفَهُ عَلَيْهِمْ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْفًا

» أي لا خوف عليهم في الدارين من لحوق نكروه من العكارة ولا
هم يحزنون لغوت مطلوب من المطالب قل أو جل أي لا يعتربهم ما يوجب . (٣)
وفي تنكير (خوف) ما يوحي بأنه لا يعتربهم أدنى خوف .

(١) روح المعاني ٣/٣٢ وانظر (أبو السعود) ١/٢٥٨ .

(٢) نظم الدرر ٤/٧٧ .

(٣) أبو السعود ١/٢٥٨ .

ربهم

ثم تأمل كيف يجازيهم/ من جنس عملهم جزاءً نفسياً معنوياً
بالإضافة إلى الجزاء الحسي الذي يرونه ، فمن كان يدينه وشأنه تفرج
الكروب ببذل ماله وتطبيب النفوس ، وتنديتها بطيب نفسه وقوله وسموه
عما يقطع صلته ويورث الآلام النفسية ، ويجرح المشاعر والكرامات الإنسانية
من المن والأذى ، كان جزاؤه ، أن ينفي عنه ما نفاه عن أخيه فلا يكرهه ولا
يحزنه هم ولا غم فدوام انتفاءهما " أى الخوف والحزن " جزاءً يجانس
عمله مع انتفاء ما يشوبه ويكدره ويقطعه فله هذه الطمانينة التي لا تشوبها
شائبة من خوف .

وهذا الأمان الذى لا يعتره شيء من كرب يوم القيامة . يوم يود

الَّذِينَ لَا يَشْعُرُونَ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ كُلِّهَا وَهُمْ فِيهَا يَلْمِزُونَ (١)

* قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم

أى كلام جميل تقبله القلوب ولا تنكره كالدعاء والتأنيس والترجيه

بما عند الله يرد به السائل من غير إعطاء شي . (١)

وفي تنكير (قول) : ما يشير إلى أن قلبه خير .

(ومغفرة) : أى ستر للخطاة وسوء حالة المحتاج وتجاوز لما

وقع منه من الإلحاف في المسألة وصغح عنه . (٢)

خير من صدقة يتبعها أذى

(٣)

* لكونها مشوية بضرر ما يتبعها وخلص الأولين من الضرر .

وهكذا توءم كد هذه الجملة المستأنفة النهي عن العن والأذى وتقرر

الحكمة من الإنفاق وهو تهذيب النفوس وترضية القلوب وربطها برباط المحبة

في الله .

فإن لم تحقق الصدقة هذا المعنى ، بل شابتة شائبة العن والأذى

(١) انظر البحر المحيط ٣٠٧/٢ ، وأبو السعود ٢٥٨/١ ، والطبرى

٤٣/٣ المحرر الوجيز ٣/٢ .

(٢) انظر المصادر السابقة .

(٣) أبو السعود ٢٥٨/١ .

فان هناك ما يقابلها من الصدقة المعنوية صدقة البيان :

﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمِنَّةٌ ﴾

كلمة طيبة تغدق على قلب السائل من فيوض تهم
خير عند الله من صدقة مهما عظمت يتبعها أذى فيها كشف
لحاجته ، وإزالة لكرامته ومن ثم تصدع لبنان المجتمع كله .
فكان قوة المؤمن مبركتهم في تحاييهم وتعاونهم وإيثارهم ،
وإلا فإن الله غني حليم ، غني * لا يحوج الفقراء إلى تحمل مؤنة المن
والأذى ويرزقهم من جهة أخرى * (١) .

غني عن صدقات العباد ، وإنما أمرهم بها ليثيبهم وهو غني عن
الصدقة التي يتبعها من وأذى لأنه لا يقبل إلا طيباً (٢) .
(حليم) لا يعاجل بالعقوبة على العن والأذى وفي ذلك
من الوعد والوعيد ما فيه .

وفي هذا التذييل البديع قَوْلُ اللَّهِ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ندب للمؤمنين
أن يتخلقوا بصفات ربهم ويتأدبوا منها بما تطيقه أنفسهم وتتسع له
طبيعتهم . (٣) .

(١) أبو السمود ٢٥٨ / ١

(٢) انظر البحر المحيط ٣٠٨ / ٢ ، انظر حاشية الشهاب على تفسير

البيضاوي ٣٤٢ / ١

(٣) انظر التحرير والتنوير ٤٧ / ٠

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي
يُنْفِقُ مَالَهُ رِيسَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

الآية .

تأمل هذا الالتفات البديع الذي يقبل فيه الله سبحانه وتعالى

على عباده المؤمن بالخطاب ، بعد أن ^{ما بين} بين بطريق الفية فيما مضى

من الآيات ليبالغ ويؤكّد النهي عن إتباع النفقة بالمن والأذى .

وفيه تنصيص على أن المن والأذى يحق النفقة ويبطلها ، لذلك

ضرب مثلاً لهما ، وضرب للمثل مثلاً مبالغة في الزجر عن ذلك . (١)

ووراء النداء في القرآن الكريم أسرار تدق وتلطف ، إذ لا يستدعي

بهذا النداء : " يا أيها الذين آمنوا " إلا المعاني الهامة الجليلة .

ثم تأمل كيف عظم الله قبح المن والأذى في معارض الكلام بثلاث

طرق بيانية تدرجت بالنفس وارتقت بها عن أن يكون من هذا شأنه .

(١) انظر تفسير روح المعاني ٣٤ / ٣ ، انظر نظم الدرر ٧٩ / ٤ ،

أبو السعود ٣٥٩ / ١ انظر البحر المحيط ٣٠٨ / ٢ .

بدأ ذلك بالشناء على تاركه :

لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مِنَّا وَلَا أَدَّى

ثم بين أنها مشوية بضرر ، لذلك فضل عليها :

* قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ

لأنهما خالصتان من الضرر .

ثم صرح بالنهي عنها لأنها تبطل العمل ، أي تذهب بشوابه

وتحققه (١) فقال :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

لَا بَطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ

(٢) " الإبطال جعل الشيء باطلاً أي زائلاً غير نافع لما أريد منه . "

أي لا تحبطوا أجرها بواحد منهما .

(١) انظر البحر المحيط ٢/٣٠٨ .

(٢) التحرير والتنوير ٣/٤٧٠ .

يقول أبو حيان : " ولما جرى ذكر (العن والأذى) مرتين

أعادها هنا بالألف واللام " (١)

وفيه إشارة إلى أنها لم يعودا ملتصقين منكرين على أهل

الإيمان وراء قوله عز وجل (صدقاتكم) أي التي كان بها صدق إيمانكم

بالغيب لأن الرزق غيب والوائق بذلك الغيب منق ماله تصديقا بأن الله

سيخافه .

كَلَّذِي يَنْفَقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

أي لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كإبطال المنافع الذي

ينفق ماله (رياء الناس) لا يريد رضا الله ولا ثواب الآخرة . (٢)

ويجوز أن تكون الكاف في محل نصب على الحال : أي لا تبطلوا

صدقاتكم سائلين الذي ينفق " (٣) والتشبيه هنا تشبيه أسلوب أو منفي .

والمعنى تشبيه الذين يتصدقون بأموالهم ثم يتبعون صدقاتهم

بالمن والأذى بالمنفقين رياء الناس، ثم مثل لحال الذي ينفق ماله رياء الناس

(١) البحر المحيط ٢/٣٠٨

(٢) الكشاف ١/٣٩٤

(٣) المصدر السابق .

والمراد بالمراشي هنا على الوجه الراجح : المنافق والكافر معا .
لانهما شريكان في عدم الإيمان بالله واليوم الآخر وإن أخفاه الأول وأظهره
الثاني فالرباء يمكن أن يصدر عنهما وذلك أن المنافق وراء إذا أنفق ماله
مدعيا أنه لوجه الله وهو في قرارة نفسه لا يؤمن بالله واليوم الآخر ،
والكافر وراء إذا أنفق ليقال عنه سخن كريم خسر رحيم فهو يتظاهر
بالرحمة والشفقة^(١) كما يحدث اليوم مع جماعات التبشير التي تستميل
القلوب بمساعدتها للشعوب الفقيرة والمنكوبة وهي لا تؤمن بالله واليوم
الآخر .

(١) انظر المحرر الوجيز لابن عطية ٢ / ٣١٤ .

فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ
صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ

هذا تشييل لحالة المرابي فيه تفصيل لما أجطه.

يقول أبوحيان : " ضرب الله لهذا المنافق أو الكافر الباطي

المثل بصفوان عليه تراب يظنه الظان أرضاً منبتة فإذا أصابه

وابل من المطر أذهب عنه التراب فبقي صلداً متكشفاً وأخلف ما ظنه

الظان وكذلك هذا المنافق يرى الناس أعمالاً كما يرى التراب على

هذا الصفوان فإذا كان يوم القيامة أذهب الوابل ما كان على الصفوان

من تراب". (١)

والصفوان : " صيغة مهالفة من الصفا وهي الحجارة الملمس

الصلبة التي لا تقبل انصداعها بالنبات". (٢)

عليه تراب : قال الأوسى : " أى عليه شيء يسير منه". (٣)

(١) البحر المحيط ٢/٣٠٩.

(٢) نظم الدرر ٤/٨٠ وانظر الكشاف ١/٣٩٤.

(٣) روح المعاني ٣/٣٥.

والذى يظهر لي - والله أعلم - أن عليه تراباً كثيراً لأن التراب
يمثل أعماله التي راى بها وكان يرجونها النفع بالإنبات والأجر
وهي أعمال كثيرة فضلا عن أن عناصر الجطة مبنية على المبالغة .
ففي كلمة صفوان : مبالغة في شدة ملاسته ونعومته .
وفي تنكير وابل : مبالغة في شدته وقوته فهو وابل شديد
الوقع عظيم القطر .

لذلك كان المناسب أن يكون التراب عظيما وفيرا ولو كان ترابا
يسيرا لكفاه اليسير من المطر لإزالته .
وَأَصَابَ : تَأْتِي فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَالْعَرَادُ بِهَا هُنَا الشَّرُّ تَلَاوَهُ مَا
مع المعنى الذى سِيَقَتْ لَهُ . (١)

فتركه صلدا : أجرد نقيا من التراب الذى كان عليه ومنه صلدا
الجبين الأصلح : إذا برق . (٢)

(١) انظر المفردات في غريب القرآن للراغب مادة (صوب) .

(٢) الكشاف ١ / ٣٩٤ .

ثم تأمل كيف تلاحت الفأثات (فمثلة - فأصابه - فتركه) من
غير مهلة لتتعاقب من ورائها المعاني والأحداث الشديدة الواسع،
وبالهداه الطبيعة الغضبية كيف يتحول وابلها الذي هو مظنة النفع
والحياة إلى بلاءٍ وفتنة تصيب هذا الصفوان فتجرده ما كان يقيسه
ويستره عن الناس وما كانوا يتوهمون فيه النفع والنماء والذكاء فتركه
صلاً لا حياة فيه نقياً لا شيء يواريه * لا يقدر على شيء * ما
كسبوا * .

وعبر عن النفقة بالكسب لأنهم قصدوا بها الكسب . (١)

والمعنى : أن المرائي والمان والمؤذى لا يقدر على

الانتفاع بثواب شيء من إنفاقهم الذي هو كسبهم عند حاجتهم إليه . (٢)

وَاللَّهُ لَا يُهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ

تذييل فيه تعريض بأن كلام السن والأذى من صفات

الكافرين وأحوالهم فليحذر المؤمنون من تسرب ذلك إليهم وليجتنبوه .

(١) القرطبي ٣/٣١٣ .

(٢) البحر المحيط ٢/٣١٠ .

(٣) روح المعاني ٣/٣٥ والتحرير والتنوير ٣/٥٠ .

وهكذا ترى السياق القرآني الجليل يعرض مقابل تلك الحبة التي

أُنبتت سبع سنابل وأخصبت أيما إخصاب .

ووسط تلك الطبيعة المترعة السخية صورة صفوان عليه تراب

فإذا هو في الظاهر جزء منها يتناسب شكلاً مع جوها إذ يحسبه الناظر

أرضاً منبثة ويتوهمه الجاهل تربة صالحة ، فهو معها ظاهراً

مخالفاً لها باطناً ، فقلبه الصلد لا ينمو بنموها ، ولا يثمر فيه خيرها ،

بل يضره ويكشف عنه سره ، فإذا التراب الذي يحجب حقيقته ينقش عنه

ويتركه صلباً ساعة إقبال الخير ، وعند ترقب العطاء والإنبات فتراه وقد

فاض خير الطبيعة السخية الجوادة ، عار عن كل خير ، وتراه وقد شطت

الرحمة من حوله وحده ، لا يقدر على شيء فيا لخسارته وضياعه ، وبها

لهوانه وذاتته وانكساره . .

فكذلك المرائي والمان والمؤذي يوم القيامة ، وعند لقاء

الكرامات :

لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ

وبهذا الأسلوب البياني في المقابلة بين المعاني وأضدادها

تتميز صور المعاني ويزداد رسوخها في النفس المؤمنة ، فتتفرأشد النفرة

عن مقاربة ذلك فضلاً عن الوقوع فيه .

قال تعالى :

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ
مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا
وَابِلٌ فَسَاءَتْ أَكْطُلُهَا ضَعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾

يقول ابن القيم: (١)

”وتحت هذا المثل من الفقه، أنه سبحانه شبه الإنفاق بالبذر، فالمنفق ماله الطيب لله لا لغيره، باذرماله في أرض زكية، فمفلة بحسب بذره، وطيب أرضه، وتماهد البذر بالسقي، ونفي الدغل والنبيسات الغريب عنه، فإذا اجتمعت هذه الأمور ولم تحرق الزرع نار ولا لحقته جائحة، جاء أمثال الجبال، وكان مثله كمثل جنة برية، وهي المكان المرتفع الذي تكون الجنة فيه تُصب الشمس والرياح، فتشرب الأشجار هناك أتم تربية، فنزل عليها من السماء مطر عظيم القطر، متتابع، فرواها ونساها، فأتت أكلها ضعفي ما يؤتيه غيرها بسبب ذلك الوابل، فإن لم يصبها وابل فطل؛ مطر صغير القطر، يكفيها لكرم منبتها، تزكو على الطل وتنمو عليه.“ (١)

تأمل كيف تترابط المعاني، وتتناسب، وتتتام، وكيف تبرز من صور التمثيل تركيباً، وخصوصية، وثنائية تناسبا مع خصوصية المعاني، ووفرتها وفزارتها، فضلا عن التناسق والتقابل البديع بين أجزاء التمثيل.

(١) اعلام الموقعين ١/١٨٤.

ومن هذا التاسب ما أشار اليه أبوحيان حيث يقول :

" لما ضرب مثل من أنفق ماله رثاء الناس وهو غير موء من ذكر

ضده بتمثيل محسوس للذهن حتى يتصور السامع تفاوت ما بين

الضدين وهذا من بديع أساليب فصاحة القرآن . (١)

ويقول ابن عاشور (٢) وقوله :

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ

معطوفة على قوله

تعالى :

كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ

لزيادة بيان ما بين المنزلتين من البون الشاسع وتأكيذا للشناء على المنفقين

باخلاص .

(٢) والمثل أو المشبه هنا هم المنفقون ، ونفقاتهم على أرجح الأقوال

لأن العمل لا ينفصل عن صاحبه فهو صورة صادقة لهذه النفس وما

يمتثل فيها .

(١) البحر المحيط ٣ / ٣١٠ وانظر المحرر الوجيز ٢ / ٣١٦ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ٣ / ٥٠٠ .

(٣) انظر البحر المحيط ٢ / ٣١٠ .

يقول تعالى: وَمِثْلَ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أموالهم ابتغاءَ مرضاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيَةً مِنْ أَنفُسِهِمْ

”النفى : يقالُ بَغِيَتَ الشَّيْءَ إِذَا طَلَبْتَ أَكْثَرَمَا يَجِبُ وَابْتَغَيْتَ

كذلك وهو على حزبين أحدهما محمودٌ وهو تجاوزُ العدلِ إلى الإحسانِ
والغرضُ إلى التطوعِ .

وأما الابتغاءُ فقد خصَّ بالاجتهادِ في الطلبِ فمتى كان الطلبُ

لشَيْءٍ مَحْمُودٍ فالابتغاءُ فيه محمودٌ . (١)

مرضاة الله :

” المرضاة مفعلة لتكرار الرضى ودوامه . (٢)

و (ابتغاء) منصوبة على تأويل المصدر في موضع الحال

أى مبتغين مرضاة الله وشبهتين من أنفسهم . (٣)

والتثبیت من ثبت : كلمة واحدة وهي دَوَامُ الشَّيْءِ يُقَالُ :

ثَبَّتْ ثَبَاتًا وَثَبُوتًا . (٤)

- (١) الراغب مادة (بغي) .
- (٢) نظم الدرر ٨٢/٤ .
- (٣) انظر المحرر الوجيز ٣١٦/٢ والتحرير والتنوير ٥١/٣ .
- (٤) المقاييس مادة (ثبت) .

ويقول الراغب : وقوله تعالى :

وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا

أى أشدَّ لتحصيل علمهم وقيل أثبت لا أعمالهم واجتتاء شرة

أفعالهم بخلاف من قال فيهم :

وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ عَمَلِهِمْ جَعَلْتُ لَهُمْ كِتَابًا مُنْتَوَرًا (١)

وقد ذكر العلماء في معنى ذلك وجوها منها :

أن قوله (وتثبيتا) معناه (وتيقنا أى أن نفوسهم لها بصائر

متأكدة فهي تثبتهم على الإنفاق في طاعة الله تثبيتا . (٢)

يويد هذا الوجه أبوحيان حيث يقول :

* إن نفس المؤمن من هي التي تثبتته وتحمله على الإنفاق في سبيل

الله ليس لها محرك إلا هي لما اعتقدته من الإيمان وجزيل الثواب فهسي

الباعثة له على ذلك والمثبتة له بحسن إيمانها وجيل اعتقادها . (٣)

(١) الراغب مادة (ثبت) .

(٢) المحرر الوجيز ٢ / ٣١٦ .

(٣) البحر المحيط ٢ / ٣١١ وانظر الكشاف ١ / ٣٩٥ .

وهذا الوجه الذي ذكره أبوحيان وغيره يأتي بعد المرحلة التي أشار إليها غيره من المفسرين وهو قولهم :

أَنْ قَوْلَهُ (تَشَبَّهَتْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ) مَعْنَاهُ (لِيَشْتَوِضَهَا بِبَذْلِ الْمَالِ الَّذِي هُوَ شَقِيقُ الرُّوحِ وَمِثْلُهُ أَشَقُّ عَلَى النَّفْسِ مِنْ سَائِرِ الْعِبَادَاتِ الشَّاقَّةِ وَعَلَى الْإِيمَانِ لِأَنَّ النَّفْسَ إِذَا رِيضَتْ بِالتَّحَامُلِ عَلَيْهَا وَتَكْرِيفِهَا مَا يَصْعَبُ عَلَيْهَا ذَلَّتْ خَاضِعَةً لِمَا حَبَّهَا وَقَلَّ مَطْمَعُهَا فِي اتِّبَاعِهِ لِشَهْوَاتِهَا وَبِالعَكْسِ فَكَانَ إِتْفَاقُ الْمَالِ تَشَبُّهًا لَهَا عَلَى الْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ) . (١)

ووراء ذلك كبح هذه النفس عن التشكك والتردد بحيث لا يتركوا لها مجالاً لخواطر الشح (فإن في إرضاء النفس على فعل ما يشق عليها أثر في رسوخ الأعمال حتى تعتاد الفضائل وتصبح ديدنها والمقصود الترغيب والتحريض في تحصيل الفعل أي تكرير الإنفاق . (٢) وقد أشار الفخر الرازي أخلاقي جليل إلى معنى / وهو ما تقر في الحكمة الخلقية من أن تكرير الأفعال هو سبب حصول الطلقة الفاضلة في النفس إذ يقول :

أَنْ مِنْ يُوَاطَّبُ عَلَى الْإِنْفَاقِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى لِابْتِفَاءِ مَرْضَاةِ اللَّهِ حَصَلَ لَهُ مِنْ تَرَكَ الْمَوَاطِبَةَ هَذَا الْإِطْمِئْنَانُ الْقَلْبِيَّ وَلَمْ يَحْصُلْ لِنَفْسِهِ سِنَاعَةٌ مَعَ

.....

(١) الكشاف ١ / ٣٩٥ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ٣ / ٥١ .

قلبه كما قال تعالى :

إِنَّمَا نَطْمِئُنُّ بِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا

وقوله تعالى :

وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْرَى ○ إِلَّا ابْتِغَاءً وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ○
وَلَسَوْفَ يَرْضَى ○

ثم إن هذا الابتغاء والطلب يُصَبِّحُ ملكة قائمة في النفس وتصبح هذه العبادة كالعادة . (١)

فالمشبه هنا إذاً هو لا المتفقون الذين ينفقون أموالهم ابتغاءاً لمرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم أي هو لا المجتهدون في الطلب الذين تجاوزوا العدل إلى الإحسان والغرض الذي أمرهم به ربهم إلى التطوع عشقاً وحباً لهذه العظمة وبلوغاً لهذه المنزلة العالية التي باتت فيها حالهم الدائمة وديدتهم ابتغاءاً لمرضاة الله وبقينا جازماً لا يخالطه شك بثواب الله وفضله الذي لا يحد .

فهي نفس تعالت وتسامت وريت وزكت ورسخت فيها هذه

الملكة الفاضلة ملكة حب الإنفاق حتى طبعت عليها فصار لا يصدر عنها

إلا كل خير لأن معدنها خير، فعالها إذاً مثلها مع نفقتها :

كَشَلِي جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَكَانَتْ أُمَّهَا ضَعُفَيْنِ فَإِن مَّرِصَتْهَا وَابِلٌ
فَقُلَّ وَاللَّهِ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا

(١) انظر الفخر الرازي ٦٠/٧

(٢) انظر التحرير والتنوير ٥٢/٣ انظر روح المعاني ٣٦/٣

الجنة : أكثر ما تطلق في كلامهم على ذات الشجر المشعر
(١)
المختلف الأُصناف (والجَنَّةُ كُلُّ بَسْتَانٍ ذِي شَجَرٍ يَسْتُرُّ بِأَشْجَارِهِ الْأَرْضَ) .
الربوة : (سَمِيَتِ الرَّبْوَةُ رَابِعَةً كَانَهَا رَبِيَتْ بِنَفْسِهَا فِي مَكَانٍ ،

ومنه رَبَا : إِذَا زَادَ وَعَلَا قَالَ تَعَالَى :

فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ

أَي زَادَتْ زِيَادَةً مُتْرَبِيًّا . (٢)

وشير الرازي هنا إلى دقيقة في معنى كلمة (ربوة)

يخالف فيها بعض من سبقه من ذكروا أن المراد بالربوة

المكان المرتفع من الأرض فيقول : (ليس المراد من هذه الربوة ما ذكره ،

بل المراد منه كون الأرض طينا حرا ، بحيث إذا نزل المطر عليه انتفخ وربا

فإن الأرض متى كانت على هذه الصفة يكثر ريعها وتكمل الأشجار فيها) .
(٣)

ثم يحتج لرأيه هذا بدليلين الأول : قوله تعالى :

وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ

والثاني : أن هذا المثل في مقابلة المثل الأول وهو الصفوان الذي لا

يؤثر فيه المطر فلا يربو ولا ينمو فالمراد إذا كون الأرض بحيث

تربو وتنمو ثم يقول وهذا ما خطر ببالي والله أعلم بمراده .
(٤)

والذي عليه غيره وهو الأرجح أن الربوة هي المكان المرتفع وخصها
بذلك لأن الشجر فيها أركب وأحسن شعرا . (٥)

(١) الراغب مادة (جن) .

(٢) الراغب مادة (ربو) .

(٣) الفخر الرازي ٦١ / ٧ .

(٤) المرجع السابق ٦١ / ٧ .

(٥) الكشاف ٣٩٥ / ١ .

ثم تأمل كيف أن الذي يربو وينمو في القرآن بالإضافة إلى النفقة هي نفس منفعها فهي تزكو وتنمو بحيث لا يكون لها طلب ولا مطمع إلا ابتغاء مرضاة الله .

وقوله : أصابها : توحى بالخير الميم لأن الإصابة في الخير اعتباراً بالصوب أي المطر . (١)

"والوايل المطر الشقي البطار" . (٢)

وفيه إشارة إلى سخاوة نفسه وعظم جوده .

"وقوله (آت) " آتيت فلاناً على أمره مؤاتاةً وهو حسن المطاوعة والإيتاء الإعطاء" . (٣)

تأمل هذا المعنى وهذا العطاء السخي وكيف لانت هذه الجنة واستجابت لهذا الوايل السخي فما أسرع ما آتت أكلها وأثمرت خيراتها ونضرت نعيمها وأورفت ظلالها .

بينما نجد أن العرائي لم يوء ثرفيه خير هذا الوايل فلم يثمر ولم تؤث أعماله أكلها ولم يجن ثمرتها .

وقوله : (ضعفين) - التثنية لمجرد التكرير والتكثير أي آتت أكلها مضاعفاً على تفاوتها أي ضعفاً بعد ضعف . (٤)

ويرجح هذا الوجه أبوحيان إذ يقول : (ويحتمل عندي أن يكون

قوله (ضعفين) ما لا يزار به شفع الواحد بل يكون من التشبيه الذي يقصد به التكثير، وكأنه قيل فأتت أكلها ضعفين ضعفاً بعد ضعف أي أضعافاً كثيرة وهذا أبلغ في التشبيه للنفقة بالجنة ، لأن الحسنة لا يكون لها ثواب حسنتين، بل جاء تضاعفها أضعافاً كثيرة وعشر أمثالها وسبع مائة وأزيد) . (٥)

(١) انظر الراغب مادة (صوب) .

(٢) الراغب مادة (ول) .

(٣) المقاييس مادة (آتى) .

(٤) انظر روح المعاني ٣/٣٠٦ .

(٥) البحر المحيط ٢/٣١٢ .

تأمل جنة أعمالهم كيف فاض خيرها وعطاؤها على نفس صاحبها
وعلى كسئل الناس فإليها المأوى والملجأ من الخوف والفرع والجوع والظماً
والحر والقر فهي ظل ظليل وثمر وفير وستر لصاحبها في الدنيا والآخرة
ثم تأمل تكرار التضعيف وتكرار الرضى من الله غاية ما بعد ها غاية .

فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ

والطل الرذاذ من المطر وهو اللين منه . (١) إشارة الى أن أضعف المطر
يكفيها لبقاء خصوبتها ، أى فطل يكفيها لجودتها وكرم منبتها .

والمراد أن خيرها لا يخلف على كل حال لجودتها وكرم منبتها
ولطافة هوائها ، وحاصل التشبيه أن نفات هوء لا زاكية عند الله تعالى
لا تضع بحال ، وإن كانت تتفاوت بحسب تفاوت ما يقارنها من الإخلاص في
الابتغاء والتثبيت ، كما تتفاوت أحوال الجنات الزكية في مقدار زكاتها ولكنها
لا تخيب صاحبها فهي جنة أكدها دائم وظلها ؛ (٢)

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

"الْبَصْرُ يُقَالُ لِلجَارِحَةِ النَّاطِرَةِ - وَالْبَصِيرَةُ لِقُوَّةِ القَلْبِ المُدْرِكَةِ" . (٣)

وفي هذا التذييل التذييل البديع
ما فيهِ من الوعيد والترهيب للمرائي الساذي يقصد بمعله
روءية من لا تغنى رؤيته شيئاً ويغفل عن وجه البصير الحقيقي
الذي تغنى رؤيته وتفقر . (٤)

كما أن فيه من الترغيب للموء من المنفق المخلص ما فيه (٥) وحسه
أن يستشعر معية الله ونظر الله إلى قلبه ليكون قلبه كله لله .
وفي هذا من التوكيد والتقدير ما فيه .

- (١) روح المعاني ٢٦/٣ .
(٢) انظر روح المعاني ٣٦/٣ وانظر التحرير والتنوير ٥٣/٣ .
(٣) المفردات للراغب مادة (بصر) .
(٤) انظر روح المعاني ٣٦/٣ - ٣٧ . وانظر أبو السعود ٢٦٠/١ .
(٥) انظر المصدر السابق .

وبعد هذه الرحلة الشاقة المجهدة التي تجاوزت فيها النفس
المؤمننة الصادقة ، تلك العوائق ، وبعد أن انطلقت في سيرها بإنفاقها
متجهة إلى الله مخلصه في السير إليه آن لها أن تحظى بهذه
الرفائق والمنح الربانية .

وذلك منتهى ما تطمح إليه النفس التواقة إلى مرضاة الله سبحانه
وتعالى .

أرأيت كيف ارتقت هذه النفس من طلب المضاعفة في الأجر إلى
ابتغاء مرضاة الله ، أي من الجزاء الحسي إلى هذا الجزاء والنعيم
الروحي والبلوغ بالنفس إلى هذه المنزلة ليس أمراً هيناً ، لأن النفس
قد يعترئها من الشك والتردد والأهواء والمطامع ما يصرفها عن الثبات
على هذه الطاعة ، لأن الإيمان يزداد وينقص فتأمل كيف يتدرج
القرآن الكريم في تربية النفوس وترويضها على ما يشق عليها حتى
تصبح هذه الطاعة سجية من سجاياها .

فيكون حالها كهذه الجنة بربوة لا تخيب صاحبها ، ولا يخلف خيرها
بحال .

فهي جنة بربوة متفردة عن الجنان ، ما يزيد لها حسن منظر وزكاة
شمر ، فيضاعف هذا الموقع من عطائها وإغداقها فتوتها أكلها ضعفين

وهي نفقة عن نفس تبتغي مرضاة الله زاكية عند ربها أيها زكاء،
بمعنى أن هذه النفس قد بلفت من التثبيت والثبات على الطاعة حدا
لا يتجاوز الإخلاص في طلب مرضاة الله ، فهو إما وابل وإما ظل ، بحيث
لا يخلف خيرا بحال .

قال تعالى :

أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ
جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ
كُلِّ الشَّمْرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا
إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ
لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾

ثم تأمل هذا الاستئناف البياني البديع الذي أثاره ضرب المثل
العجيب للمنفق في سبيل الله من حبة أنبتت سبع سنابل إلى جنة ربوة
آتت أكلها ضعفين . وذلك الجزاء والبركة والخير الخصيب للمنفقين
في سبيله الذين لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى ثم لما نهوا عن المن
والأذى استشرقت نفس السامع لتلقي مثل لهم يوضح حالتهم الذميمة
التي هي ضد تلك الحالة المحمودة . (١)

وهكذا تجدنا أمام شهادين كبيرين ، المشهد الأول : يمثل
هو لاء المنفقين في سبيل الله ابتغاء مرضاته وتشبها من أنفسهم وكيف
تعهدوا حرثهم فآتت جنتهم أكلها ضعفين بعد أن أصبح الإنفاق
طبيعة فيهم وسجية من سجاياهم الكريمة لا ينقطع وابلها ولا يجف نداها .
والمشهد الثاني : يصور حال المنفقين في سبيل الله الذين
أبطلوا إنفاقهم بالمن والأذى أى أضاعوا حرثهم وجنة أعمالهم فلم يحفظوها
بل أتبعوها بالمعاصي التي أحرقتها وهم في أشد الحاجة إليها .

(١) انظر التحرير والتنوير ٣ / ٥٣

وقوله **أَيُّودُ أَحَدِكُمْ** الود حب الشيء مع تنبيه والهمزة للإنكار

والتحذير وناط الإنكار هو إصابة الإعصار وما يتبعها من الاحتراق . (١)

تأمل هذا الأسلوب الاستفهامي والابتداء الرائع الذي يجعل النفس

تحذر الوقوع في ذلك .

وهيئة المشبه محذوفة وهي : هيئة المنفق نفقة متبعة بالمن

والأذى . (٢)

وقوله **أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ** أي الأصل والركن

فيها هذين الجنسين الشريفين الجامعين لفنون المنافع والباقي من

المستتبعات . (٣)

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إشارة إلى دوامها وخلودها .

وَلَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ المراد التكثير كقوله تعالى :

(وَأوتيت من كل شيء) .

وَأَصْحَابُ الْعِزِّ " هذه الحال التي هي مظنة شدة الحاجة

إلى منافع تلك الجنة ومنتهى العجز عن تدارك أسباب المعاش . (٤)

(١) انظر روح المعاني ٣٧/٣ وانظر (أبو السعود) ١/٢٦٠ .

(٢) التحرير والتنوير ٣/٥٤ .

(٣) أبو السعود ١/٢٦٠ .

(٤) روح المعاني ٣/٣٧ .

وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضِعْفًا ١ حال من الضمير في أصابه . تأمل تداخل

الأحوال وزيادة القيود التي تقوى وتتكاثر فيها عناصر الضعف والعجز حتى

تبلغ الحاجة أشدها ثم يعظم الخطب عند شدة الحاجة فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ

الغبار الذي يَسْطَعُ مستديراً والجمع أعاصير . (١)

فِيهِ نَارٌ أي نار شديدة فالتنكير فيها للتعظيم .

فَأَحْرَقَتْ عطف على (فأصابها) .

يقول ابن القيم : (٢) فهذا مثل ضربه الله سبحانه للحسرة

بسلب النعمة عند شدة الحاجة إليها مع عظيم قدرها ومنفعتها ، والذي

زهبت عنه وقد أصابه الكبر والضعف فهو أحوج ما كان إلى نعمته . .
الذي

وقال ابن عباس : (هذا مثل/يختم له بالفساد في آخر

عمره) . (٣)

وعن عمر رضي الله عنه أنه سأل عنها الصحابة فقالوا : الله أعلم ،

فغضب عمر وقال : قولوا نعمم أولاً نعمم ، فقال ابن عباس : في نفسي منها

شيء يا أمير المؤمنين . قال : قل يا ابن أخي ولا تحقر نفسك ، قال :

ضربت مثلاً لعمل ، قال لا في عمل ؟ قال لرجل غني يعمل بالحسنات

ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله كلها . (٤)

(١) المقاييس مادة (عصر) .

(٢) ابن القيم ، تفسير القيم (١/١٥١) . (٣) المصدر السابق .

(٤) الكشاف (١/٣٩٥) .

تأمل قوله (فعمل بالمعاصي) والمعاصي أن يعص العبد ربه
فيخرج عن طاعته ، وقد خرجوا هنا عن طاعته بإتباعهم نفقاتهم بالمن
والأذى فاحترقت أعمالهم أي أنهم بنوها على خير ثم أتبعوها بما أفسدها
وأحبطها .

وفي هذا المثل قوله تعالى :

أَيُّودُ أَحَدِكُمْ أَنَّ زَكُورًا لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْتَابٍ

لون من ألوان البديع أطلق عليه ابن أبي الأصبغ (الاستقصاء)

وهو أن يتناول المعنى فيستقصيه إلى أن لا يترك فيه شيئاً يقول :

" وقد جاء في الكتاب العزيز من ذلك ما لا يلحق به سبقاً " .

فانظر إلى استقصاء هذا المعنى حين لم يبق فيه بقية لأحد

ذلك أنه بعد قوله جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْتَابٍ قال بَحْرِيٌّ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

وكمل الوصف بقوله لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فأنى بكل

ما في الجنان ليشتد الأسف على إفسادها ثم قال وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ

ثم استقصى المعنى الذي يوجب تعظيم المصائب بقوله بعد وصفه (بالكبر) :

وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ۖ وَلَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى كَوْنِهِ لَهُ ذُرِّيَةٌ حَتَّى قَالَ ضَعْفَاءُ ، ثُمَّ

ذكر استئصالها بالهلاك في أسرع وقت حيث قال : وَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ

فِيهِ نَارٌ ، فلو اقتصر على ذكر الإعصار لكان كافياً ولكن لما علم الله

سبحانه أن مجرد الإعصار لا تحصل به سرعة الهلاك كما يحصل إذا كان فيه نار ، فقال سبحانه : (فيه نار) ثم أخبرنا بإحتراقها لاحتمال أن تكون النار ضعيفة لا يقوم إحتراقها باطفاء أنهارها وتجفيف أوراقها وثمارها فاخبر بإحتراقها احتراساً من ذلك ، وهذا أحسن استقصاء وأتمه بحيث لم يبق في المعنى موضع استدراك .^(١)

ولهذا المثل من الفضل والعزيمه ما جعل المفسرون يشيرون إلى أهميته فترى الرازي يقول فيه :

* هذا المثل في غاية الحسن ونهاية الكمال .^(٢)

ويقول النيسابوري :

* ولا يخفى أن هذا المثل - في المقصود - أبلغ الأشكال فإن الإنسان إذا كان له جنة في غاية الكمال وكان هو في نهاية الاحتياج إلى المال وذلك أوان الكبر مع وجود الأولاد والأطفال فإذا أصبح وشاهد تلك الجنة محترقة فكم يكون في قلبه من حسرة ؟^(٣)

(١) التحرير والتحرير ص ٥٤٢-٥٤٣

(٢) الفخر الرازي ٥٠٨/٢

(٣) غرائب القرآن ٥٣/٣ - ٥٤

وبهذا الأسلوب الرائع والعرض الأنيق^١ والترغيب والترهيب
يحذر المؤمن من أن يتبعوا إفتاقهم بالمن والأذى ويرغبهم في أن
يدخروا ذلك لينتفعوا به في وقت أحوج ما يكونون إليه .

قال تعالى :

مثل

مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ
أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُمَا وَمَا ظَلَمَهُمْ
اللَّهُ وَلَٰكِنِ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾

من أسرار المناسبة :

تتحدث الآيات السابقة للعثل عن أهل الكتاب من نصارى ويهود

ومحاجتهم والرد عليهم ومعابرتهم على صدهم عن سبيل الله :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُصَدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ آمَنَ تَبَغُّونَهَا

عَوَجًا * (*)

وعن كفرهم بالله :

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿١﴾

ويرغب المؤمنون في الاعتصام بحبله سبحانه والحذر من كيد

اليهود ومحاولتهم إيقاع الفرقة بين صفوف المؤمنون وتشكيكهم فسي

عقيدتهم . وهكذا يظل الحديث متواصلا عن اليهود والنصارى

وكيدهم للإسلام والمسلمين وإعدادهم العدة لمحاربة الله ورسوله . ولكن

الله يبشر عباده بالنصر وأن كيد أولئك لن يضرهم :

﴿ وَإِنْ يَقْتُلُوكُمْ يُولُوكُمْ أَلَاءَ اللَّهِ مَا يُبَارِكُ لَمْ لَا يَنْصُرُونَ ﴿٢﴾

ثم تعقد الآيات موازنة بين طائفتين من أهل الكتاب ، طائفة مذبذبين

إلى ربها :

﴿ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ أَنْاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْتَفْهِدُونَ ﴿٣﴾

(*) آل عمران / ٩٩

(١) آل عمران / ٧٠ .

(٢) آل عمران / ١١١ .

(٣) آل عمران / ١١٣ .

وأخرى تحارب الله ورسوله بإقامة الحصون وتجهيز الجنود ولكن أموالهم وأولادهم إن تغني عنهم من عذاب الله شيئا :

وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

وهكذا ينهض التمثيل القرآني اليديع ليؤكّد أن ما أنفقه الكافرون في هذه الحياة الدنيا وفي عداوة الرسول عليه الصلاة والسلام هالك لا حالة ولن يقدروا على الانتفاع به ولذلك نرجح ما رواه ابن عباس رضي الله عنه ، حين خص بني قريظة والنضير بالمثل والآية السابقة له -

* قال ابن عباس رضي الله عنهما: هم بنو قريظة والنضير فإن معاندتهم كانت لا أجل المال * (١)

وتخصيص الحديث عن الكافرين من أهل الكتاب لا يمنع من عموم

حكمه لكل من ماثلهم من الكافرين في عداوته لهذا الدين . (٢)

وقد ذكر المفسرون في أسرار مناسبتها ووجوه شبهها وجوهاً فقالوا:

* شبه ما كانوا ينفقون من أموالهم في العكازم والعفاخر وكسب الثناء وحسن

الذكر بين الناس لا يبتغون به وجه الله بالزرع الذي حسه البرد فذهب

خطأ ما .

(١) أبو السمود ٠٧٥/٢

(٢) انظر الأمثال في القرآن الكريم ، د/ محمد جابر الفياض ص: ٣٤٠

وقيل هو ما كانوا يتقربون به إلى الله مع كفرهم .

وقيل ما أنفقوا في عداوة الرسول صلى الله عليه وسلم فضاع عنهم

لأنهم لم يبالغوا بإنفاقه ما أنفقوه لأجله . (١)

والذي يظهر أن الوجه الأخير هو الذي يقتضيه سياق

الآيات .

(١) الكشاف ١/٤٥٧ .

من أسرار اللغة والنظم :

* مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا *

يُصَوِّرُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ الْمَعْنَى الْعَقْلِيَّ الْمَجْرَدَ فِي صُورَةٍ
مَحْسُوسَةٍ بِهَذَا التَّشْبِيهِ التَّشْبِيهِ الَّذِي يَمَثَلُ صَدَقَاتُ الْكَافِرِينَ وَنَفَقَاتِهِمْ
فِي بَطْلَانِهَا وَذَهَابِهَا وَعَدَمُ نَفْعَتِهَا بِمَثَلِ زَرْعٍ أَصَابَتْهُ رِيحٌ بَارِدَةٌ
فَاهْلَكَتْ وَلَمْ يَنْتَفِعْ أَصْحَابُهُ بِشَيْءٍ مِنْهُ بَعْدَ مَا كَانُوا قَدْ عُلِقُوا بِالْأَمْلِ بِهِ. (١)
وَوَجْهُ الشَّبْهِ : الْهَيْئَةُ الْحَاصِلَةُ مِنَ خَيْبَةِ الْأَمْلِ وَالْحَسْرَةِ عَلَى
مَا بَدَلُوهُ مِنْ جُهْدٍ وَمَشَقَّةٍ كَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّهُ يَنْتَفِعُ بِشَرْتِهَا .

وَالشَّبْهُ مَا يُنْفِقُونَ مِنْ أَمْوَالٍ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِمَحَارِبَةِ
دِينِ اللَّهِ .

وَالشَّبْهُ بِهِ هُوَ الزَّرْعُ الَّذِي أَهْلَكَتْهُ الرِّيحُ الْبَارِدَةُ وَهَذَا
الزَّرْعُ لِقَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَاقِبَهُمُ اللَّهُ بِإِهْلَاكِ زَرْعِهِمْ .

ثُمَّ تَأْمَلُ مَا وَرَاءَ قَوْلِهِ تَعَالَى :

* هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا *

مِنَ التَّحْقِيرِ لَهَا وَالْإِزْدِرَاءِ إِذْ أَنْ يُنْفِقَهُمْ لَمْ يَتَجَاوَزْ هَذِهِ

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢/٤٢٠ . القرطبي

الظرفية الفانية الدانية لأنها هي التي في حسمهم وتصورهم .
أموالهم
وازن هذا بأولئك الذين ينفقون في سبيل الله .

كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ

وقد اختلف العلماء هنا في المراد بالريح التي فيها صر .

هل هي الكفر الذي أهلك ما أنفقه الكافر ؟

أم هي النفقات التي أنفقوها في عداوة الرسول صلى الله عليه

وسلم فأهلك ما كان لهم من أعمال الخير ؟

وسياق الآيات يفصح عن ذلك .

فالآيات السابقة تتحدث عن أن النبي صلى الله عليه وسلم كان

قد نهى اليهود عن معاداته وأصحابه والكيد للمؤمنين ولكنهم فتنوا بما
لهم من حصون وأموال وأولاد . ومعرفة بفتنهم الحرب فأوقع الله بهم وعيده
فغلبوا وأخرجوا من ديارهم .

ولم تغن عنهم حصونهم شيئاً . وهذا النصر إنما أجراه الله على

أيدي المؤمنين فهم الذين تولوا إهلاكهم وتحطيم حصونهم فما أشبههم
بهذه الريح التي صر أصابت زرع قوم ظلموا أنفسهم فلم يفنهم
ما زرعوه شيئاً . (١)

(١) انظر الأمثال في القرآن ، محمد جابر الفياض ص: ٣٩٦

والصر : الإصرارُ التَّعَدُّدُ في الذَّنْبِ والتَّشَدُّدُ فيه والامتناعُ عن
الإقلاعِ عنه وأصله من الصَّرَّ أي الشَّدَّ (وريحاً صَرَصَراً) لفظه من الصَّرَّ
وذلك يرجعُ إلى الشَّدِّ لما في البرودة من التَّعَدُّدِ . (١)

فالصر : البرد الشديد .

وفي تنكير (ريح) ما يوحي بشدتها وقوتها . ولقد وصف سبحانه

المؤمنين بقوله :

أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ

والريح أهلكت الحرث بما فيها من صر أي برد بارد بالسفح

البرودة .

قال تعالى :

وَدُّوا مَا عَنِتُّهُ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي

صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ . (٢)

أرأيت إلى هذه الصدور التي تتقد غضبا وغيظا وهذه الأموال

التي تبذل لمحاربة الله ورسوله واشعال نار الفتنة والعداوة وبيث الفرقة

(١) الراغب مادة (صر) .

(٢) آل عمران / آية ١١٨ .

بين المسلحين فناسب أن يكون إخمادها وإبطالها بهذه الريح الباردة غاية البرودة لتقابل مع هذه النار المتأججة المستمرة في قلوب القوم وفي أموالهم التي بذلوها حربا وعداوة وفتنة ولو كانت إعصارا فيه نثار لزادت الموقف تأججا واشتعالا .

ثم تأمل كيف بدأ المشبه به بلفظ الريح لما لها من العناية والاهتمام لأنها تمثل العذاب والتهديد والوعيد لقوم ظلموا أنفسهم فتعدى ظلمهم إلى حرثهم هذا ما يمكن أن نستشفه من هذا القيد وهو قوله تعالى :

حَرَّثَ قَوْمٌ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ

وما فيه من الإشارة إلى أنهم حادوا به عن غايته ووضعوه في غير محله فوجب استئصاله وإتلافه : وهكذا يأتي أسلوب القصر في قوله تعالى :

وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ لِيُؤْكَدَ أَنْ اللَّهُ

سبحانه ما ظلمهمم بإهلاك حرثهم ولكن ظلموا أنفسهم بارتكاب ما استحقوا به العقوبة . (١)

وفي تقديم (أنفسهم) أى أنهم ما يظلمون إلا أنفسهم ، وجاء
الفعل (يظلمون) بصيغة المضارع ليدل على دوام ذلك العمل منهم
وتجده واستمراره .

وفي الآية الكريمة لطيفة بلاغية وهي (رد العجز على الصدر)

في قوله :

وَمَا ظَلَمْتُمْ آلَ اللَّهِ وَالرِّسَالَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

تأمل ذلك بين (ظلم) وبين (يظلمون) .

وهذا العذاب الذى أصاب القوم (إنما هو عن ظلمهم لأنفسهم

لأن الإهلاك عن سخط أشد وأبلغ) . (١)

والغاء في (فأهلكته) لبيان النتيجة المترتبة على ما تقدم

من إصابة الحرث .

وإذا ما عدنا إلى المواد اللغوية التي بني عليها التمثيل .

نجد : الريح والصر والإصابة والحرث والظلم والإهلاك ،

معاني توحى بهذا الجوال شديد العصف والشديد الهول .

(١) الكشاف ٤٥٧/١ .

وتلك الأصوات المتتابعة في الآية كصوت هذه الريح

التي فيها صر وكيف تعبر الكلمة بمخارج حروفها عن ذلك.

ثم كيف ينتهي المشهد عند قوله (فأهلكته) .

وما وراء هذه الجملة من الهلاك والفناء وعدم الانتعاش .

من أسرار التنوع في التشبيهات التي تمثل الإنفاق :

١- تدور المادة اللغوية التي بينت عنها تشبيهات الإنفاق في

سبيل الله .

حول : الحبة - السنابل - المضاعفة - الجنة - الربوة - الوابل -

الطل .

ونلاحظ أن المثل الأول وهو قوله تعالى :

كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ

وإن شارك الثاني وهو قوله تعالى :

كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ

في معنى عام وهو العطاء والخصوبة والمضاعفة ، والأجسر

العظيم الذي يعود على صاحبه المنفق في سبيل الله إلا أن المشغل

الأول يهتم ببيان مضاعفة الثواب ، هذه المضاعفة الحسابية التي تتمثل

في حبة أنبتت سبع سنابل . . الخ »

فهو تصوير للأضعاف وكأنها مائة بين يدي الناظر .

بينما نجد أن التمثيل الثاني يبرز أثراً آخر للإنفاق في سبيل

الله وهو ما يعود به هذا الإنفاق على قلب صاحبه المؤمن بحيث يعتاد

الخير حتى يطيب هذا القلب وتزكو هذه النفس وتخلص من الأكدار وتصبح

كالا^١ أرض الحرث الخصبة في الربوة العالية السماء وهي مرعة بالخير
زاكية على كل حال إن أصابها وابل أشمرت وأمرعت وإن أمسك الوابل فهي
مرعة مشرة لأن معدنها كله خير فلا يصدر عنها إلا الخير.

٢ - من أسرار التنوع^{مجي}/التشبيه الأول بسيط التركيب لتحصيل السرعة بتخييل
هذه المضاعفة الحسابية . ويحصل التحريض والترغيب وإثارة محور الطمع
في الإنسان فمن ذا الذي لا يحب الربح خاصة إن كان هذا الربح بهذه
المضاعفة التي هي أقصى ما تستشعره النفس الإنسانية .

بينما جاء التشبيه الثاني معقد التركيب لأن الأحوال هنسا
تكاثفت وتداخلت وتراكبت فالنفوس زاخرة مغممة بمعاني الخير والطاعة
مبتغية مرضاة الله^س والنفقة فيه وارفة الظلال دائمة الأثمار فهي ظل
ظليل وثمر وفير وستر لصاحبها وحجاب من النار .

٣- من أسرار^{التنوع أنه} لما كان لكل مثل بناؤه ونظمه كان لكل واحد أيضا تذييله
وفاصلته التي تلائم وتنظم معه ومع السياق الذي وردت فيه فذيلت
آيات التمثيل الأول بقوله تعالى :

وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْكُمْ

ليتناسب مع المضاعفة التي وعد الله^س سبحانه أنه يضاعفها لمن يشاء
من عباده .

بينما اختتمت آيات التشيل الثاني بقوله تعالى :

* والله بما تعملون بصير *

ليتناسب مع تلك القلوب المتفاوتة في زكائها وإخلاصها فيجازى كلاً
بعمله .

٤ - قد يكون من أسرار التنوع أيضاً الانتقال من الحسنى إلى المعنى
وذلك تدرجاً في تربية النفس المؤمنة لأن الأمور المحسوسة أول ما
تدركها النفس ثم ترتقي بعد ذلك .

٥ - وقد يكون من أسرار التنوع ما ذكره بعض المفسرين ومنهم الطبري
والبقاعي (١) إذ يقول :

" إن المراد بالتشيل الأول نفقة الجهاد في سبيل الله

لأن الجهاد واقع عند الحاجة والمنفق ابتغاء مرضاة الله ينفق في كل
وجه دائم الإنفاق فكان مثله كالجذوة الدائمة ليتطابق المشلان بالمشولين
فعمت هذه النفقة جهات الإنفاق كلها في جميع سبل الخير ."

(١) نظم الدرر ٧٧/٤ وانظر جامع البيان ٤١/٣ .

وتدور المادة اللغوية التي بنيت منها تشبيهات الإنفاق رثاء الناس،

والإنفاق المصحوب بالمن والاذى، وإنفاق الكافرين حول :

الصفوان - التراب - الوابل - الصلد .

ثم جنة من نخيل وأعناب - إعصار فيه نار - الكبر - الذريسة

الضعاف - ريح فيها صر - حرث قوم ظلموا أنفسهم .

وهذه التشبيهات وإن كانت تجتمع في معنى عام وهو بيسان

احباط العمل وإبطاله ونضاعه بعدما كان يأمل نفعه . إلا أن كل تشبيه

ينفرد بمفرضٍ ومعنى يتناسب مع السياق الذي ورد فيه :

١ - المان والموءذى والعراي وإن كانا يشتركان في احباط

العمل إلا أن العراي ينفرد في التشيل الأول وهو قوله تعالى :

كَمَثَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ مُصَلِّدًا*

بيان أن نفقة لم تشر أصلاً لأن قلبه خال من الإيمان بالله .

واليوم الآخر وإن كانت تيد وكأنها صالحة للنفع والانبات بينما يصور لنا

التشيل الأخير وهو قوله تعالى :

أَيُّودٌ أَحَدَةٌ أَنْ تَكُونَ لِمُجَنَّةٍ مِّنْ نَّخِيلٍ

نفقة المان والموءذى وقد بلغت غاية الوفرة والكثرة والشراء ونهاية

ما تطمح إليه نفس ثم طرأ عليها ما أحبطها وأحرقها .

٢ - الذى أبطل نفقة / و أضاع ثوابها وأزالها

وهي لم تشر بعد رباؤه الذى يمثله الوايل وهي علة داخلية تمس جوهر العقيدة .

بينما الذى أحبط نفقة المان والموء ذى مننه وأذاه والذى

(يمثله إعصار فيه نار) وهما علتان خارجتان طرأتا عليه .

فالفسار الخارجى لم يجر الإنفاق أصلا عليه وإنما خالطه

بعد اكتماله فأفسده وهو أحوج ما يكون إليه . لذلك يقول أبوحيان :

" إن الصدقة وقعت صحيحة ثم بطلت بالمن واللاذى " . (١)

بينما المرائى بالإجماع لم يأت بالعمل مقبولا صحيحاً وإنما أتى

به باطلاً مردوداً . (٢)

٣ - الرياء خير في ظاهره وسبب لنيل المدحة والثناء

من الناس وإن كان ضاراً وشرافى باطنه وآثاره فهو أشبه بالوايل الذى

كان مظنة النفع فأصبح وبالاً عليهم .

(١) البحر المحيط ٣/٣٠٩ .

(٢) روح المعاني ٣/٣٥٠ .

بينما المن والاذى شرفي ظاهره نار في باطنه ، وأثره على النفس
لأنه يمحق الإنفاق ويمزق المجتمع ويشير الأحقاد وقديماً أفاض
الشعراء والبلغاء في وصف حرارته وحرقته وشدة وطأته على النفوس ونفروا
منه لذلك هو أشبه بالإعصار الذي فيه نار .

٤ - من أسرار التنوع أيضاً أن يكون الجزاء من جنس العمل .

فالمرائي عاد عليه رباؤه الذي هو مظنة النفع فأبطل عمله وأذهبه والمان
والمؤذى عاد عليه منه وأذاه إعصاراً فيه نار جزاءً يجانس أعماله . . .

لتحرقه بِعَصْرِهِ أن استوفت غاية الحسن
والطيب والكمال وعند بلوغه غاية العجز والضعف والهوان فأى حسرة أعظم
من حسرته .

٥ - ومن أسرار التنوع بين الجنة التي احترقت بإعصار فيه نار

ومين الحرث الذي أهلك بالريح الباردة .

أن الإعصار الذي فيه نار يمثل المن والاذى وهو في حرقتيه

وتمزيقه لا وأصر المحبة وتفتيت المجتمع كهذا .

بينما الريح التي فيها صر تثلل المؤمن وقوتهم وأسهم

وشدتهم ثم ما هم فيه من برودة اليقين التي تخمد نار الحقد والشرك والكفر .

٦ - نفقة المان والموء ذى بنيت في أجواء رطبة ندية فأثمرت وأينعت

ثم طرأت عليها آفة أحرقتها فناسب أن تكون هذه الآفة إعصار فيه نار لإحراق

الجنة بينما حرث هوء لاء الكافرين الذين ظلموا أنفسهم زرع في أجواء حارة

متأججة حقدا ويغضا وحرى لله ورسوله فاحتاج إلى ريح شديدة البرودة لإطفاء

جذوته وإهلاك ثمرته .

٧ - من أسرار التنوع هذا التقابل البديع بين المعاني ليزداد

رسوخها في النفس بين حبه أثمرت أيما إثمار وصفوان لم يثمر شيئاً

ثم بين هذا الصفوان الذى لم يتصدع لوابل السماء

وبين تلك الجنة بربوة التي آتت أكلها ضعيفين

بين جنة ثابتة نائمة زاكية وبين جنة أصابها إعصار فيه نار فاحترقت،

بين هذا الإعصار الذى فيه نار وتلك الريح التي فيها صرء ،

بين تلك الآفة الباطنية من الرياء وتلك الآفة الخارجية من المن والاذى ،

بين ذلك التركيب البسيط في حبة أنبت سبع سنابل ، وذلك التركيب

المضاعف في جنة بربوة آتت أكلها ضعفين، وهكذا تجد التقابل فى

القرآن الكريم بين معانيه عنصراً من عناصر بلاغته وإعجازه ومبانه .

الفصل الثالث :

التشبيه الذي يمثل الحق والباطل
وأسرار تنوعه .

المدخل :

ورد ذكر الحق والباطل في القرآن الكريم في مواضع كثيرة وعلى

صور بلاغية مختلفة جاء بعضها عن طريق الحقيقة والبعض الآخر عن طريق

التشبيه والمجاز بين فيها سبحانه أنه الحق وأن كتابه الحق وأن له دعوة الحق .

فقال تعالى :

(١) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ

وقال :

(٢) وَلَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ

وقال :

(٣) وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ

فهو سبحانه الحق ودعوته دعوة التوحيد هي الحق ومنهج

وقرآنه هو الحق .

يقابل ذلك أن ما يعبد من دون الله هو الباطل وأن كل مذاهب

وعقائد وتشريعات غير ما سنّها وأنزلها هي الباطل وأن دعوة الشرك والإلحاد

(١) الحج / ٦٢ .

(٢) الرعد / ١٤ .

(٣) الرعد / ١ .

والكفر هي الباطل ، فالباطل معبود ومنهج ودعوة كما أن الحق إليه
ومنهج ودعوة.

كما بين سبحانه أن الباطل لا محالة زائل وأن الحق

باق في الأرض فقال :

بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ (١)

وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَّقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٢)

وقد مثل سبحانه للحق الذي هو كتابه وكيف تلقته قلوب عباده واستجابات

له وموقفه مع الباطل وصراعه معه فقال :

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ

مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ

عَلَيْهِ فِي النَّارِ أَبْغَاءَ حُلِيَةٍ أَوْ مَتَاعِ زَبَدٍ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ

اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ

فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ (٣)

كما مثل سبحانه للحق الذي هو كلمته ودعوته وهي أساس الدين وشعار

الإسلام ومفتاح دار السلام وهي كلمة التقوى والعسرة الوثق التي من

أجلها قامت السموات والأرض وفطر الله عليها جميع المخلوقات .

(١) الأنبياء / ١٨

(٢) الأسراء / ٨١

(٣) الرعد / ١٧

ومثل فيما يقابلها لكلمة الكفر والشرك فقال تعالى :

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ
تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ ۝ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ
فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ①

والمناصر التي كونت أساليب التشبيه هنا هي الماء النازل من السماء

والسيل والزبد والمعادن التي يوقد عليها والحلوة والعتاق .

ثم الشجرة الطيبة وما جرى عليها من أحوال وصفات .

والشجرة الخبيثة التي اجثت من فوق الأرض .

وسوف أجتهد بإذن الله في بيان أسرار التنوع وراء

تشبيه الحق بالماء والمعدن والشجرة الطيبة ،

وتشبيه الباطل بالزبد والشجرة الخبيثة .

قال تعالى :

أَنْزَلَ مِنَ

السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا

رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ

مِثْلُهُ ۗ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ

فَيَذَّهَبُ جُفَاءً ۗ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۗ

كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾

من أسرار المناسبة :

تمتد أسرار المناسبة بين تشبيه الحق والباطل وبين بداية
السورة الكريمة التي من مقاصدها تقرير هذا الحق المتمثل في إنزال الكتاب
الذي يثبت وحدانية الله وتفرده عز وجل بالخلق والإيجاد والإحياء
والإماتة والنفع والضرر.

وتفرده سبحانه بالألوهية والربوبية وإحاطة علمه بكل شئ
ودفع الباطل المتمثل في تلك الشبه التي يثيرها المشركون بالله يقول تعالى :

* الْمُرْتَلِكُ آيَاتِ الْمَكْتَبِ وَالَّذِي نَزَّلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقَّ (١)

ثم تأتي الآيات لتقرر دلائل هذا الحق وآياته في الوجود
وأنها ظاهرة ظهيرا لا خفاء فيه ولا التباس في السموات والأرض والشمس
والقمر والليل والنهار، والزرور والثمار، في البرق الذي يخيف ويطمع، والرعد
الذي يسيح بحمده، والملائكة/ تخاف وتخشع، والصواعق التي يصيب بها
من يشاء، والسحاب الثقال والمطر في الوديان، والزبد الذي يذهب جفاء

ليحقق ما ينفع الناس ومع ذلك تجد وسط هذا الكون المسيح الضارع
قوما :

يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ (١)

ثم تأمل وانظر إلى هذا الظامي * وحده وسط هذا الكون السخي
الذي لا زالت سماؤه تطرر ورقه يخيف ويطمع .
يقول عز وجل :

وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ
لَهُمْ شَيْئًا إِلَّا كِبَاسٌ مَّهِينٌ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ ذَاتَهُ مِائَهُمْ سَابِغَةً
وَمَادُ عَاءِ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٢)

ما أقرب الحق إليه وما أدناه من بين يديه وقد تلبس به الكون
كله فهذه أدات باهرة ناطقة يرعد صوتها ويسرق ضوءها يبشـر
وينذر ولكن :

هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسَوَّى الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ
شُرَكَاءَ خَلَقُوا الْخَلْقَ فَشَبَّهُوا خُوقَ عَلَيْهِمَ (٣)

ثم قارن هذا الظامي * وحده وسط طبيعة ريا تتدفق بالحياة
والخصوبة، بأولئك المخبئة قلوبهم الرطبة الندية يسيل فيها ماء الهدى
والحق والنور . يقول تعالى :

(١) الرعد / ١٣ .

(٢) الرعد / ١٤ .

(٣) الرعد / ١٦ .

قال تعالى:
أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ
مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ
عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يُضْرَبُ
اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ (١)

وهكذا تظفر سماء الحق فيحمل السيل زبدا رابيا ، ويصهر

العدن فيطفو زبد مثله :

فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ

بهذا التمثيل الرائع البديع الذي مثل بين أيديهم في الا جواء البارقة
الراعدة ، والسماء تمطر والماء يتدفق بين الجبال وعلى التلال ، يهبط
سريعا من كل مرتفع ، حتى يملا الا ودية ، فإذا بها تسيل في منظر
بديع ، يملا النفس رغبة ورهبة وهي ترى وتسمع هدير السيل ودويسه
وقوة إندفاعه وجيشانه يشنف الأذان الواعية ويملا القلوب الخالصة
فتخبت له وتتقاد اليه وتحسبها لشدة تأثرها به وإقبالها عليه كأنها
تسيل ، أفمن يعي عن هذا الحق الذي أهاج الكون كله هل يستوى

هو ومن يهصر ، أم هل تستوى ظلمات الكفر والشك والنفاق مع نور

الحق والإيمان واليقين ؟

بهذا التشييل البديع ينتصب الحق مرثياً شاهداً في أعظم

آية من آيات الله في الكون في هذا الماء الذي جعل الله منه كل شيء

حياً لمثل الحق ، بل هو عين الحق لشدة المماثلة.

يقول الزمخشري : " هذا مثل ضرب الله للحق وأهله والباطل

وحزبه ، كما ضرب الأعمى والبصير والظلمات والنور مثلاً لهما ، قسَّ الحق

وأهله بالماء الذي ينزله من السماء ، فتسيل به أودية الناس فيحيسون

به وينفعهم أنواع المنافع ، وبالفلذ (١) الذي ينتفعون به في صوغ الحلوى

منه واتخاذ الأواني والآلات المختلفة ولولم يكن إلا الحديد الذي فيه

البأس الشديد لكفى به ، وإنَّ ذلك ما كثر في الأرض باق بقاءً ظاهراً يثبت

الماء في منافعه ، وتبقى آثاره في العيون والآبار والحبوب والثمار التي

تنبت به ما يدخر ويكنز ، وكذلك الجواهر تبقى أزمنة متطاولة ، وشبه الباطل

في سرعة اضمحلاله ووشك زواله وانسلاخه عن المنفعة بزيد السيل الذي

يرمي به ويزيد الفلز الذي يطفو فوقه إذا أذيب . (٢)

(١) المعادن الموجودة في الأرض .

(٢) الكشاف ٢/٣٥٦ .

وقال أبو حيان :

قال ابن عطية : * صدر هذه الآية تنبيه على قدرة الله تعالى

وإقامة الحجة على الكفرة ، فلما فرغ ذكر ذلك جعله مثلاً للحق والباطل

والإيمان والكفر والشك في الشرع واليقين به . (١)

* وقيل هذا مثل ضربه الله تعالى للقرآن والقلوب/الحق والباطل

فالماء مثل القرآن لما فيه من حياة القلوب ، ومقاء الشرع والدين والأودية
مثل للقلوب .

ومعنى (بقدرها) أى على سعة القلوب وضيقها ، فمنها ما

انتفع به فحفظه ووعاه وتدبر فيه فظهرت ثمرته وأدرك تأويله ومعناه ،

ومنهم من ذلك بطبقة ، ومنها دونه بطبقات ، والزيد مثل الشكوك والشبه ،

وإنكار المنكرين أنه كلام الله ودفعهم إياه بالباطل ، والماء الصافي المنتفع
به مثل الحق . (٢)

ويقول صاحب التحرير والتنوير (٢) :

* شبهت هيئة نزول الآيات وما تحتوى عليه من إيقاظ النظر

فيها فينتفع من دخل الإيمان قلوبهم على مقادير قوة إيمانهم وعلمهم .

(١) البحر المحيط ٢٨٧/٥

(٢) المصدر السابق ٢٨١/٥

(٣) التحرير والتنوير ١١٧/١٣

ويعر على قلوب لا يشعرون به وهم المنكرون المعرضون .
ويخالط قلوب قوم فيتأملونه فيأخذون منه ما يشير لهم شبهات وإلحاداً .
كقولهم " هل ندلكم على رجل يبيحكم إذا مزقتم إنكم لفي خلق جديد " ومنه
الآخذ بالمشابهة . . . شبه ذلك كله بهيئة نزول الماء فانحداره على الجبال
والتلال وسيلانه في الأودية على اختلاف مقاديرها . ثم ما يدفع من نفسه زبداً
لا ينتفع به ثم لم يلبث الزبد أن ذهب وفتى والماء بقي في الأرض للنفع (١) .
وقد جاء في الحديث النبوي ما يعاثل هذا المعنى " عن أبي موسى
رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : مثل ما بعثني الله به من
الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقيةً قبلت الماء فأنبتت
الكلاء والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فتبع الله بها الناس
فشربوا وسقوا وزرعوا وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً
ولا تنبت كلاً فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله تعالى به
فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به " (٢)
وسنتف عند التحليل والمدارسة لآيات التمثيل على ذلك إن شاء الله
ونرى كيف توءم كد سياق الآيات هذه المعاني وتشير إليها في تناسق بديع
وإحكام جليل وسبك دقيق وهذا الذي نصفه لفظة القرآن لا يتجاوز لغتنا
التي تقصر عن وصف بلاغته وتمجز عن الإحاطة بمعانيه وإلا فإن القرآن يملو
ولا يعلى عليه . وهو في إعجازه في نظمه وتراكيبه وصوره ومعانيه خارج عن
حدود طاقة البشر .

(١) التحرير والتنوير ١٣/١١٧ .

(٢) مختصر صحيح البخاري المسمى (التجريد الصريح) كتاب العلم ص ٤٠ .

من أسرار اللغة والنظم :

قال تعالى :

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا

(أنزل من السماء) : أى من جهة السماء ، والمطر لا ينزل إلا

من السماء، ولكنه على طريقة :

(١)

خَرَجَ لِيَهُمُ السَّمَاءُ مِنْ قَوْفِهِمْ

لتأكيد المعنى، والإيحاء إلى سمو هذا الماء، وعلو قدره، وصفائه، وطهارته، وأن
ليس من مصدر آخر إلا السماء، ويقابل هذا المعنى في المثل لسه
أن " الحق والقرآن " لا ينزل إلا من السماء، وفي ذلك إثبات لوحدانية
الله، وأن الخير لا يكون لهذه الأرض إلا منه، وتشريعه .

وفي تنكير (ماء) ما يوحي بهذا الفيض السخي، الذى نزل من

السماء، أو المراد به نوع منه وهو ماء المطر الذى لا يحمل إلا الخير . (٢)

(١) النحل / ٢٦ .

(٢) انظر (أبو السعوى) ٥ / ٦٤ .

وهكذا يأتي الإنزال لهذا الماء دليلاً مشاهداً على قهره عزَّ
وَجَلَّ لكل شيء لأن حمل الماء في العلو لا يمكن إلا عن قهر، كما أن رفع
السماء بغير عمد لا يكون إلا عن قدرة وقهر، وكذلك إنزال الماء في وقت
دون غيره دليل على ذلك. (١)

(فسالت أودية بقدرها) :

مادة (السين والياء واللام) أصلٌ واحد يدلُّ على جريانٍ
وامتدادٍ . (٢)

(أودية) : أصلُ الوادِي المَوْضِعُ الَّذِي يَسِيلُ فِيهِ الْمَاءُ وَمِنْهُ
يَسِّنُ الْغَرَجُ بَيْنَ الْجَبَّائِنِ وَادِيًّا وَجَمَعَهُ أَوْدِيَةٌ . (٣)

وهو اسمٌ فاعلٍ من ودى إذا سال . . ويسمى الماءُ وادِيًّا
إذا سال . (٤)

(١) نظم الدرر ١٠ / ٣١٤ .

(٢) مقاييس اللغة مادة (سيل) .

(٣) الراغب مادة (وادى) .

(٤) انظر الفخر الرازي ١٩ / ٣٧ .

ثم تأمل هذا التوافق العجيب، والتقدير البديع، لهذه الثوب التي سالت بالحق، وقد هيئت بأصل فطرتها وطبيعتها، لتكون الموضع الذي يسيل أو يتدفق فيه نور الحق، وهدى القرآن، لذلك كانت استجابتها للحق سريعة حين أسالها فسالت، وأجراها فجرت، وامتدت، وأمدت بالحياة، فكان في سيلانها امتداداً لحركة الحق في الوجود، وشباناً له، ومقاءً لنفحه في الأرض .

وقد جاءت (أودية) على صيغة النكرة، لأنها تلك الواقعة مواقع المطر، المتعرضة لفيوضاته ونفحاته، فليس المراد جميع الأودية بل نوع خاص منها، لأن الأمطار لا تستوعب الأقطار، وإنما تنزل على طريق المناورة، فتسيل بعض الأودية دون بعض . (١)

وفي هذا دليل على أن من أقبل على الحق وعرض نفسه عليه لم تجد نفسه بدا من الإيمان به، لأن الفطرة مهيأة لقبول ذلك، وأن من أعرض، وأنكر، كان كمن يُفطِّي فطرته، ويحجب بصره، ويفلُّ عقله، وينأى بنفسه عن هذا الخير والنور .

(١) انظر (أبو السعود) ١٤ / ٥، روح المعاني ١٣ / ١٣٩ .

كما يوحي التكرير بأن هذه الأودية على قلتها أودية عجيبة
الصفة، عظيمة القدر، تخرج عن المعتاد والمألوف من أودية الناس، كيف
لا وهي أودية في صدور الذين آمنوا، واستجابوا لربهم، يسيل فيسها
ماء الحق، فيخصب جديها، ويروي ظمأها، ويبعث فيها الحياة الدائمة
الباقية التي لا ينتهي عطاؤها، ما دامت تستمد من هدى القرآن .
وسواء كان المعنى المراد بقوله (فسالت أودية) معش (الأودية)
الحقيقي التي فيها الإسناد مجازي كما في (جرى النهر) أي ماؤه ، أو
أريد بها معناها المجازي والإسناد فيها حقيقي ، من باب إطلاق اسم
المحل على الحال فيه .

فكلا المعنيين لا تضيق عنه لغة القرآن ، فهذا الحق يمتد في
المروق، ويجرى في القلوب، وهي لشدة تأثرها به، واستجابتها له، وإقبالها
عليه، كأنها تسيل .

وقوله (بِقَدَرِهَا) في موضع الحال من أودية، والقدر بمعنى
المقدار، واللفظ له وجهان :

الأول : أي سألت بمقدارها الذي عينه الله تعالى من
الماء، واقتضت حكمته في نفع الناس، لأن المطر مثل للحق، وهو نافع
خال من الضرر . (١)

(١) انظر (أبو السعود) ١٤ / ٥ ، والبحر المحيط ٥ / ٣٨١ .

الثاني : أويقدر صفر الأودية وكبرها، لأن النافع ذلك، (١)

بحيث لا يفيض الماء فيضراً، لأن من السيول جواحف، وزواحف، تجرف
الزراع والبيوت والأشجار. (٢)

وراء تفاوت الأودية في المقادير اختلاف الناس، وتفاوتهم، في

قابلية الانتفاع بما نزل من الحق، وهذا يتناسق ويتلاءم مع اختلاف
الشراة التي تسقى بما واحد . يقول تعالى :

وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَّجِرَاتٌ
وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ
وَاحِدٍ وَنُفِضَ لِبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤)

وكانها باختلافها تحدث التكافل، والتكامل، إذ أن كل شجرة

تخصص بمنفعة أو تمنح الجسم فائدة يحتاجها، كما أن كل قلب

يحمل بالقدر الذي يطيقه فهمه ووعيه، ولو كانوا جميعاً سواء لما احتاج

قلب إلى قلب، ولا عقل إلى عقل، ولما حدث التآلف، والتعاون، ولا استغنى كل

(١) حاشية الشهاب ٥/٣٢٢٠

(٢) التحرير والتنوير ١٣/١١٨٠

(٣) الرد / ٤٠

عن الآخر وهكذا تمنحك لفظة القرآن معنيين لا تضاد بينهما فهو بالقدر
الذي ينفعهم ، ففيه حياة القلوب وصلاح المعاش وزاد الضماد وهم يحلون
منه بالقدر الذي تطيقه جباتهم وطبيعتهم .

✽ فاحتل السيل زيدا رابيا ✽

ذهب أكثر المفسرين الى أن (اَحْتَلَّ) بمعنى (حمل) جاء فيه

(اَفْتَعَلَ) بمعنى المجرد .

والذي يظهر لي - والله أعلم - أن إِيثَارِ اَحْتَلَّ على حَمَلٍ لزيادة

في معناه وقوة في بناءه ، لأن الاحْتِمَالَ : رَفَعُ الشَّيْءِ * على الظاهر بقوة
الحامل له . (١)

* وَتَحَامَلَتْ إِذَا تَكَفَّتْ الشَّيْءَ عَلَى مَشَقَّةٍ وَالاحْتِمَالُ الْغَضَبُ . .

لأنهم يقولون احتمله الغضب وذلك إذا أزعجه . (٢)

وراء ذلك جهد أهمل الحق واصطبارهم على احتمال هذا الفناء

المجتمع من الأوساخ والأكدار التي تقذف بها نفوس الكافرين والمشركين

من الشكوك والشبه والإنكار والتكذيب .

(١) نظم الدرر ١٠ / ٣١٥ .

(٢) المقاييس مادة (حمل) .

وجاء " السيل " معرفاً لأنه معهود مذكور بقوله تعالى :

(سالت أودية) وإن لم يجمع، لأنه مصدر بحسب الأصل . (١)

ثم تأمل هذا المعنى، واستقص النظر إليه، بتفريغ لب وجمع

قلب، وسكون طائر، حتى كأنك لا تسمع في هذا الكون إلا صوت هذا

السيل، الذي أهاج بحسيرته الوجود، وملا القلوب رغبة ورهبةً .

ثم قارنه بتلك الطائفة المؤمنة، أو الجيل القرآني الفريسد،

الذي تلقى الحق والوحي مباشرة من فم السماء، ولم يحل بينه وبين

سرعة الاستجابة لهذا الحق حائل . ثم انظر أتجد في تاريخ البشرية

كلها سيلاً كسيله، أو حركة في الوجود تضاهي حركته في قوتها،

وما أضفته على البشرية من عظيم نعمها، وجليل فضلها ؟

إنه السيل الذي لا زال دونه في أذن الزمان، ولا زالت آثاره

(٢)

في الأرض قدوة لمن أراد أن يحتذى ويفي بعهد الله ولا ينقض الميثاق*

لتكون حركته في الوجود امتداداً لذلك السيل الفريد .

(١) انظر حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٥/٢٢٣ .

البحر المحيط ٥/٣٨٠ .

(٢) انظر آية ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢ من سورة الرعد .

الذي تطوءه الأقدام ، يرفعه السيل عند اشتداد جريانه ، فيظهر زبداً رابياً ويحاول باعتلائه ، وانتفاخه ، أن يحجب وجه الحق ، ويمكر صفو جوهرة ونقاء معدنه ، وما فيه من حياة القلوب ، ونفع الناس ، ولكنه لا يلبث أن يضمحل ويزول أمام اندفاع الحق ، وقوة جيشانه ، فكان حركة الحق في الوجود هي التي أظهرت الباطل ، وهي التي دفعته ومزقته فذهب جفاء .

(١)

وَمَا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٍ مِّثْلَهُ

أى : ومن الذي يوقد عليه الناس من المعادن كالذهب والفضة والنحاس ما يسبك في النار لطلب الزينة ، أو الأشياء التي ينتفع بها ، كالأواني / مثل زيد السيل ، لا ينتفع به كما لا ينتفع بزيد السيل .

وهذه الجملة معطوفة على الجملة الأولى لضرب مثل آخر .

وهذه الواو التي تقتضي المفارقة توحى بأن للحق مع الباطل

موقفاً آخر ، أو توحى بأن هناك باطلاً آخر ، يماثل الباطل الأول في صراعه

مع الحق .

قوله تعالى :

وَمِمَّا يُوقَدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ .

" ما " لها وجهان عند المفسرين فهي إما أن تكون تبعيضية،

وإما أن تكون ابتدائية دالة على مجرد كون الزبد مبتدئا وناشئا من

المعدن لا تبعيضية ، ويعللون ذلك بأن فيه إخلالا بالتشيل لأن

المقصود من التشيل بيان عدم استواء الحق والباطل وأنها أمران

مختلفان اختلاف الأعمى والبصير والظلمات والنور ، فكيف يكون الباطل

بعض الحق وإنما يخالطه من غير مداخلة فيه تفسد جوهره وإنما

توجب صفاءه وجماله . (١)

وكان هناك نصين من الزبد زيد راب فوق الماء من غير

مداخلة فيه وزيد مختلط بالمعدن لا يظهر إلا عند الإيقاد عليه فسي

النار فيظهر ويعلو ظهر المعدن لخفته وانعدام وزنه ، ولكنه ظهور

وشيك بزواله وذهابه وفناؤه .

(١) انظر أبو السعود ١٤ / ٥ روح المعاني ١٣ / ١٣٠ .

ووجه الماثلة بين هذين الزيديين في كونهما يتوالدان من
الأساخ والأكدار . تأمل هذا وقارنه بما يقابله من المثل له ، فهسل
تجد أساخا واقذاراً تمكّر صفو الحق كهذه الشبه والشكوك والتكذيب
والإنكار الذي يخالط النفوس، ويطمس بصيرة القلوب . ٢ .

وهذا الزيد الطائفي الرباعي الظاهر إنما هو - والله أعلم -

ما واجهته دعوة الحق ، من تكذيب وإنكار من غير لبس ولا خفاء . فقد كانت
الحرب بين الحق والباطل واضحة المعالم، بارزة السمات ، ولا يحمل هذه
الامة الكافرة على هذه المواجهة إلا ثقتهما بقوتها المادية ، على بساطة
عقليتهم وجمودها في الكيد والديس ، وكلما أوغل الإنسان في الحضارة ،
والتقدم العلمي ، زاده ذلك دهاء ومكرا ، وتلبيسا ، لذلك كان ما يلاقه
الإسلام من أهل الكتاب، واليهود خاصة - وهم أهل علم - أشد وأنكى
لأن حربهم للحق وغزوهم لاهله بطرق أخفى، وأشد دهاء ومكرا وفتكا
بالنفوس .

ولكن هذا الزيد الخفى لا تلبث أن تظهره الشدائد ، والمحن

التي تعربها الأمم . فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً . من دعوات هادمة

واعتقادات فاسدة ، وأعمال وأقوال ، وشعارات ، وأحزاب .

وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ (*)

وهذه الابتلايات والمحن التي تتبلى بها الأمم، إنما هي بما كسبت أيديهم . تأمل قوله تعالى (يوقدون) وكيف أضمر فاعله مع عدم السبق لظهوره إيجاباً بأن الذين يوقدون قوم مندسون في هذه الأمم، يسمون لإيقاد الفتن، والمحن، ابتغاء متاع قليل، وحلية بالية فانية .

والإيقاد على الشيء على قسمين : أحدهما : ألا يكون ذلك

في النار كقوله تعالى فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَيْهَنُ

أن يوقد على الشيء ويكون في النار . (١) رغبة في إزابتة كالمعادن .

ثم تأمل كيف يفيض هذا القيد (في النار) معنى التوكيد ،

والتأسيس، والمبالغة . فالتوكيد حاصل من أنه يوقد عليها، وأنها في النار (٢)

وأن الإيقاد يتجدد، ويتكرر حدوثه، وهذا ما يفيد الفعل (يوقدون) .

ثم انظر إلى موضع العناية والاهتمام، والإعتراف في الآية الكريمة ،

تجدد في هذه الجملة المفعولة صلة ، إذ الغرض كامن فيها لذلك

(*) الرعد / ١٧ .

(١) الفخر الرازي ١٩ / ٣٨ .

(٢) انظر حاشية الشهاب ٥ / ٢٣٣ .

قدمت هنا وما وراء تقديمها من تشويق للسامع لترقب المسند إليه .

يقول ابن عاشور : * وفي ذلك من يدعي صنع الله إن جعل

(١)

الزبد يطفو على أرق الأجسام وهو الماء ، وعلى أغلظها وهو المعدن *

وراء ذلك أن الجيل الأول بلغ في الرقة والشفافية وصدق الإيمان وليونته ،

واخبات النفس ، ووجل القلب لله ليونة هذا الماء الذي خالط قلبه

وعذوبته ، ثم إنه لطول الأمد ، وتراخي العمر ، والغفلة عن المنهج ،

ومخالطة غيره له قسا وصلب ، ولم تعد حالة الليونة تظهر إلا عند الابتلاء

والفتنة ، حين يصفو معدنه ، ويطرد عنه الزبد .

فالغرض إذاً كما نرى في هذه الجملة وهي قوله تعالى :

وَمَا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ (٢)

لأنه تمثيل وتصوير حالة الافتتان والاختبار والابتلاء ومعالجة الأشياء

بالشدة لتبين معادنها ، وتصفيه جواهرها ، فينتفع بالخالص المصفى

(ابتغاء حلية أو متاع) .

ولأن ذكر الإيقاد عليها سبب حصول الزبد وطرده .

(١) انظر التحرير والتنوير ١١٩/١٣ .

(٢) الرعد / ١٧ .

ولما كان الإيقاد على هذه المعادن فيه إشارة إلى التهاون

بها، بوضعها في النار، واذلالها بالإيقاد عليها إيقاداً مستعلياً، (١)

يتناسب مع مقام الكبرياء، والقهر، ولأن الواحد القهار هو القادر

على تسخير هذه النار لإذابة هذه المعادن، أتبع ذلك ببيان منفعتها،

وأن الغاية من الإيقاد عليها شدة رغبة الناس في الانتفاع بها من حلية

أو متاع أي أن هذا تكريم لها، وتشريفه بإعدادها للنفع والبقاء. (٢)

ابْتِغَاءُ حَلِيَّةٍ أَوْ مَتَاعٍ

تأمل كيف تتحول وتخلص هذه المعادن من تلك الحالة

الشديدة، والمكابدة والعناء، إلى هذا الجمال والبهاء، إلى حلية تخطف

ببريقها الأَبصار، وتشنف بوسوستها الآذان و تشنف بمحبتها القلوب .

يقول أهل العلم (٣) :

(٤)

* وفي ذكر متعلق ابتغاء تنبيه على منفعة (ما يوقدون) *

ولعل وراء حرصهم على صوغ الحلى التي يتزين بها الناس تعبيراً عن

رغبتهم في التمتع بمن يتحلّى بهذه الحلية، أو بمتاع الحياة الدنيا، فإن الزينة

(١) انظر نظم الدرر ٠٢١٥/١٠

(٢) انظر حاشية الشهاب ٠٢٣٣/٥

(٣) نظم الدرر ٠٣١٦/١٠

(٤) البحر المحيط ٠٣٨٢/٥

والحلية والبهاء والجمال ، كان ولا يزال عند الناس من مباحج الحياة

ومقاصدها . يقول عز وجل :

(*)

وَقَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ

والمَتَاع : * ما يتخذ من الحديد والنحاس وما أشبهها من

الآلات، التي هي قوام العيش، كالأواني والساحي، والآت الحرب، وقطاعات
الأشجار والسكك وغير ذلك * . (١)

والمَتَاع من التمتع الإمتدَادُ وَالْإِرْتِفَاعُ وَكُلُّ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ عَلَى
وَجْهِ مَا فَهُوَ مَتَاعٌ وَسُّعَةٌ * . (٢)

وفي تنكير (حلية) و (متاع) ما يشير إلى مدى حرص

الناس وشدة رغبتهم في التمتع بهما، ولو كانت حلية فانية، ولو كان متاعاً إلى
حين . كما يوحي التنكير بأنها حلية بالفة رائعة، ومتاع عظيم، يمتد
بهم ويرتفع وإن هذا حاصل ما دام الإيقاد على هذه المعادن مستمراً
متجدداً، فالنفع من ورائها يعظم، ويكبر، حتى يصل إلى أوج فتنته وبهائه،

(*) الرعد / ٢٦ .

(١) البحر المحيط ٥ / ٣٨٠ .

(٢) الراغب مادة (متع) .

وهذا ما آل إليه حال البشرية اليوم من شدة الافتتان بهذه المعادن
وتسخيرها لمتعة الإنسان وراحته .

ولعل وراء ذلك - والله أعلم - أن الله ^{لإنما} يبتلي عباده بما
يصفيه، ويجلي جوهرهم، ويطرد الزبد والباطل عنهم، إنما يفعل ذلك
ابتغاءً لتحليتهم، بالأحوال السنية، والأخلاق الزكية، التي بها جمال الرجال
وقوام صالح الأعمال . (١)

إِنَّمَا الْأُمَمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيََتْ

فَإِنْ هُمْ ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا

فهو متاع خالد، دائم، باق، خال من العثرة، وما يكدر صفو العيش، وهنائه
لذلك يأتي التعقيب :

لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَىٰ

قال أهل المعاني: الحسنى هي المنفعة العظمى في الحسن،

وهي المنفعة الخالصة عن شوائب العثرة، الدائمة الخالية عن الانقطاع،
المقرونة بالتمظيم والإجلال . (٢)

(١) انظر القرطبي ٠٣٠٦/٩

(٢) الفخر الرازي ٠٣٩/١٩

تأمل ذلك الذي أعد للمحسنين، وقارنه بهذه المنفعة العاجلة،

والحلية الحالية إلى حين .

وقوله تعالى ، **رَبِّهِمْ مَشَاهِدٌ** ، لاشتراكهما في الزبدية .

وفي تنكير (زيد) ما يوحي بضآلته، وحقارته، والازدراء به وإن

أعجب الناس كثرته، وظهوره، وعلوه، في بادئ الأمر إلا أنه مضمحل، وشيك

الزوال، منسلخ عن المنفعة والبقاء .

(*)

كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ

جاءت هذه الجملة المعترضة لتفصل مآلها، بعد أن تحدثت

عن حالها .

* وَالضَّرْبُ : إِيقَاعُ شَيْءٍ عَلَى شَيْءٍ ، وَمِنْهُ ضَرْبُ الْأَرْضِ بِالْمَطَرِ ،

وَضَرْبُ الدَّرَاهِمِ اعْتِبَارًا بِضَرْبِ الْمَطْرَقَةِ . . وَضَرْبُ الشِّئْلِ هُوَ مِنْ ضَرْبِ

الدَّرَاهِمِ ، وَهُوَ نِكْرٌ شَيْءٌ أَشْرُهُ يَطْهَرُ فِي غَيْرِهِ . (١)

(*) الرعد / ١٧ .

(١) الراغب مادة (ضرب) .

ويقول الشريف الرضي : " والمراد بضرب الأمثال (والله أعلم) معنيان، أحدهما: أن يكون تعالى أراد بضربهما تسييرها في البسملار وإدارتها على ألسنة الناس من قولهم ضرب فلان في الأرض إذا توغل فيها، وأبعد في إتقاصيها، والمعنى الآخر في ضرب المثل أن يكون المراد نصبه للناس بالشهرة تستدل عليه خواطرهم، كما تستدل على الشيء المنصوب نواظرهم، وذلك مأخوذ من ضربت الخباء إذا فضتته " (١)

وقوله " كذلك " فيه إشارة إلى أن ما ذكر في الآيات السابقة قد بلغ من الكمال مبلغاً عظيماً بحيث صار نموذجاً كاملاً ومثالاً للحق (٢) والباطل، وكأنه لكامل التماثل بينه وبين ما مثل به عين الحق والباطل، وقولنا: إن هذا المثل يشبه الحق والباطل فيه إغفال لهذا المعنى الدقيق، فجاءت هذه الكاف لتفيد بلوغ المعنى تمامه، وتحقيق التمثيل وتشبيته وتوكيده .

(١) تلخيص البيان في مجازات القرآن ص ١٢٣ للشريف الرضي .

(٢) انظر بلاغة القرآن، أحمد بدوي ص : ٢١٥ .

تأمل كيف كان من علمائنا من يتذوق ويدرك أن وجوه الشبه لا
تتحصر في وجه واحد بل قد تمتد وتتسع وذلك منهج عبد القاهر الذي
أغفلناه في دراستنا بعد ذلك .

وهذا الوجه الذي صرح به في (التمثيل) إنما صرح به
لما فيه من البشارة والندارة لأهل الحق والباطل ، وأما أهل الباطل فهم
الزائلون البائدون ، وأما أهل الحق فهم الباقيون الدائمون ^(١) وهكذا
يبدأ في التفصيل بما هو أهم في الذكر .

وعطفت جملة (فأما الزيد) على قوله (فاحتمل
السييل زيداً رابياً) بعد أن تفرعت على التمثيل وحي " بأما " للتوكيد .
لأن النفوس لا ترى إلا الظاهر العالي الرابي فتظن أنه لن يزول فجاء
التوكيد لهذا الخير ليصرف أذهانهم إلى هذا الكلام الذي فيه ما فيه من
خفي البشارة والندارة . ^(٢)

(١) انظر التحرير والتنوير ١٣ / ١٢١ .

(٢) المرجع السابق ١٣ / ١٢١ .

* وأفرد (الزبد) ولم يشن وإن تقدم (زبدان) لاشتراكهما في مطلق

الزبدية، فهما واحد باعتبار القدر المشترك * (١)

وفي هذا إشارة إلى أن الباطل وحزبه طمة واحدة، وإن كثرت

أحزابهم، واختلفت أساليبهم، وطرقهم في الكيد والطمع، وإثارة الشبه

والفتن . وسواء أكانوا ظاهرين مجاهرين بالكفر، أو متلبسين مندسين

عاملين في الخفاء، فكلهم تجمعهم صفة الزبدية، والغشائية، التي لا خير

فيها ولا منفعة ومن ثم فهي غير باقية .

فَأَمَّا الزَّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً

والجفاء : * وهو ما يرمى به الوادي، أو القدر من الغشاء

إلى جوانبه * (٢)

يقال : أَجْفَأَتِ الْقَدْرُ زَبْدَهَا أُلْقَتْهُ إِجْفَاءً وَأَجْفَأَتِ الْأَرْضُ

صَارَتْ كَالْجَفَاءِ فِي ذَهَابِ خَيْرِهَا * (٣)

(١) البحر المحيط ٥/٣٨٢

(٢) الراغب مادة (جفا) .

(٣) المرجع السابق وانظر المقاييس مادة (جفو) .

" وفي هذا وعيد للمشركين بأنهم سيبادون بالقتل ويبقسي

المؤمنون . "

وراء استعمال " يذهب " بدلا من " يمضي " أن عين الباطل

ومعناه زاهبان، أي أهله وما خلفوه من مناهج ، وعقائد ، ودعوات وشبهه، ومنكرات ،

لأن الباطل قد يهلك أتباعه ويبقى منهجه .

ولكن كيف يذهب هذا الباطل أيذهب عالما رابيا ظاهراً كما كان ،

وكما غلب على قلوب البشر واستعبدها وأذلها له . . أم يذهب منبوءاً

مستهجنا حقيراً ذليلاً مصروباً مطروحاً كما تطرح الفضلات والزوائد التي لا

خير فيها ؟

يذهب الباطل " جفاء " ويذهب معه كل باطل يتجدد

حدوثه وقيامه إلى أن يورث الله الأرض لعباده الصالحين .

وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَمَا كُنَّا فِي الْأَرْضِ (١)

وجاء التعبير عن " الماء " الذي يشل الحق بالاسم الموصول

وصلته (بما ينفع الناس) إيماء إلى وجه بناء الخبر وهو البقاء في الأرض ،

وفيه من التعريض بالمشركين ما فيه لأنهم لا نفع فيهم للناس . . وهذا المعنى

يتطابق مع قوله تعالى :

(١) * أَنْ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ * (١)

”و (النفع) كلمة تدل على خلاف الضر“ (٢)

ويرى صاحب روح المعاني أن قوله تعالى :

”وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ“

يعني من الماء الصافي الخالص من الفشاء والجوهر المعدني الخالص من الخبث . (٣)

وفي بناء الجملة على هذه الصورة (مَا يَنْفَعُ النَّاسَ) إشارة إلى

تعدد وجوه النفع واستمراره استمراراً تجديداً تظهر به وجوه أخرى ، كبيرة وعظيمة من النافع ، والعالم / كله يشهد ^{اليوم} بعظم نفع الماء والمعدن في إقامة هذه الحضارة العلمية الباهرة التي بهرت الألباب واختلبت النفوس ، ولله هذا القرآن !! .

فِيمَكَّتْ فِي الْأَرْضِ

* الْمَكْتُ : كلمة تدل على تَوَقُّفٍ وَاِنْتِظَارٍ * . (٤)

(١) سورة الأنبياء آية ١٠٥ .

(٢) المقاييس ٥/٤٦٣ .

(٣) روح المعاني ١٣/١٣٢ .

(٤) المقاييس ٥/٣٤٥ مادة (مكث) .

وعدم استعجال ، فالحق باق في الأرض ببقاء منجه الذي

تكفل الله بحفظه :

(١)

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ

وماق ببقاء أهله :

(٢)

الَّذِينَ إِذَا مَكَتُمْ فِي الْأَرْضِ قَامُوا الصَّلَاةَ

وفي قوله تعالى :

(٣)

كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ

جمع ثم تقسيم ، فيبدأ بذكر الزيد أولاً ، لأن ذكره أهم فهو الظاهر المنظور الذي أغروخدع ، وملك واستعبد ، فالنفس في توق لمعرفة مآله وقدرة الله على الذهاب به ، ولأن الحق هو المتأخر في الوجود لاستمراره .

والرأى الراجح : إن ذلك الترتيب من قبيل اللف والنشر غير السرتب ، وهو

مراعاة للملاءمة بين حالتي الذهاب والبقاء ، وبين ذكرهما ، فان الاعتبار إنما هو ببقاء الباقي بعد زهاب الذهاب ، لا قبله ، لأنه ما دام الباطل مستمرا في الوجود فسيحول بين الحق وبين الانتفاع به على الوجه الذي يسر له ، ولكن زهاب الباطل خلوص للحق للانتفاع به على أكمل وجه وأعظمه .

(١) الحجر / ٠٩

(٢) الحج / ٠٤١

(٣) الرعد / ٠١٧

وبعد ذلك نسيظل الحق وأهله في انتظار ولهفة وشوق وتوق
للنفعة الكبرى التي دونها كل منفعة ، وللنعيم الأبدى الذي ليس فوقه
نعيم ، وفي ضرب هذا المثل تأكيد للإيمان باليوم الآخر ، وبالبعث والجزاء
الذي جاء الحق لتثبيته وتقديره في النفوس .

لذلك تأتي البشارة بقوله تعالى :

لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ أَجْرًا

* والحسنى هي النفعة العظمى في الحسن وهي النفعة الخالصة
(١)

عن شواغب الضررة الداعة الخالية عن الانقطاع المقرونة بالتعظيم والإجلال *

كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١)

* كذلك * للتحقيق والتوكيد أى مثل ذلك الضرب العجيب :

(يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ) في كل باب إظهارا لكمال اللطف والعناية في الإرشاد

، وفيه تفخيم لشأن هذا التشيل وتأكيد لقوله سبحانه :

يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ (٢)

وهكذا يبين الله الحق والباطل حالا ومآلا .

(١) الفخر الرازي ٠٣٩/١٩

(٢) الرد ٠١٨/

(٣) الرد ٠١٧/

قال تعالى :

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً
كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفُرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي
أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ^ط وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ
لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمِثْلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ
اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ
اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي
الْآخِرَةِ ^ط وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ^ع وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾

من أسرار المناسبة :

وحدة الرسالة والرسول هما الحقيقتان اللتان تدور حولهما
سورة إبراهيم عليه السلام ، فدعوتهم واحدة ، وغايتهم واحدة ، وطك هي
الكلمة الطيبة التي ضرب الله لها مثلا :

كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء (١)

فهي الكلمة التي دعا إليها كل رسول ، كلمة التوحيد ، وعليها يقوم الدين
كله ، يقابلها في الجانب الآخر كلمة خبيثة ، هي كلمة الكفر والشرك التي
حملت أتباعها على التكذيب بالرسول ، ومجادلتهم بالباطل ، وكان بينهم
ذلك الحوار الطويل ، الذي انتهى بتكبير الكفار في نار جهنم ، وإحراق
أعمالهم ونسفها :

كرداد اشتدَّت به الرِّيحُ في يومٍ عاصفٍ (٢)

ولما وعد الله عباده ورسله بأنه سيمكن لهم في الأرض ، ويهلك الكافرين ،
ناسب أن يمثل لهذا التمكين والتثبيت ، ويمثل لما يقابله من اجتثاث أهل
الباطل وهلاكهم .

(١) إبراهيم / ٢٤ .

(٢) إبراهيم / ١٨ .

من أسرار اللغة والنظم :

(أَلَمَّا تَرَ) الخطاب هنا لكل من تصح منه الرؤية فعليه أن يرى، لأنه مثل تنامي قدره، وعظم شأنه، فعلى كل راءٍ تتأتى منه الرؤية أن يراه، ولا يغفل عنه، وفي ذلك أيضاً إيهام بالرغبة في تعميق صورة هذا المثل في وجدان كل راءٍ، لتكون له حافز على السعي لتحصيله والفوز به، وهذا ما نستوحيه من قول الفخر الرازي :

" إن الشجرة الموصوفة بالصفات الأربع المذكورة شجرة شريفة ينفي لكل عاقل أن يسمي في تحصيلها وتلكها لنفسه لأن هذه الصفة أمر مطلوب التحصيل ". (١)

وفي إشار التعبير (بكيف) دلالة على أن حالة ضرب المثل ذات كيفية عجيبة من بلاغته وانطباقه . (٢)

وعندما استقصيت هذه الصيغة في القرآن الكريم أجدها ترد إلا مع هذا المثل من الأمثال القرآنية، وفي ذلك ما يؤيد كد تفرّد هذا المثل بهذه الكيفية العجيبة، وذلك حفاوة بالمعنى وإيقاظاً للذهن لترقب ما يربعد هذا الكلام .

(١) الفخر الرازي ١٩/١٢٣ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ١٣/٢٢٣ .

وفي ضرب الأمثال زيادة إقحام وتذكير، وتصوير للمعاني .
ثم تأمل ما تشير صيغة هذا الفعل الماضي (ضرب) من زيادة
التشويق لمعرفة هذا المثل وما مثل به، وهذا الاسم الجليل من قوله
(ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا) يوحي بآدىء ذى يدء بما تنطوى عليه الكلمة
الطيبة من معاني الألوهية الخالصة لله .

والكلمة الطيبة هي كلمة التوحيد .

وعن ابن عباس: شهادة أن لا إله إلا الله .

وفي تنكيرها ما يوحي بأنها كلمة لا يكتنه قدر جلالها فهى

كلمة عظيمة القدر، كاملة في الصفة الموصوفة لها (طَيِّبَةٌ) .

وفي ذكر أداة التشبيه في قوله (كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ) ما يشير إلى أن

هذه الشجرة الطيبة الموصوفة بها الكلمة الطيبة ليست هي عينها، بل

درنبا منزلة ورتبة فالأمثال التي يضربها الحق جل جلاله لتقريب هذه

المعاني ، مستقاة من أنفسنا، ومن هذا الكون المحيط بنا، فالكلمة كلمته، والشجرة

مخلوقته، فلا عجب أن يضرب بها مثلاً لكلمة تتاهى قدرها وفضلها، ليكون ذلك

من العظة والعبرة ما فيه .

وحسبك ما يوحيه تجردها من التعريف لتكون بصفتها هذه وحدها

لا تضاهيها أشجار الدنيا وقد اجتمع لها طيب النظر والرائحة والثمره وعظم

الانتفاع بها فحصل لها بذلك كمال الطيب . (١)

ويشير الرازي إلى أن الآية مقصودا شريفا لا ينكشف بالنظر

في المفردات وحدها وإنما بالنظر في تتابع الكلمات وما بينها من علاقات

ويتوه بهذه الصفات اللاحقة للشجرة وهي صفات أربع :

١ - طَيِّبَةٌ

٢ - أَصْلُهَا ثَابِتٌ

٣ - وَقَرَعُهَا فِي السَّمَاءِ

٤ - تُوْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا .

ويعقب على هذه الصفات الأربع بأنها صارت بها هذه الشجرة شجيرة

شريفة ينبغي لكل عاقل أن يسمي في تحصيلها وتلكها لنفسه سواء أكان

لها وجود في الدنيا أو لم يكن . (٢)

قال تعالى :

أَصْلُهَا ثَابِتٌ * وَقَرَعُهَا فِي السَّمَاءِ

ثبت كلمة واحدة وهي دَوَامُ الشَّيْءِ . (٣)

(١) الفخر الرازي ١٩/١١٩ .

(٢) انظر الفخر الرازي ١٩/١١٩ .

(٣) المقاييس (ثبت) .

ثم تأمل هذا التركيب تجد تقديم كلمة (أصلها /) وهذا ^{ثابت} دال

على كمال العناية والاهتمام . وهو تقديم رتبة .

يقول الألويسي (تقديم الأصل للعناية به ويان أنه ضا رب بعروقه

في الأرض) (١)

متمكن فيها آمن ما يعترى الأصل من الاقتلاع والانقطاع وفي

مجيء الصفة على صيغة اسم الفاعل ما يؤيد كد ثبات هذه الصفة ودوامها

وهذا لب ما يرمى إليه التشبيه كما أن فيه إيحاء بما يداخل النفس مسن

البشاشة والأنس حين تعلم أن هذا الشيء الطيب باق دائم لا يزول ولا

ينقضي فيكمل فرحها ويتم سرورها .

(وَفَرَّعَهَا فِي السَّمَاءِ) :

أى أعلاها في جهة الملو والصعود .

وفي هذا تأكيد لصفة ثباتها وكمال طيبها ، إذ أن ارتفاع

الأغصان وقوتها في التصاعد يدل على ثبات الأصل ورسوخ العروق كما

يدل ارتفاعها على نقاء ثمرتها وطيبها وطهارتها عما يشوبها من

شوائب الأرض فيما لو كانت قريبة رانية . (٢)

(١) روح المعاني ١٣/٢١٣ .

(٢) المصدر السابق بتصريف ١٣/٢١٣ .

تَوَقَّتْ أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا :

أى تعطي ثمرها كل وقت ووقته الله لإثمارها : (١)

فثمرتها حاضرة في كل الأوقات والانتفاع بها غير منقطع ثم يزيد

هذه الشجرة تشريفاً وتكريماً وفضل عناية قوله عز وجل : (بإذن ربها)

وما دامت الشجرة توتئ أكلها بإذن ربها فيا طيب ثمرها وركته وما دوام

عطائها والأمن من زواله أو انقطاعه ، لأنه المرابي الذي تربوا الأشياء

بين يديه وتنمو إلى ما لا حد .

ثم في هذا إشارة إلى أن ثمرة الكلمة الطيبة أعني ثمرة الإيمان

هي أيضاً مرهونة بإذن الله فالطاعة والذكر والاستمسك بشرع الله كل ذلك

بفضل هدايته وتوفيقه وتشبيته لعبده لأنه المرابي الذي يربي خلقه ويتعهد

نفوسهم بالتزكية والتنقية .

ثم في هذا العطاء المضمون كل حين دليل من أعظم الأدلة

وأوكدها على أن جذور هذه الشجرة وأصولها ضاربة في أعماق الأرض

ممكنة منها تندها بالحياة والرواء والعطاء وفيه إشارة إلى أن ثمرة

الإيمان إنما تكون أيضاً حين يتغلغل في أعماق النفس وتخالط بشاشته

القلوب .

وجه تطبيق العثل :

وقد ذهب المفسرون إلى أن وجه تشبيه الكلمة الطيبة بمعنى شهادة أن لا إله إلا الله بهذه الشجرة المنعوتة بما ذكر هو أن أصل تلك الكلمة ومنشأها هو الإيمان ثابت في قلوب المؤمنين فمتى اعتقد المؤمن هذه الكلمة واطمأنت إليها نفسه منحت ثباتها وطيبها وتفرغت عنها وونيت عليها الأعمال الصالحة والأفعال الزكية التي تصعد إلى السماء فينال بركتها ثوابها فهو الشجرة التي تؤتيها كل حين . (١)

وللفخر الرازي لطائف ودقائق في تفسير هذه الآية نقف على

بعض منها فمن ذلك قوله :

* إن المراد بالكلمة: معرفة الله والاستغراق في محبته وطاعته لأنه لا لذيق ولا طيب في الحقيقة إلا هذه المعرفة وثبوت الأصل في شجرة المعرفة الإلهية أقوى وأكمل لأنها ثابتة في جوهر النفس يبيدها الذي لا يجرى عليه تغير ولا تبدل ولا فناء وأن هذه الشرات التي تؤتي كل حين أثر لرسوخ شجرة المعرفة في أرض القلب فيكون نظره بالمعبرة

(١) روح المعاني ٢١٣/١٣ بتصرف .

وسمعه بالحكمة ونطقه بالصدق والصواب وكما كان رسوخ شجرة المعرفة
في أرض قلبه أقوى وأكمل كان ظهور هذه الآثار عنده أكثر ثم لا يزال يصعد
منها كل حين ولحظه ولمحه كلام طيب وعمل صالح وخضوع وخشوع
وكاء وتذلل كسر هذه الشجرة". (١)

وتفسير الثمرات بأنها الصالحات عينها لا يخالف ما ذهب إليه من
قال بأنها الثواب المترتب على العمل الصالح لأن هذا يكون في حالة
رقق الموء من الذي يصبغ العمل الصالح نفسه قرّة عينه وثمره إيمانه ويدعم
ذلك قوله عليه السلام :

(وجعلت قرّة عيني في الصلاة) (٢)

وذلك يترجح لدينا ما سبق أن أشرنا إليه من أن المراد إثبات وتأكيـد
صفة الثبات والرسوخ لهذه الشجرة الإيمانية وأن تصاعد فروعها ووفرة قطوفها
وعدم انقطاعها أعظم دليل على امتداد جذورها في تربة القلب وتمكنها
تمكننا لا ينقطع ولا ينقلع .

(١) تفسير الفخر الرازي ١٩ / ١٢٠ .

(٢) رواه النسائي وأحمد في الزهد وابن أبي شيبة والحاكم في المستدرک

وابن سعد والبخاري وأبو يعلى وابن عدى قال الحافظ ابن حجر في

(تلخيص التكميل) إن أسناده حسن .

نيل الأوطار للشوكاني ١ / ١٥٧ .

وصفة الثبات هذه ذكرت في مواطن عديدة من القرآن الكريم

منها تثبيت قلبه (عليه السلام) بنزول القرآن منجما وتثبيته للمؤمنين:

قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا (١)

ومنها تثبيت المؤمن لا نفسهم باتباع ما يوعظون به والإنفاق

في سبيله :

وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا (٢)

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ
وَتَثْبِيثًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ (٣)

ومن مجموعها نخلص إلى أن القرآن والقول الثابت والعمل الصالح والجهاد

والإنفاق في سبيل الله أي فعل الطاعات من أعظم العوامل التي تثبت

المؤمنين في الدنيا والآخرة ولكنها تنفرع عن الكلمة الطيبة .

(١) النحل / ١٠٢ .

(٢) النساء / ٦٦ .

(٣) البقرة / ٢٦٥ .

بالتمثل
يقول صاحب عمدق القارى : (فما الحكمة بالشجرة ؟

قلت : لأن الشجرة لا تكون إلا بثلاثة أشياء : عرق راسخ وأصل قائم وفرع
عال . فكذاك الإيمان لا يقوم ولا يثمر إلا بثلاثة أشياء : تصديق بالقلوب
وقول باللسان وعمل بالأبدان . (١)

ثم يأتي في مقابل تلك الصورة الخصبة الموهبة في الثبات والبقاء
المغدقة بالحياة والعطاء صورة على النقيض تماما من ذلك لم يضرب الله لها
مثلا تشبيها إلى وجوب روءيتها لأن تناهي خشها وعدم نفعها ^{بلغ} بلغاً
لا يخفى على أحد . وإنما وضعها في هذه الصورة المحسوسة :

وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ

ليكون أدهى لنفرة النفوس منها والوقوف على ضلالها وطلانها واضمحلالها .
وفي تغير الأسلوب فلم يقل : (ألم تركيف ضرب الله مثلا كلمة
خبیثة) وإنما قال (وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ) إيدان بأن ذلك غير مقصود
بالضرب والبيان لأنه أمر ظاهر يعرفه كل أحد وربما كان ذلك لكثرة
وشيوعه وغلبيتها على أكثر أهل الأرض :

قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ (٢)

(١) عمدة القارى ٥ / ١٩

(٢) المائدة / ١٠٠

ومثل كلمة خبيثة . الكلمة الخبيثة هي كلمة الكفر أو الدعاء

إليه أو الكذب * أو كل كلمة لا يرضاها الله تعالى . (١)

وفي تنكيرها ما يوحى بأنها كلمة تنهى خبيثها وعظم قبحها .

(كشجرة خبيثة) : أى كشجرة منكرة خبيثة تتميز عن الشجر

في أنها لا نفع فيها ولا خير يرجى منها فهي بالغة الخبث، وأداة التشبيه

توحى بأن الكلمة الخبيثة أكثر خسة وأعظم خبثا من هذه الشجرة فبينهما

فضل بين وفي ذلك من الارزاء بها والإهانة والتحقير لشأنها ما فيه .

يقول ابن فارس (خَبْتُ يَدُلُّ عَلَى خِلاف الطَّيِّبِ يُقَالُ خَبِثُ أَيْ

ليس بطيب والخبيث في نفسه) . (٢)

أَجْبُثْتُ مِنَ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ

أى اقتلعت من أصلها وحققة الاجتثاث أخذ الجثة وهي شخص

الشيء كلها . (٣)

(١) زوح المعاني ٢١٤ / ١٣ وأبو السعود ٥ / ١٤٤ .

(٢) المقاييس (خبث) .

(٣) روح المعاني ٢١٤ / ١٣ .

يقول ابن فارس " ولا يكون مجشواً إلا وقد قلع بجميع أصوله
وَعُرُوته حتى لا يُترك منه شيء " (١)

ثم تأمل كيف عبرت هذه الكلمة بصورتها وجرسها وخصائصها
الصوتية عن معنى الاجتثاث أبلغ تصوير وأعظمه .

إن أن كلمة (اجتثت)، يشير بنائها الصوتي إلى معنى الاقتلاع
والقطع وذلك أن الحرف الأول فيها وهو همزة الوصل : ومخرجه مسن
أقصى الحلق وكأنه يشير إلى امتداد الجذور ثم أنه امتداد واه ضعيف
لأن (همزة الوصل) همزة ساقطة في أكثر أحوال نطق الكلمة ثم هي
لمست أصيلة في بنية الكلمة وإنما اجتثبت تسهيلاً للنطق بها وربما كان في
هذا (والله أعلم) أن امتداد هذه الجذور امتداد ضعيف وكأنه ممتد بمقدار
ما تكون به الشجرة شجرة يعني يلامس التربة ملاسمة، ثم في حرف الجيم
الخارج من وسط اللسان انتقال إلى ما يقارب السطح، ثم في هذه القلقة
حركة النزاع، ثم في هذه الشاء إشارة إلى نهاية هذا النزاع والشاء مخرجها
من طرف اللسان، ثم في هذا النفس والانتشار من صوت الشاء إشارة

(١) المقاييس مادة (جث) .

إلى ما يكون في التربة من عشرة وانتشار من أثر هذا النزح .

مَا هَا مِنْ قَرَارٍ : أى استقرار .

(١) (يقال : قر الشيء قرارا كقولك ثبت ثباتا)

وهذه الجملة كالتممة للصفة الثانية فقوله :

أَجْنُثٌ مِّنْ فَوْقِ الْأَرْضِ

فيه إيحاء بأنها قد تستقر في موضع آخر فأكد عدم استقرارها (مالها

من قرار) .

وفي حرف (من) ما يوكد نفي القرار مطلقا فليس

لها ولا أقله .

من أسرار التنوع في التشبيهات التي تمثل الحق والباطل :

وهكذا نجد أن المثلين وإن كانا يبدوان أنهما صنوان متشابهان

في الشكل والنتيجة إلا أن هناك أسراراً للتنوع لا يظهرها إلا التحليل

الواعي المتأنى الدقيق ومدارسة الآيات كلمة كلمة، وحسن الإصغاء إلى خفي

وحياها ودقيق نبيها. (١)

ولم أقف في أقوال المفسرين على أسرار هذا التنوع إلا ما ذكره

ابن عاشور حيث يقول :

" وهذا تمثيل آخر ورد استطراداً عقب ذكر نظيره يفيد تقريب

التمثيل لقوم لم يشاهدوا سيول الأودية من سكان القرى مثل أهل مكة

وهم المقصودون ، فقد كان لهم في مكة صواغون ففرب إليهم تمثيل عدم

انتفاعهم بمثل ما يصهر من الذهب والفضة* .

١ - والذي يظهر لي - والله أعلم - أن هذه الأمة في أول أمرها هم

أهل البادية في قوة بيانهم وقوة أبدانهم وصحة طباعهم وسلامة أذواقهم

وهم الذين شهدوا نزول الوحي من السماء ، تميل به هذه القلوب المؤمنة ،

(١) التحرير والتنوير ١٣/٢٠٢ - ١٠٠

فلا غرابة أن يفجر لهم ينوع الحق ماثلا في هذه الصورة التي ألفوها
وخالطت نفوسهم وملأت قلوبهم إعجابا وافتتانا وهكذا تجد التشيل
في القرآن الكريم ، يخاطبهم بعناصر مستوحاة من بيئتهم ومحيطهم حتى
تأنس نفوسهم بما يرون ويقر في قلوبهم ويثبت ثبات هذا الحق وبقاءه .
وحتى تستكمل الصورة البيانية جمالها وقوتها ، جاء التعبير عن
هذه المعاني بهذه الألفاظ الصاخبة الجرس القوية الأداء ، والتي تلائم
هذه الجبلة البدوية الدمشة الخلق المتينة الطباع فكان قوة التعبير
هنا تتبع قوة المعنى . (١)

بينما تجد التشيل في المثال الثاني الذي يعبر عن صورة مستوحاة
من بيئة حضرية ، جاء بالألفاظ لينة رقيقة تناسب طبيعة الحضرة وما هم فيه من
حلية ومتاع ، فقال تعالى :

(٢)

وَمَا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْنِخَاءَ حَلِيبَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ

وتدور المادة اللغوية التي كونت أساليب التشبيه وعناصره حول الماء النازل
من السماء - الأودية المختلفة المقدار التي سالت به والزبد الرابي الذي
احتله السيل عند جريانه وجيشانه .

(١) انظر النظم القرآني ، محمد الدبل ص ١٣٣ .

(٢) انظر المصدر السابق .

وتدور مادة التشبيه الثاني عن نشوء زيد يماثل الزيد الأول
المعادن التي يوقد عليها في النار ابتغاء الانتفاع بها لحليمة أو
مشاع .

وهذا التشبيه للحق والباطل وان كان يشترك في معنى عام
هو بقاء الحق وثباته وزوال الباطل واضمحلاله إلا أن كل صورة منه
تتميز بتناول جانب من جوانب هذا المعنى لم يتناوله الآخر :

- ١ - التشبيه الأول : يمثل الحق الذي نزل من السماء فطلقته
هذه الطائفة المؤمنة واستجابت له فتصدى لها أهل الباطل
بالتكذيب والإنكار وقد جاء التعبير عنه بالفعل الماضي في -
(أنزل) و (سمالت) و (احتمل) والذي يفيد تحقق ذلك
ووقوعه فهو تمثيل لصورة قامت وكلمت وتمت .
- بينما نجد التمثيل الثاني جاء التعبير عنه بلفظ المضارع
(يوقدون) الذي يصف الحق أو أهله وهم في هذه الحالة
التي يوقد فيها عليهم في صورة متجددة مستمرة كلما خبت
نارهم زادوها استعماراً . وما وراء ذلك من الجهد والمعاناة
والمكابدة والصراع المتجدد المستمر فهو يصف صورته متكرره في كل
زمان ومكان .

٢ - من أسرار التنوع أن الزبد الأول أظهرته حركة السيل فسي اندفاعه وقوة جيشانه .

والثاني أظهرته حركة الإيقاد على هذه المعادن في النار والغليان والانصهار فكان قوة الماء في اندفاعها تماثل قوة النار في إظهار الزبد وطرده .

٣ - من أسرار التنوع أن الشلين وان كانا يشتركان في

الماقية والنتيجة وهي زهاب الباطل وبقاء الحق

فَأَمَّا الزَّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ

لكنهما يختلفان فذلك الماء يستقر في منابعه وعيونه لينتفع

الناس به حياة اكل شيء وهذا المعدن تتخذ منه الحليقة

أو المتاع فكان نفع ذلك للروح إذ به حياة كل شيء

ونفع هذا للمعاش وما به قوام الحياة من حلية ومتاع .

هذا

٤ - من أسرار التنوع/التقابل في المعاني : ففي المثال الأول أجواء عاطرة

ندية تتناسب مع ظمأ القوم وخلق تلك الأودية التي تشمل

القلوب من الماء والحياة لجسها وجفافها .

وفي المثل الثاني : أجواء حارة شديدة الحرارة تتناسب مع صلابة هذه المعادن وقسوتها و مع شدة رغبة الناس في الانتفاع بها ما به قوام معاشهم وحياتهم الدنيا ، فناسب أن يكون هذا الجو الشديد الحرارة لتتصرف فيه هذه المعادن وتتخلص ما شابها وينتفع بها .

٥ - من أسرار التنوع أن : المثل الأول يصف حالة قوم استجابوا لله وقوم لم يستجيبوا ، لذلك أعقب التمثيل بقوله عز وجل :

لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا
لِرَبِّهِمُ الْحَسَنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَامُوا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا
وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِمْ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ
وَبِئْسَ الْمِهَادُ ①

بينما المثل الثاني يصف الحق وهو يوقد عليه وما وراء ذلك من المعاناة والجهد والمكابدة والصبر على هذا الإيقار ثم خلوصه منه نافعاً أعظم ما يكون النفع وأكمله وأتمه .

ولذلك ناسب ولاء م أن تأتي الآيات بعد ذلك تصف حالة
هو ء الذين صبروا ابتغاء مرضاة ربهم ولم ينقضوا الميثاق وما أعد لهم
يقول سبحانه :

الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ
بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (١)

الى قوله تعالى :

وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ
جَنَّاتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ
وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢)

تأمل قوله (يدخلون عليهم من كل باب) وكيف أحاط بهم
النعيم وأصبحت وفوده تغد عليهم من كل باب ، وقابل ما كان يحاط بهم

(١) الرعد / ٢٠ .

(٢) الرعد / ٢٢-٢٣ .

ويدخل عليهم من كل باب من كيد وفتن ومحن .

ثم تأمل قول الملائكة لهم والذي يتلاءم مع ما كانوا يعانونه

وصبروا عليه :

(١) سَأَلْتُكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ

والذين جانبوا الحق في التشيل الثاني ومن عناهم القرآن الكريم بقوله :

وَمَا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ

والذين تصفهم الآيات بشدة فرحهم بالحياة الدنيا وأقبالهم على متعتها .

يصح السياق القرآني بصفاتهم وما أعد لهم مقابل ما أعد للمتقين

يقول تعالى : وَالَّذِينَ يَبْغُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ

(٢)

مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوْصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ

أُولَئِكَ لَهُمُ الْعَذَابُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ

(١) الرعد / ٢٤ .

(٢) الرعد / ٢٥ .

تأمل اللمنة والطرود التي تتلاءم مع قوله تعالى :

قَالَ مَا آَلَ رَبِّي ذَهَبٌ جُفَاءً

وأما العثلان الآخران اللذان يصوران كلمة التوحيد وكلمة الكفر فتدور مادتهما وعناصرهما اللغوية المكونة لاسلوبيهما حول الشجرة الطيبة الموصوفة بالأصل الثابت والفرع العالي والاشمار الدائم.

والشجرة الخبيثة وما يتعلق بها من أحوال ومواصفات كاجتثاثها من فوق الأرض وعدم قرارها .

وهذان العثلان يشتركان مع العثلان السابقان في معنى عام هو بقاء الحق وثباته وذهاب الباطل واضمحلاله إلا أنهما يأتيان كنتيجة مترتبة على ما سبق .

١- فمن أسرار التنوع / يأتي تمثيل الإيمان والتوحيد بالشجرة الطيبة متناسقا^{أن} ومتناسبا مع تمثيل الحق بالماء الذي أنزل من السماء لأن الشجرة الطيبة هي ثمرة ذلك الماء السام الطاهر النقي الذي استقر في الأرض فأثمر وأينع فكانت ثمرة هذه الشجرة الطيبة في قلب المؤمن من كالتعبير بشجرة واحدة طيبة يمثل وحدة الرسالة ووحدة الغاية التي دعا إليها الرسل جميعا وهي المقصد الرئيسي الذي تدور عليه هذه السورة سورة إبراهيم .

فذلك الماء المبارك إنما عم الوجود ليرسخ جذور هذه الشجرة
الطيبة ويثبت أصولها فتورق فروعها وتؤتي أكلها بإذن ربها كل
حين كما أن هذه الشجرة تعبيري حي رائع للمتقين الذي وعد الله به
عباده المؤمنين :

وَيُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ (١)

وإذا كان الحق نزل ليثبت دعائم هذه الشجرة الإيمانية
الطيبة فإنه ولا شك يقطع جذور الشجرة الخبيثة شجرة الكفر والشرك
كما ذهب بذلك الزيد الطافى الرابي .
وبعد " أن ذهب بزيد الباطل من الشبه والشكوك التي طافت
فوقه في بداية دعوته أو خالطت معدنه ، ولكنه بعد رسوخه وثباته وتمكنه
في الأرض فإنه يجتث الباطل بجميع أصوله وعروقه ، وهكذا :

وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ

فلا ثبات لهم ولا استقرار .

الفصل الرابع :

المتشبهات التي تمثل أعمال الكافرين
وأسرار تنوعها .

المدخل :

تناول القرآن الكريم أعمال الكافرين في مواضع كثيرة منه يبين فيها أنها باظلة لاغية لا منفعة ترجو منها ولا خير فيها فهي حابطة مهما عظمت وكثرت .

وقد جاء هذا البيان على طريق الحقيقة دون تشبيه كما جاء عن طريق التشبيه .

وما جاء عن غير طريق التشبيه قوله تعالى :

وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِظُلْمَةٍ أَكَانُوا يَعْمَلُونَ ①

وبين سبحانه سبب احباطها وابطالها - وهو أنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر :

وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ ②

سواءً أكانوا مجاهرين بالكفر أو مبطنين ذلك كالمنافقين .

ومع ذلك فقد زينت لهم أعمالهم وحسنت في أعينهم حتى

تأدوا في ضلالهم وترددوا في غيهم .

(١) هود / ١٦ .

(٢) المائدة / ٥ .

قال تعالى :

(١) أَفَمَنْ لَمْ يَرْسُدْ سَبْعَ مِائَةٍ نَجْمًا

وقال : هَلْ تُحِيطُّ بِكُمْ بِأَلْسِنَتِنَا أَمْ لَنَا الذِّكْرُ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيهُمُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

(٢) وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِبُونَ صُنْعًا

كما بين القرآن الكريم أثر أعمالهم تلك على قلوبهم وكيف حجب

عنه نور الهدى والحق والإيمان .

خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى

(٣) أَبْصَارِهِمْ غَشَاةٌ وَهُمْ عَادَابُ عَظِيمٍ

كما جاء الحديث النبوي الشريف : يوء كذ ذلك ويقره وكيف

تنطبع الأعمال على القلوب فتحول بينها وبين التمييز بين الخير والشر

وتطمس فيها نور الفطرة .

(١) فاطر / ٨ .

(٢) الكهف / ١٠٤ .

(٣) البقرة / ٧ .

قال عليه الصلاة والسلام :

(تعرض الغن على العلوب كالحصير عودا عودا فأى قلب

أشربها نكت فيه نكتة سوداء وأى قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى

يصير على قلبين على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات

والأرض والآخر أسود مرابدا كالكوز مجخياً لا يعرف معروفا ولا ينكر

منكر إلا ما أشرب هواه (١)

وأما ما جاء في القرآن الكريم عن طريق التشبيه فقد ورد في

مواضع عديدة وسور مختلفة .

جاء في سورة إبراهيم :

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي سَمَاءٍ مَلَأَتْ بِسَآمِهِمْ كَمَا مَلَأَتْ كُرْمًا
أَشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَيْهِ شَيْئًا
ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿٥﴾

كما جاء في سورة النور :

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ
الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَوَّى وَّرَجَى هَدِيمًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ قُوفًا

(١) مختصر صحيح مسلم تحقيق ناصر الدين الألباني ص ٥٢٨ .

(٢) إبراهيم / ١٨ .

حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝ أَوْ ظَلَمْتَ فِي الْبَحْرِ لِحَيِّ يَعْنِيهِ مَوْجٌ
مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظَلَمْتَ بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ
يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرْمَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ

كما جاء وصف ذلك في سورة الفرقان :

وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنشُورًا ﴿٣٥﴾

ويلاحظ أن عناصر التشبيه التي كونت أساليبه هي :

الرماد - الريح - اليوم العاصف - / بقيعة - الظلمات -
سراب

البحر اللحي - وأحواله من ترادف أمواجه وكافتها - السحاب

الهباء المنثور .

ولكها يجمعها معنى عام هو فناء هذه الأعمال وظلالتها وأنها لا حقيقة

لها ولا منفعة فيها فهي لاغية مضمطة متلاشية ومع ذلك فإن لكل صورة

من صور التشبيه معرضا ومعنى تتميز بها تتناسب وتتلاءم مع السياق

الذي وردت فيه لأن لكل تشبيه في القرآن سياقاً جاء مطابقاً له وهذا

لا يحتاج إلى إثبات لأنه ثابت ببلاغة القرآن فضلاً عن إعجازه .

(١) النور / ٣٩ - ٤٠ .

(٢) الفرقان / ٢٣ .

وسنبدأ بسورة إبراهيم نقف على بعض أغراضها ومقاصدها
لأن مقصود كل سورة هاد إلى تناسيها كما ذكر الإمام البقاعي وهو المنهج
الذي ارتضيناه في دراساتنا هذه وسرنا عليه من بداية البحث .

قال تعالى :

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ
فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ
هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾

من أسرار المناسبة :

من مقاصد سورة إبراهيم - عليه السلام - تثبيت العقيدة في أصولها
الكبيرة الإيمان بالله ، الإيمان بالرسالة ، الإيمان بالبعث والجزاء ويكاد
يكون هدفها وهدفها الأساسي " الرسالة والرسول " ، فقد تناولت دعوة
الرسول وبينت وظيفتهم ووحدة رسالتهم .

وهاتان الحقيقتان اللتان تدور حولهما السورة الكريمة ، وهما
وحدة الرسالة والرسول تتناسقان مع اسم السورة وعنوانها الدال على مقصودها ،
فإبراهيم عليه السلام أب الأنبياء وإمام الحنفاء الذي حطم الأصنام
وحمل راية التوحيد وجاء بالحنيفية السمحة ودين الإسلام الذي بعث
به خاتم الأنبياء . (١)

وتتميز سورة إبراهيم عن غيرها من السور التي ذكر فيها الأنبياء
أن هاهنا معركة قائمة بين الرسل جميعا وبين الكفار ، وهو لاء تجمعهم
رسالتهم ووحدة دعوتهم ، وهو لاء يجمعهم بالعلم وجاهليتهم ، فكلاهما
على صعيد واحد على تباعد الزمان والمكان . (٢)

(١) انظر الظلال ٢٠٧٩/٤ وصفوة التفاسير ٢٠٨٩/٢

(٢) انظر في ظلال القرآن . ص ٢٠٧٩ هـ ٤

وإذا ما اقتربت من سياق الآيات الكريمة ، وأصفيت إلى ما يدور
بينهما من حوار ، راعتك حالتهم التي انتهوا إليها من الطفيان والعناد
والفساد وجراتهم على رسل الله واعتدادهم بقوتهم المادية .
يقول سبحانه :

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ
مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهَلِكَنَّ
الظَّالِمِينَ ۝ وَلَنُكِنِّيَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ
مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ۝

قال أبو حيان في البحر :

• ولما أقسموا على إخراج الرسل أو العودة في ملتهم ، أقسم
تعالى على إهلاكهم ، وأي إخراج أعظم من الإهلاك ، بحيث لا يكون
لهم عودة إليها أبداً . (٢)

تأمل كيف يأتي الوحي من السماء حين تطفئ الأمم على
رسلها لبيد مرطواغيت الكفر ، ويقطعها من جذورها ، ويثبت الذين
آمنوا ويمكن لهم في الأرض .

(١) الآية ١٣ - ١٤ من سورة إبراهيم .

(٢) البحر المحيط ٥ / ٤١١ .

قال تعالى :

وَأَسْفَقُوا خَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾
مِّنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَخْرَجُ عَنْهُ وِلْيَاقٌ
يُسْبِغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمُنِيرٍ ﴿١٧﴾ وَمِنْ وَرَائِهِ
عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٨﴾

ثم تأمل كيف يتناسب هذا العذاب الشديد الذي يسقى فيه الكافر من ماء صديد ، يمتلعه مرة بعد مرة ، فلا يكاد يستسيغه لقبحه ومرارته ، مع غلظتهم وشدتهم على رسل الله الأكرمين ، وما يلاقونه من أنواع الأذى والأقوال والأفعال ، ومحاولتهم إرجاع رسل الله فسيطتهم ، فأزاقهم الله طعم الكفر ، الذي استساغوه في الدنيا وحاولوا إكراه رسل الله على العودة فيه ، فليستسيغوه اليوم ، إن كانوا قادرين أو طعم أقوالهم وأفعالهم التي آذت رسل الله فما أشبهها بماء صديد .

(١) الآيات ١٥ ، ١٦ ، ١٧ من سورة إبراهيم .

ولكن العذاب ليس قاصرا على هذا فحسب ، بل إنه يتسع
ليشمل المكان والزمان ، فهذا الموت يأتيه من كل مكان ، ليستكمل عذابه
وما هو بسيت مستريح ، ثم من بين يديه على امتداد الزمان عذاب أشد
ما قبله ، وأغلظ يستقبله كل وقت . (١)

وهكذا ينهض التمثيل القرآني البديع في هذا الوقت العصيب
ليؤكد شدة هذا العذاب الغليظ ، بأن لا يدع لهم ملأ لأنه قد
يخطر ببال من يسمع عن شدة عذاب الكافرين أن لهم أعمالا تنفع وقربات
تشفع في تخفيف هذه الشدة عنهم . (٢) ولكن هيئات هيئات فأعمالهم التي
كانوا يأملون نفعها وشفاعتها أصبحت :

كَرَّمَا۟ أَشْتَدَّ بِهٖ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ
ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ

يقول الزمخشري * شبهها في حيوطها وذهابها هباء منثورا
لبنائها على غير أساس من معرفة الله والإيمان به وكونها لوجه برمان طيرته
الريح العاصف * . (٣)

-
- (١) أبو السعود ٥/٤٠ . بتصريف
(٢) انظر التحرير والتنوير ١٣/٢١٢ .
(٣) الكشاف ٢/٣٧٢ .

من أسرار اللغة والنظم :

قال تعالى :

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ
اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ
ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْعَبِيدُ ①

ركزت صورة التمثيل هنا على بيان عدم النفع
لأعمال الكافرين وأنها تذهب يوم القيامة بدها بحيث لا يمكن
استدراكها وأنى يستدرك الرماد الذي يمثّل الفناء والعدم، وإعادته
من جديد إلى ما كان عليه بحيث للحياة بعد موت وهذا ما لا يقدر عليه
إلا الله سبحانه وتعالى لذلك تكون حسرتهم أشدّ ولأولهم أنكس
والمثل يستعار للاصقة التي فيها غرابة. (٢)

(١) إبراهيم / ١٨٠

(٢) الكشاف ٢ / ٣٧٢

أى صفتهم وحالهم العجيبة الشأن أن أعمالهم كرماد اشتدت به الريح . (١)
ثم تأمل كيف جمع بين الذين كفروا وأعمالهم حيث شلبهم هذا

الوصف :

كِرْمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ

ولعل السر البلاغي وراء ذلك أن الانسان وعمله متحدان لا ينفصلان فإن
كان عمله رماذا فهو أيضا كالرماد لا وزن له وإن كان عمله سرايا فكذلك
هو لا ذكر له يخلد به :

* ولا نقيم لهم يوم القيامة وزنا * .

ولو قيل مثل أعمال الذين كفروا كرماد اشتدت به الريح لانطفأ

هذا المعنى .

كما أن وراء هذا الجمع :

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ

إشارة إلى أن كفرهم بربهم هو الذى تسبب في محق أعمالهم والعصف

بها .

(١) انظر أبو السعود ٥ / ٤٠٠ .

ثم وازن بين قوله تعالى في سورة النور * والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة *
وقوله في سورة إبراهيم * وشال الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد * وكيف قيد فـي
سورة إبراهيم كفرهم (بربهم) والذي تتجلى ربوبيته فـي
سياق السورة الكريمة ، وتتألق شمسها ساطعة مشرقة ، يقول تعالى :

الرَّكِّبَ إِلَيْهِ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ
رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ①

ويقول : فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهَلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ②

ثم يعظم تجليها في دعوة إبراهيم عليه السلام التي ترتفع لتقر الربوبية
وتعظم الأصنام .

رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ③

رَبِّ إِنِّي مِمَّنْ أَضَلَّنَا كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ④

رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ خَيْرٌ ذِي ذَرْعٍ ⑤

-
- | | |
|-------|---------------|
| (١) | إبراهيم / ٠١ |
| (٢) | إبراهيم / ٠١٣ |
| (٣) | إبراهيم / ٠٣٥ |
| (٤) | إبراهيم / ٠٣٦ |
| (٥) | إبراهيم / ٠٣٧ |

(١) رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ

(٢) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نَعْلَمُ

وكانها إيقاعات متواليات تقررهم بتحقيق الربوبية التي جحدوا

بها وكفروها . قال تعالى :

(٣) أَعْمَلْتُمْ كَبْرًا إِشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ

كرام - تأمل كيف أوما بالرماد إلى عملية الاحتراق لأن

الرماد ما يبقى بعد احتراق الشيء . (٤)

ثم تأمل ما وراء ذلك من السحق والإهانة والذلة لهؤلاء

الكافرين .

وفي تنكيه ما يوحي بكبرته وأنه رماذ عظيم مكدس مايدل

على كثرة ما حرق ووراء ذلك كثرة أعمالهم الخبيثة الفاسدة العنيفة على غير

أساس من إيمان بالله وابتغاء وجهه .

ثم تأمل تلك الحسرة البالغة حين يصبح ما كان يعجب به

الكافروسيباهي في أحلك ساعاته وأعسرها رماذاً . و (شد) الشين والبدال

(١) إبراهيم / ٣٧ .

(٢) إبراهيم / ٣٨ .

(٣) إبراهيم / ١٨ .

(٤) القرطبي ٩ / ٣٥٣ .

أصل واحد يدل على قوة في الشيء وفروعه ترجع إليه من ذلك شددت
العقد شداً أشده . (١)

”وَشَدَّ فُلَانٌ وَاشْتَدَّ إِذَا أَسْرَعَ“ . (٢)

لذلك جوز العلماء هذين المعنيين فقالوا أن الباء هنا للتعمية
أولاً للملابسة فهي إما بمعنى حطته وأسرت به أو بمعنى قويت بملابسه
حمله . (٣)

تأمل هذا وكيف تقوى الريح بحمل هذا الواهي المهيين الذي
لا وزن له وما وراء ذلك من شدة العصف وما وراء شدة العصف من غضب
وشدة عذاب .

ثم تأمل الفرق بين قولنا اشتدت به واشتدت عليه فقد تشتد
عليه وهو ثابت لا يتبدل .

(١) المقاييس من (شد) .

(٢) الراغب من (شد) .

(٣) انظر أبو السعود ٤٦/٥ ، وروح المعاني ١٣ / ٢٠٤ .

ثم تأمل كيف تتسع دائرة هذا العصف لتشمل اليوم كله
وذلك حينما أوقع التعبير القرآني الجليل العصف صفة لليوم فقال
أَشَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ^١ والعصف وصف للريح ولكن انتقال
هذه الصفة إلى اليوم في تراق بديع وإسناد مجازي يجعل الزمن كله
و كأنه عاصف . (١)

ثم تأمل كيف بين عزوجل الغرض من التشبيه وهو أنهم لا يقدر
على شيء ما كسبوا، وكيف يؤء كد عدم قدرتهم على الانتفاع بما كسبوا كما لا
يقدر أحد على الإمساك بهذا الرماد والذي اشتدت به الريح في يوم
عاصف.

فضلا عن إعادته إلى ماهيته قبل الاحتراق أي خلقه من جديد
فأى ضلال أبعد من ذلك .

وهكذا تأتي جملة :

ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ البَعِيدُ

تذبيلا جامعا لخلاصة حالهم . (٢)

(١) انظر الكشاف ٣٧٢/٢ البحر المحيط ٤١٥/٥، الرازي^{الغزير} ١٠٧/١٩ .

(٢) التحرير والتنوير ٢١٧/١٣ .

* والمراد بالبعد ضد القرب (الضلال البعيد) أي

الضلال الذي يصعب الرجوع منه إلى الهدى تشبيهاً بمن ضلَّ عن مَحَجَّةِ الطَّرِيقِ بَعْدًا مَتَّاهِيًا فَلَا يَكُنُ يَرْجُو لَهُ الْعُودَ إِلَيْهَا . (١)

ثم تأمل التناسب البديع بين الضلال البعيد والمراد الذي طيرته

الرياح العاصف بعينها ، والمراد : هو تشبيه أعمال الكافرين / حبوطها

وزهابها هباءً منثوراً لأنها غير مبنية على أساس صحيح من الإيمان بالله والعمل مخلصاً لوجهه الكريم برما طيرته الرياح العاصف فذهب بداراً ولم يبق له أثر . (٢)

ثم تأمل العناصر التي كونت أسلوب التشبيه من الرماد والرياح

الشديدة واليوم العاصف وكيف تنافرت تنافراً شديداً وتضادات لتعبر بتنافرها وتضادها عن تيدر تلك الأعمال هباءً منثوراً وكيف بنيت عناصر التشبيه ومواده على العبالغة والجزالة والقوة التي تتناسب مع شدة الموقف وهوله .

فقوله (اشتدت) فيها من الجزالة والقوة ما يتلاءم مع قوة

العصف وقوة الريح .

(١) الراغب مادة (بعد) .

(٢) انظر الكشاف ٢ / ٢٧٢ .

وفي تنكير(رماد) ما يوحي بالكثرة الكثيرة من الرماد التي تناهت
وعظمت مما يزيد الموقف والشهد إثارة وحدة ويوحى بالهلاك والغناء والضياع .
وفي ذلك الحسرة العظيمة والموعظة البليغة .

ثم تأمل هذا التناسق والتناسب العجيب بين هذا المشهد
المكفهر الذي يكاد يفض فيه الإنسان فلا يبطنع هواً ممزوجاً برماد ولا
يطيق فتح عينيه أو التنفس في هذا المحيط الهائج حوله وكيف يتلاءم
هذا مع العذاب الشديد الذي يحاط بالكافر في جهنم يتجرعه ولا يكاد
يستسيغه و تغص به حلوقهم والموت محاط بهم من كل جانب .

قال تعالى :

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا
كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يُحْسِبُهُ
الظَّمْعَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا
جَاءَهُمْ لَمْ
يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ
اللَّهَ عِنْدَهُ فُوقَهُ
حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ
الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كُظُمْتُ
فِي بَحْرٍ لَّجِيٍّ يَغْشَاهُ
مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ
مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ
سَحَابٌ ظَلَمْتُ
بَعْضَهَا فَوْقَ
بَعْضٍ إِذَا
أُتْرَجَ يَدُهُ لَمْ
يَكْدِرْهَا وَمَنْ لَمْ
يَجْعَلِ اللَّهُ
لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ
مِنْ نُورٍ ﴿٤٠﴾

من أسرار المناسبة :

على هذا النور الرباني المتجلي في الأحكام والآداب والفضائل
الإنسانية التي تزخر بها سورة النور يقوم المجتمع المؤمن من الطاهر
الغضيف البصر الحافظ الفرج الصادق اللسان الحسن الظن المحصنات
نساءه المفيدات الطاهرات أزواجه المستضيئون أفرادهم بنور التشريع
الإلهي في كل جانب من جوانب حياتهم الفردية والجماعية فهو نور على نور
نور فطرته ونور منهجه وما بقا ذلك النور واستمراره وتضاعفه إلا لصلتهم
بمصدر النور وترددهم عليه بالقدو والآصال :

قِي يُؤْتِي أَمْرًا لَللَّهِ أَنْ تَرْفَعُ وَيَذْكُرُ فِيهَا اسْمُهُ

فعلنى أى شيء تقوم أعمال الكافرين الذين كهروا هذا النور وحالوا بينه
وبين قلوبهم ، على أى شيء تقوم أعمالهم وإن حسنت ظاهرا وهم لا نور
لهم من منهج يحتكمون إليه أو تشريع يضبطهم أو فضائل تقومهم وتزكيهم ؟
إن القلب الذى لا ينفذ إليه النور الذى ملا السموات والأرض
قلب قد ران عليه الكفر ومن ثم فأى عمل يصدر عنه فهي أعمال ضالة حابطة
لا نفع لها مهما عظمت وحسنت في أعينهم لأنها لا أساس لها من إيمان
بالله واليوم الآخر.

ثم تأمل كيف وازنت الآيات بين دلائل الوحدة والوحدانية والإيمان التي بلغت الغاية في الظهور ، والبيان مع أديان الكفرة وأعمالهم ، والتي هي في نهاية الظلمة والخفاء ، وبالمقارنة بين الشلين يتضح الحق لدى عينين . ولهذا سأوقف أمام هذا الشل بشيء من التحليل والتفصيل حتى يتبين والتقابل لنا التناسب البديع بين تركيب هذا الشل و مثل الذين كفروا و تتضح

المعاني .

قال تعالى : **اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِثْقَاتٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجْجَةٍ الزُّجْجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾**

ففي هذا الشل البديع يمثل سبحانه لنوره في قلب عبده المؤمن من
بكوة في الحائط لا منفذ لها ليكون أجمع للضوء وقد وضع فيها سراج ثابت
سماطع وأتى التشيل على هذه الصورة لقربها وشولها في الحسن والتصوير
ولكونها أعظم ما يتصوره البشر من الإضاءة والإنارة وإلا فإن نور الله أعظم.

ثم انه سبحانه لما ضرب مثلا لقلب المؤمن وما فيه من الهدى والعلم
كالقنديل ، ذكر محلها وهي المساجد التي هي أحب البقاع إلى الله فسي
الأرض ، وهي بيوت التي يعبد فيها ووحيد . (١)

فيزيد ذلك من تلاتها وبهاؤها وشدة إنارتها . فله ما
أضوأ هذه القلوب المنيبة في بيوت الله الضيقة لأهل السماء إضاءة
النجوم لأهل الأرض ..

(١) انظر ابن كثير ٣ / ٢٩٥ .

ثم تأمل وتابع هذا المدد الرباني والزااد الإيماني بالقدو
والآصال لهذه القلوب التي لا تغتر عن تسبيح الله وعن تنزيه الله فأنسى
لقلوب كهذه أن تلهيها تجارة مهما عظمت أوبيع عن ذكر الله .

إنه التثبيت الذي يحرص عليه :

رِبَالٌ لَا تُلْهِمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ
الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (١)

فيكون خوفهم هذا سببا للجزاء على أعمالهم بأحسن الجزاء

وللزيادة فوق ذلك من واسع فضله بدون حد ولا عد .

لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ
بِغَيْرِ حِسَابٍ

وفي مقابل ذلك النور الذي أشرقت له الظلمات وملا الأرض

والسموات ، وغمر قلوب العابدين فأضيئت به بيوت الله تجد سرايا واهما

وظئنا حارقا وظلاما داسا ، وخوفا مرعبا وضلالا وغيا وظلمات بعضها فوق

بعض تحول دون أن ينفذ هذا النور إلى قلوب الذين كفروا .

وهذه طريقة القرآن البديعة في المقابلة بين المعاني الغريبة

حتى تأنس بها النفوس وتقرفي القلوب .

قال تعالى :

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعِهِ يَجْسِبُهُ
الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ
حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ أَوْ ظَلَمْتَ فِي الْأَرْضِ نَشْأَةٌ مَوْجٍ
مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ وَظَلَمْتُ بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ
يَدَهُ لَمْ يَكْتُمِبْهَا وَمَن يُجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٥٢﴾

وقد ذكر أهل العلم رضي الله عنهم في أسرار المناسبة وجوها نستضيء بها

في فهم آيات التمثيل ولطائفه .

قال صاحب الكشاف : " شبه أعمالهم أولا في فوات نفعها

وحضور ضررها بسراب لم يجده من خدعه من يفيد شيئا ولم يكفه خيبة

وكندا أن لم يجد شيئا كغيره من السراب حتى وجد عنده الزانية تعتله

إلى النار ولا يقتل ظمأه بالماء، وشبهها ثانيا في ظلمتها وسوادها لكونها

باطله وفي خلوها عن نور الحق بظلمات متراكمة من لَجِّ البحر والامواج
والسحاب * (١)

وقال الرازي : " لما بين حال المؤمن وأنه في الدنيا يكون في

النور وبسببه يكون متمسكا بالعمل الصالح ثم من أنه في الآخرة يكون
فائزا بالنعيم المقيم والثواب العظيم أتبع ذلك بأن بين أن الكافر يكون
في الآخرة في أشد الخسران وفي الدنيا في أعظم أنواع الظلمات وضرب
لكل واحد منهما مثلاً * (٢)

فقال الطبري : " ظنوا أن أعمالهم صالحة وأنهم سيرجمون

منها إلى خير فلم يرجعوا منها إلا كما رجع صاحب السراب فهذا مثل
ضربه الله . . . ومثل أعمال هؤلاء الكفار في أنها عملت على خطأ وفساد
وضلاله وحيرة من عملها فيها وعلى غير هدى مثل ظلمات في بحر
لجج * (٣)

-
- (١) الكشاف، ٣، ٧٠ / .
(٢) الفخر الرازي، ٢٤٠ / ٧ .
(٣) الطبري، ٨ // ١١٥ - ١١٦ .

وقال صاحب التحرير والتنوير : * لما جرى ذكر أعمال المتقين

من المؤمنين وجزائهم عليها بقوله تعالى :

لِيَسْجُدَ لَهُ فِيهَا بِالْأَغْدُوِّ وَالْأَحْصَالِ رِجَالٌ

إلى قوله :

الْجِبْرِ بِهَمْزٍ اللَّهُ أَحْسَنُ مَا عَمِلُوا وَزَيَّدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ
بِغَيْرِ حِسَابٍ

أعقب ذلك بضمه من حال أعمال الكافرين التي يحسبونها قربات عند
الله تعالى وما هي بمغنية عنهم شيئا على عادة القرآن في إرداف البشارة
بالنذارة فعطف حال أعمال الكافرين عطف القصة من القصة * (١)

(١) التحرير والتنوير ١٨/٢٥٠

من أسرار اللغة والنظم:

قال تعالى :

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالَهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يُحْسِبُونَ
الزَّمَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ قُوفًا
حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ
(١)

يقول الرمانسي في تعليقه على هذا التشيل : " فهذا بيان قد أخرج
ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه وقد اجتمعنا في بطلان التوهم مع
شدة الحاجة وعظم الفاقة ". (٢)

تأمل دقة إحاطته بوجه الشبه ، وهي عبارة لوجازتها ودقتها
وسدادها ، غلبت عقول القوم فكرروها في كتبهم . (٣)

ثم تأمل كيف نظر الرمانسي إلى المعنى وميز جزئيه وبين أن أحد
الجزئين يدرك بالعقل والآخر يدرك بالحس وأن هذا الارتقاء من المعقول
إلى المحسوس فيه توضيح أشد وإظهار أظهر وأمكن ثم استخلص الرمانسي
من التشبيه قصة ذى وهم رفعت شدة الحاجة وعظم الفاقة إلى أن يوغل في
وهمه حتى تجسم له الباطل وكل ما تراءى له من وهم في صورة سراب ببيعة
يراه حقيقة ويظنه أملاً نافعا متحققا ثم لا يلبث أن يكدر ^{وراء} ويلهث/ هذا الوهم
حتى يسقط في يديه .

-
- (١) النور / آية ٣٩ .
(٢) النكت في إعجاز القرآن للرمانسي ضمن ثلاث رسائل في إعجاز
القرآن ص ٨٢ .
(٣) انظر الإعجاز البلاغي ، د / محمد محمد أبو موسى ص ٨٦ .

ثم تأمل كيف بدأ التمثيل بقوله : وَالَّذِينَ كَفَرُوا . جملته مسندا إليه أولا ثم بنى عليه مسندا آخر وهو أَعْمَالُهُمْ . وكلاهما عنصر مقصود في التمثيل .

يقول صاحب التحرير والتنوير : " ولم يجعل السند إليه أعمال الذين كفروا من أول وهلة لما في الافتتاح بذكر الذين كفروا من التشويق إلى معرفة ما سيذكر من شؤنهم ، ليتقرر في النفس كمال التقرر ، وليظهر أن للذين كفروا حظا في التمثيل بحيث لا يكون الشبه أعمالهم خاصة " . (١)

تأمل إلى هذه اللمحة الرائعة التي نبه إليها ابن عاشور حين أشار إلى أن للذين كفروا حظا في التمثيل .

وراء ذلك أن الآية الكريمة لم تفصل بين العمل وصاحبه بل صاغت صياغة واحدة لأن الإنسان هو عمله فيه ينفث طبيعته وروحه وكل ما يختلج في نفسه ويمتصر في قلبه فإن كانت أعمالهم سرايا فلا أنهم هم أنفسهم أظلمت لهم هواء خالية من كل حق وإن كانت أعمالهم ظلمات فلا أنهم هم أنفسهم كهف من كهوف هذه الظلمات لا ينفذ إليها نور الحق .

(١) التحرير والتنوير ١٨ / ٢٥١ .

وإن كانت أعمالهم رمادا فلا أنهم هم حياتهم رماد إنى تتقطع
عيونهم وتزهق أرواحهم ولا يبقى لهم ذكر طيب ظاهر . كل هذه الممانى
وغيرها يمكن أن نستوحىها من قول ابن عاشور (إن للذين كهروا حظا في
التشيل) .

وفي التعبير بالموصولية **وَالَّذِينَ كَفَرُوا** إيحاء إلى هذه الحالة
التي حجبت عن قلوبهم ذلك النور الذي ملأ السموات والأرض والتي كانت
سببا في نيلهم هذا الجزاء .

أعمالهم : (**الْعَمَلُ يُسْتَعْمَلُ فِي الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَالسَّيِّئَةِ**) (١)
كسراب : (**وَالسَّرَابُ الْإِلْمَاعُ فِي الْغَفَاةِ كَالْمَاءِ وَذَلِكَ لَا نَسْرَابَهُ
فِي مَرَأَى الْعَيْنِ وَكَأَنَّ السَّرَابَ فِيمَا لَا حَقِيقَةَ لَهُ**) . (٢)
بقعمة : **الْقِعْمُ وَالْقَاعُ السُّتَوَى مِنَ الْأَرْضِ جَمْعُهُ قَيْمَانٌ
وَتَصْفِيرُهُ قُوَيْعٌ** . (٣)

تأمل هذا وكيف مثلت أعمالهم بسراب عظيم شديد اللعان
سحر أبصارهم وخيل إليهم أنه ماء يجري وينساب .

-
- (١) الراغب مادة (عمل) .
(٢) الراغب مادة (سرب) .
(٣) الراغب مادة (قيع) وانظر الكشاف ٣ / ٦٩ .

ثم تأمل شدة هذا الوهم الذي غلب عليهم وسحر أبصارهم ،
وما يؤكدهم أنه وهم لا حقيقة له قوله تعالى : **كَسْرَابٍ بِقِعَعَةٍ** ،
والقِيعَةُ: الأرض المنبسطة المستوية التي لا يتوهّم فيها أن تسك الماء أو
تثبت الكلا .

لقوله عليه الصلاة والسلام : (**إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تَسْكُ مَاءً وَلَا**
تَثْبُتُ كَلَاءً) (١) الحديث

وفيه إشارة إلى قلوب المبطلين، وهو مثل ضربيه عليه الصلاة والسلام
لمن لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسل به .
وما يدل على مبلغ وهمهم أنه سراب في وضوح النهار وعند
اشتداد الضوء أي حين لا تخفى حقيقته ولا يلتبس أمره ولا مجال للوهم
ثم تأمل كيف يتعاقد هذا الوهم ويتضاعف ويقوى بترادف هذه الصفات
والقيود التي تزيد من حدته وقوته .

فهو سراب بقيمة (يحسبه الظمان ماءً) .

ومن معاني حسب : (العد ، تقول حسبت الشيء أحسبه

حسباً وحسباناً قال الله تعالى **الْشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حَسْبَانِ** (٢) ،

(١) مختصر صحيح البخاري للإمام زين الدين أحمد الزبيدي الحديث رقم ٧٠
ص ٤٠ .

(٢) سورة الرحمن / آية ٥٠ .

ومن قياس الباب الحِسَابُ الظَّنُّ ، والمعنى واحد لأنه إذا قال حسِبته
كذا فكأنه قال هو في الذي أعدّه من الأمور الكائنة . . . ومن الباب الحَسَبُ
الذي يعدُّ من الإنسان (٢) .

(وفلان لا حَسَبَ له ولا نَسَبَ وهو ما يحسبه ويعدّه من مفاخر
آبائه وفلان لا يحسب به أى لا يعتمد به) (٢) .

والتأمل لهذه المادة وما تدور حوله ، يدرك قول علمائنا

(رضي الله عنهم) حين قالوا : إن المراد بأعمالهم (التي هي من أبواب
البر كصلة الرحم وفك العنائة ، وسقاية الحاج وعمارة البيت وإغاثة الملهوفين
وقرى الأضياف ، ونحو ذلك ما لو قارنه الإيمان لاستتبع الثواب) (٣) .

فهي أعمالهم (التي كانوا يعتمدون عليها أقوى اعتماد ، ويفتخرون
بها في كل واد وناو) (٤) .

لذلك أبطل سبحانه حسابهم حين قال :

أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ (٥)

-
- (١) المقاييس مادة (حسب) .
(٢) الأساس للزمخشري مادة (حسب) .
(٣) أبو السعود ١٨٦/٦ وانظر روح المعاني ١٨٠/١٨
وانظر الزمخشري ٣٧٢/٢ .
(٤) روح المعاني ١٨٢/٢٨ .
(٥) سورة التوبة / آية ١٦ .

وربما يؤء كء هذا الوجه اللامع الحسن الذى يشبه الماء وهو
لا حقيقة له منظر هذه الاعمال الحسنة النافعة للناس، وهي لا أساس
لها من إيمان بالله واليوم الآخر.

ثم تأمل كيف يبلغ الوهم الغاية في الظهور، ويقوى الحساب
وتأكد في عيني ظمان، بلغ به العطش أشده ومنتهاه *
وهذا ما أحس به الرماني واتقد في قلبه، فأدركه واستطعمه
حين قال : (ولو قيل: يحسبه الرائي ماء ثم يظهر أنه على خلاف
ما قدر لكان بليغاً، وأبلغ منه لفظ القرآن، لأن الظمان أشد حرصاً عليه
وتعلق قلبه به) . (١)

تأمل شدة ظمئه، وحرارة جوفه المتقدة، وحرقة نفسه المتاعسة
إلى ما يبرد غليلها، ويطفى لهيبها، وهو في هذه الصحراء الجرداء القاحلة،
وكيف تنعكس هذه الرغبة الجامحة، والتوق الحارق، على هذا السراب والوهم
فيراه (ماء) عظيماً وفيراً سائغاً للشاربين، وفي ذلك إشارة إلى خداع
النفس بعد خداع البصر .
والنفس لا تخدع إلا عند غياب العقل، والمقل لا يفيب إلا عند
غلبة الشهوة وطغيانها واستبدادها .

(١) النكت في إعجاز القرآن للرماني ضمن ثلاث رسائل في إعجاز
القرآن ص ٨٢ .

قال تعالى : **حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ الْمَوْتُ مِمَّا جَاءَهُمْ شَيْئًا** (١)

ثم تأمل كيف طوت (حتى) هذه الرحلة الشاقة ، والمعاناة

الطويلة التي لجهده فيها الظماً ، وحفزه اليها الأمل - فأشار إلى نهايتها

هذه الرحلة ولوغ الغاية وأى غاية . . . " تلك الغاية التي أحالتها " إذا "

من الخبر إلى تحقق الوقوع ، حين ربطت العدم بالسعي ، وجعلته

جواباً ونهاية له ، فأحكمت من أسر الكلام ، وشدته تلاحمه ، ودقة سبكه

وعقدت آخره على أوله ، وجعلت بعضه أخذاً يحجز بعض .

ولو قيل **حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْمَوْتُ مِمَّا جَاءَهُمْ شَيْئًا** ، لانحلت عقدة الكلام ،

وانطفأ وهجه ، وفي ذلك إيحاء إلى بلوغه غاية الضعف والمجز ، والتهاك ،

وشدته التخازل ، والإعياء ، حتى لم يبق فيه بقية من قوى ، ثم في تلك

اللحظات الحالكه لم يجده شيئاً . (٢)

ثم تأمل كلمة (شيئاً) والتي جعلته عدماً مطلقاً ليزيد من تحرقه

ولو عنته وهذه الهاء في (يجده) والتي نصت على الأمل المنشود ، وصيرته

عدماً لتبهيء الكلام بعد ذلك لظهور الحق الذي لا مرية فيه ، ولا وهم

يمتريه وهو قوله **وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ** (٣)

(١) النور / آية ٣٩ .

(٢) الإعجاز البلاغي ص ١٠٣ (بتصرف) .

(٣) المصدر السابق .

والأصل وجد عذاب الله وجزاءه ، ولكن التعبير أفاد أنه وجد
ذا الجلال سبحانه ، وفي ذلك من الرهبة ما فيه ، وخاصة أن هذا الكافر ينكر
وجود الله ، ثم انظر إلى هذه الفا (ففاه حساب) وما تشير إليه من
سرعة الكفح ونزول العذاب ، ثم انظر إلى إسناد التوفية إلى ضمير
ذي الجلال (الله) وهو الذي يتولى تعذيبه بنفسه ، وفيه من الدلالة
على شدة الغضب ما فيه ، ثم تأمل كلمة (حساب) وفيها من الإنصاف ما
فيها ، وكل ما أشار إليه الكلام من الرهبة وسرعة المكافحة بالعذاب وشدة
الغضب ليس فيه مجاوزة ، وإنما هو بحساب دقيق . (١)

(٢) **وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ**

وهكذا الكفر يحق كل عمل وإن كان من باب الخير والإحسان لأن

كل عمل لا يزيه الإيمان فهو أشبه بالسراب .

(١) الإعجاز البلاغي ص ١٠٣ (بتصرف) .

(٢) النور / آية ٣٩ .

أَوْ كَظْلَمَاتٍ فِي بَحْرِ لَيْسَ يَعْشَهُ مَوْجٌ
مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظَلَمْتُ بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أُخْرِجَ
يَدُهُ لَمْ يَكْدِرْهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ (١)

وقد ذكر أهل العلم لـ "أو" وجوها فقالوا :

إنها إذا جاءت في عطف التشبيهات تدل على تخيير

السامع أن يشبه بما قبلها وما بعدها . (٢)

فمفعول كسراب بقيمة في كونها لاغية مضحكة لا منفعة لها ولا شرة

ترجى منها .

أو كظلمات في غلورها من نور الحق وحيلولتها بين القلب وبين ما

يهتدى إليه . (٣)

أول التنوع ، وذلك بالنظر إلى أعمالهم الحسنة التي يعتمدون عليها

ويعتمدون بها ويفتخرون وما هو إلا حسن ظاهر كسراب أو أعمالهم القبيحة

من الاعتقادات الباطلة والأعمال الفاسدة التي ليس فيها شائبة خيرية يفتر

بها المفترون فهي كالظلمات . (٤) أو للتقسيم فهي كالسراب في الآخرة

لقوله تعالى وَوَجَدَ اللَّهُ

(١) النور/ آية ٤٠ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ٢٥٤ / ١٨ .

• وانظر الفخر الرازي ٨ / ٢٤ وحاشية الشهاب ٦ / ٣٨٩ .

(٣) انظر الكشاف ٣ / ٧٠ .

(٤) انظر (أبو السعود) ٦ / ١٨١ .

وكالظلمات في الدنيا لقوله تعالى :

(١)

وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ

والتأمل لهذه الوجوه لا يجد بينها تضارب بل في ذلك إثراء للمعنى وتكثير للفائدة ، ويمكن أن نقول أنه سبحانه لما ذكر حال المؤمن من وآله ، ذكر حال الكافر وخسارته وضرب لذلك مثلين :

الأول : لعملة الظاهر الحسن، الذي يظن فيه النفع بالسراب

الخادع الذي يظن فيه الحياة والبقاء، ثم ما آل إليه حاله من الخيبة ، واضمحلال العمل عند شدة حاجته، وعظم فاقتة، فهو مطع مطع يعقبه مقطع مؤيس .

والمثل الثاني - لاعماله الباطلة الفاسدة الخالية من نور الحق،

وكيف تنطبع آثارها على قلبه وتتلبيس به .

فهي أعماله التي حجبت في الدنيا عن رؤية طريق الحق ،

وذلك لشدة ظلمتها وتغشيتها للقلوب .

ثم تأمل وتابع معاني التشميل فجلال نظمه، وبديع معناه

في أن ينقلك من هذه الصحراء القاحلة، والسراب الواهم، والظلم الحارق، والكد

والمعاناة ، والهول الرهيب ، وكل ما تشل وترآى من وهم في وضج النهار

وشدة الضوء إلى محيط ينطفيء فيه ذلك الوهج المتألق، ويتلاشى معه

ذلك السراب الخادع ، فيبتلع خيالك ظلامه ووحشته، ويكاد يحاط

بأنفاسك ، وأنت تدافع ظلمات مجيبة الصفة، شديدة الظلة ، تخرج

عن المعتاد والمألوف من ظلمة الناس ، فجمع الكرة فيها يوحى بشدة

ظلمتها وتراكبها وتراكبها، فهي ظلمات كثيرة أو عظيمة بعضها فوق بعض . (٢)

(١) انظر الفخر الرازي ٠٨/٢٤

(٢) انظر البحر المحيط ٠٤٦٢/٦

وما يزيد في غرايتها وعمدها في الصفة أنها ظلمات في بحر
لجبي بعيد الغور ، شديد العمق ، أرأيت إلى عمده في الغور ، وما وراءه
من تزايد كثافة هذه الظلمة وتراكمها . كما أن هذا القيد يفيد بيان
أثر أعمال الكافرين على قلوبهم لأن الظلمة لا تظهر إلا بأن تنطبع
في شيء ، لذلك قال (فِي بَحْرِ لَجِّ) . (١)
تأمل هذا وقارنه بقوله عليه الصلاة والسلام :

(تعرض الفتن على القلوب عودا عودا فأيا قلب أشربها ،
نكتت فيه نكتة سوداء . .)

(" ولج " : من اللجاج التماذى في العناد ، في تعاطي
الفعل المزجور عنه وقد لجح في الأمر لجاجا قال تعالى :
* وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرِّ الْجَوَانِي
طَفْيَانِهِمْ يَعْصُونَ * . (٢)

وقوله :

(٣) بَلِ الْجَوَانِي عَتَوْا وَنَقُورِ

(ومن الباب لجاج البحر وهو قاموسه ، وكذلك لجمته لأنه يتردد
بعضه على بعض . . ويقولون في فؤاد فلان لجاجة ، وهو أن يخفق لايسكن
من الجوع وهو من اللجاج والتجاج الظلام اختلاطه وهو شبه بالتجاج
البحر وكل هذا يدل على أن ترددهم في طغيانهم وإيغالهم فيه حال بين
قلوبهم وبين نور الحق وهدايتها .

(١) انظر التحرير والتنوير ١٨ / ٢٥٥ .
(٢) سورة المؤمن / ٧٥ .
(٣) سورة الملك / ٢١ .

ثم تأمل شدة هذه الظلمات في قلب لا يدرك له قرار، تمور
وتتردد في حركة دائية، لا تعرف السكينة .

ثم تأمل كيف يتضاعف المعنى، ويتكاثف، بترادف هذه الصفات
والقيود ، وللاحوال التي تزيد المعنى وفرة، وغزارة وثراء .

فهي ظلمات في بحر لحي ، يفشاه موج من فوقه موج من فوقه
سحاب، وقوله ^{بإيششاه موج} أي يغطي ذلك البحر ويستره بالكليسة
موج عظيم، هائل في حركة دائية متجددة لا تنقطع .

تأمل هذا الموج المضطرب ، وكلما عظم عظمت حركته، واضطرابه
وكيف أسدل على هذه الظلمات أغشية ، ضاعفت من شدة ظلمتها .

وكيف تتعاقب هذه الأمواج ، وتتلاطم ، وتتعالى ، ويركب بعضها
بعضاً ، فتضاعف شدة الظلمات، وتقوى، وتتحقق في النفس أنها ظلمات لا
بصيص فيها من نور ، إذ يبعد كل البعد أن ينفذ فيها بصر . (١)

(والبحر اللحي يكون قعره مظلماً جداً ، بسبب غمورة الماء ،

فإذا ترادفت عليه الأمواج ، ازدادت الظلمة فإذا كان فوق الأمواج سحاب،
(٢)

بلغت الظلمة النهاية القصوى ، فالواقع فيه يكون في نهاية شدة الظلمة) .

فقوله تعالى (من فوقه سحاب) فيه إيحاء إلى غاية تراكم الأمواج وتضاعفها
حتى كأنها بلغت السحاب . (٣)

(١) انظر نظم الدرر ١٢ / ٢٨٠ .

(٢) الفخر الرازي ٨ / ٢٤ .

(٣) انظر روح المعاني ١٨ / ١٨٣ .

تأمل هذه الحركة التخيلية الرائعة، التي يتابع فيها الخيال والفكر تلك الاغشية ، يتجدد حدوثها ، ويتوالى أسدالها، في تتابع بديع، وتناسق عجيب ، حتى كأنها تبلغ في تراكمها عنان السماء .
ثم تذوق هذا التلاحم، والتراحم، والتهاج . بين عناصر التشكيل وكيف تتشارب معانيه .

فقله (سحاب) ليس المراد به سحاب مطر ورحمة ، بل هو سحاب مظلم حجب مصدر الضوء الخارجي ، فبيلغت الظلمات غايتها في كمال شدة الظلمة . (١)

قال تعالى :

ظَلَمْتُ بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ

ولحذف حرف الجر هنا - فلم يقل (ظلمات بعضها من فوق بعض) -
موقع دقيق أفاد شدة تراكم الأمواج حتى استغرقت الجهة التي ينفذ منها الضوء ، فحالت كافتها وشدة ظلمتها دون ذلك .
والمراد (بظلمات) هنا غير المراد بها في قوله "أو كظلمات" ،
ها هنا جمع أنواع ، وهناك جمع أفراد من نوع واحد . (٢)

فهي ظلمات من البحر والأأمواج والسحاب .
وراء ذلك توزع قلبه وبلوغه غاية الضعف والحيرة والتخبط والتردد والتمزق والاضطراب .
وهو يصارع هذه الظلمات المتراكمة المتنوعة التي تناوشه من كل جانب .

(١) انظر (أبو السعود) ٦ / ١٨١ .

(٢) التحرير والتنوير ١٨ / ٢٥٦ .

ثم تأمل كيف يؤكّد شدة هذه الظلمة يقول تعالى :

لِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا

وكيف حَصَّ الإِخْرَاجَ بِالْيَدِ لِأَنَّ الْيَدَ هِيَ أَصْلُ الْجَوَاحِ الَّتِي

يَتَوَلَّى بِهَا الْفِعْلُ (١) .

(٢) (وهي أقرب ما يرى إليه) .

(٣) (وذلك لمن ابتلى بهذه الظلمات)

وقوله تعالى ﴿ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا ﴾

لم يكد (يقتضي بحسب الوضع نفي مدلول كان ، فإن مدلولها

المقاربة ، ونفي مقاربة الفعل يقتضي عدم وقوعه بالأولى) . (٤)

أى (فانه لشدة الظلمة لا يمكنه رؤية يده التي كانت نصب

عينه) . (٥)

ووراء ذلك إن عمله عدم لا وجود له ، لأنّ العدم كله ظلمه وهو

لا يرى إلا ظلاما داسا ، فالعمل الذى يبنى على هذه الظلمات ، ويخرج

فيها لا يقرب أن يكون له وجود أو أهلية فضلا عن أن يكون له . (٦)

وفي هذه إشارة إلى أن الحامل لهم على رؤية السراب ماء أو

على تخيل ذلك الوهم وظنهم النفع فيه هو عدم رؤيتهم الداخلية

بسبب هذه الظلمات . (٧)

(١) انظر الراغب مادة (يد) .

(٢) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى ٣٩٠/٣ .

(٣) انظر (أبو السمود) ١٨٢/٦ .

(٤) انظر التحرير والتنوير ٥٥٧/١ .

(٥) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى ٣٩٠/٣ .

(٦) نظم الدرر ٢٨٧/١٣ .

(٧) انظر المصدر السابق .

(١) لأن (قيام الأمور وظهورها كل ظهور إنما هو بالنور)

(٢)

وَمَنْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ

تذييل بديع للتشيل جي* به لتقرير ما أفاده التشيل من كون

أعمال الكفار لا حقيقة لها ولا وجود ، وإنما هي سراب أو ظلمات . (٣)

ويقول الفراء : هذا مثل القلب الكافر أي إنه لا يعقل ولا

يبصر . (٤)

ثم تأمل العناصر التي كونت أسدوب التشبيه هنا .

وهي السراب والقيمة والظمان وما بينها من التجاذب والتقارب

الشديد الذي يؤكده الوهم وضاعفه ويزيد الحاجة ويلهبها أي يقوى المعنى

المراد تقويته وتأكيده وهي شدة الحاجة لتعظم الفاقة .

تأمل كيف تعلق الظامي* بذلك السراب وبعذبه إليه وسعى

إليه سعيا حثيثا لاهثا مجهدا - وما وراء ذلك من قوة الشد والجذب

والإغراء والوهم .

كما نلح هذا التجاذب الشديد والتقارب العجيب والتناسق

بين عناصر التشيل الآخر للظلمات والبحر اللجي والموج الذي يخشاه موج

والسحاب المظلم واليد التي لا ترى في تلك الظلمة .

وكيف يؤكده هذه العناصر كافة الظلمة وعمقها وغورها وتضاعفها

وتراكبها . . وهكذا .

وفي هذا المثل الكريم جانب آخر من جوانب الإعجاز في القرآن

العظيم ألا وهو الإعجاز العلمي الذي شغل به علماء عصرنا لأنه الوجه

(١) المصدر السابق . (٢) سورة النور / آية ٤٠ .

(٣) روح المعاني ١٨ / ١٨١ .

(٤) معاني القرآن : للفراء ٢٥٥/٢

الذي فتن به علماء الغرب فلا عجب أن نبين لهم إعجاز القرآن
من هذا الجانب الذي فتنوا به والذي يعتقدون أنهم لم يُسبقوا إليه وسنذكره
هنا لأنه يوقفنا على فقه المثل فلا تعارض بين حقائق العلم وحقائق اللغة
والبيان .

فالحقائق التي توصل إليها العلم والتي هي/القرآن على الوجه الذي
يعلم ولا يعلم أن ثمة أمواج سحيقة تعرف في الأعماق المظلمة وتضطرب
وهي غير الأمواج السطحية التي نعرفها وأن هذا النوع من الأمواج كبير
جدا ولا يسود إلا في البحار المظلمة مثل المحيطات وهذه الناظسقي
المظلمة هي التي يستحيل وصول ضوء الشمس إليها لعمقها الشديد وتراكم
طبقات المياه الكثيفة وقيام الطبقة السطحية من المحيط بإعكاس ضوء الشمس
فكيف إن كانت فوق هذه الأمواج سماء ملبدة بالغيوم والسحب التي
تحجب الضوء فإن الظلمة تبلغ حدا لا يطاق .

يقول العلم لذلك خلق الخالق عز وجل أنواع الأسماك هناك بلا
عيون لأنها لا تستخدمها في الرؤية وإنما يسر لها الله سبحانه وتعالى
سبل حياتها في هذه الظلمات ، فهذه الظلمات العجيبة الصفة
لا توجد في بحار الدنيا كلها وإنما تختص بهذه البحار اللجي العميق . (١)

(١) انظر الظواهر الجغرافية بين العلم والقرآن د/ عبد المليم عبد
الرحمن خضر ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، ص ٣٢ ، ٣٣ .

قال تعالى :

* وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ
أَوْ نُنزِلَ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا
كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ
وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ
فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾

من أسرار المناسبة :

يتحدث سبحانه وتعالى في الآيات السابقة للمثل عن الذين

لا يرجون لقاء الله والذين تجاوزوا الحد في الظلم والكفر :

(لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا)

" والعتو النبو عن الطاعة يقال عتا يمتو عتوا وعتيا وهي حالة

لا سبيل إلى إصلاحها ومداواتها " (١).

ثم يقول الله تعالى :

(يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا)

معنى الحجر المحجور " أن الرجل كان إذا لقي من يخاف يقول

حجرا محجورا فذكر الله تعالى أن الكفار إذا رأوا الملائكة قالوا ذلك

ظنا أن ذلك ينفعهم .

قال تعالى :

(وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا)

أي منعا لا سبيل إلى رفعه / وفلان في حجر فلان أي في منع منه عن

التصرف في ماله وكثير من أحواله " (٢).

(١) الراغب مادة (عتا) .

(٢) الراغب مادة (حجر) .

ثم يأتي المثل بعد ذلك :

(وقد منا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثورا)

فتأمل كيف شبه أعمالهم في الحقارة وعدم النفع والجدوى بالهباء المنثور الذي لا يعبأ به ولا يمكن نظمه أو الاحاطة به وكيف يتلاءم هذا مع جو السياق الذي ورد فيه والذي تجاوز فيه الكافرون الحد في الطغيان حين طلبوا رؤية الله أو نزول الملائكة عليهم فلما نزلت عليهم وحلت بهم كرهوا لقاءهم أشد كراهة وفضعوا منهم فزعاً شديداً ثم عمد سبحانه إلى أعمالهم فجعلها هباءً منثورا. (١)

من أسرار اللفظة والنظم :

الهباء " من هبأ الفبار يهبو نار وسطع والهبوة كالغبرة والهباء

دقائق التراب وما نبت في الهواء فلا يبدو إلا في أثناء ضوء الشمس في الكوة. (٢)

والنثر " نثر الشيء نشره وتفريقه ". (٣)

(١) انظر (أبو السعود) ٢١٢/٦ .

(٢) الراغب مادة (هبأ) .

(٣) الراغب مادة (نثر) .

والتعبير بصيغة القدوم / يتناسب مع كونهم طلبوا رؤية الله
فأراهم ما يكرهون، ووراءه أنهم كانوا في غلظة شديدة وذلك حين غفلوا
عن رقابة الله لهم، الذي احتجب عنهم في الدنيا ليبتليهم ثم عاد
ليجازيهم .

وتأمل قدوم الملائكة عليهم وهم نور من نور وكيف تظهر أعمال
الكافرين في هذا المشهد الذي شع فيه نور الملائكة وقدم فيه أمر الله وما
وراءه " قدسنا " من التعظيم والإجلال والإكبار الذي يزيد الموقف تشريفاً
وهيبة وجلالاً وكيف تبدد أعمال الكافرين في ضوء هذا الحق الذي
تجلى لهم عند الاحتضار أو يوم القيامة هباءً منثوراً فلا ينفعهم قولهم
حجراً محجوراً .

وإذا ما عدنا إلى عناصر التشبيه وجدنا هذا التنافر بين مواد
فالهباء والنثر يوء كد تمزق هذه الأعمال وتبددها بحيث لا يترك لها
أثراً وهذا يتلاءم مع قوله :

سَكَرَ قَادِ أَشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ

من حيث تنافر وتهاد عناصره ومواده ولكنها تختلف عنها من ناحية
رقتها ودقتها و كيف تتناسب مع السياق الذي شع فيه ذلك النور
الجليل .

ومع هيبة الموقف وجلاله التي تثله كلمة (قدأنا) ، وكيف

ناسب أن تكون الأعمال بهذه الضآلة والدقة والحقارة أمام

بجلال المشهد والموقف .

من أسرار التنوع في التشبيهات التي تمثل أعمال الكافرين :

تدور المادة اللفوية أو العناصر التي بينت منها التشبيهات

لأعمال الكافرين : حول :

الرماد - الريح التي اشتدت به - اليوم العاصف -

سراب بقيعة - الظمان الموهوم - الظلمات - البحر المجي -

الأمواج التي تغشى البحر - السحاب المعتم - الهباء

المنثور .

وهذه العناصر وإن كانت يجمعها معنى عام وهو فناء أعمال الكافرين

وظلائنها وأنها لا حقيقة لها ولا منفعة فيها فهي لا غاية مضمحلة ، عند

شدة الحاجة إليها إلا أن لكل صورة من صور التشبيه معرضا ومعنى تتميز

به يتناسب مع السياق القرآني الذي وردت فيه .

فالتشيل الأول : وهو قوله تعالى :

كِرَامًا شَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ

يهتم ببيان جملة أحوال ومشاعر منها :

١ - بيان معنى الهلاك والاحتراق لهذه الأعمال وعدم الانتفاع

بها بدل على ذلك كلمة رما .

٢ - بيان أنها أعمال تناهت في الكثرة مما يزيد من شدة الحسرة

ينبغي عن ذلك تنكير كلمة (رما) .

٣ - بيان تبذر أعمالهم وذهابها كل مذهب بحيث لم يبق لها
أثر يبين عن ذلك قوله تعالى :

* اشتدت به الريح *

وفيها تجسيد لشدة العذاب وراء شدة العصف .

٤ - بيان عجزهم عن استدراك ما فات ينيب عن ذلك كلمة (رماد)

وقوله تعالى :

لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ

وفي ذلك الحسرة العظيمة والموعظة البالغة .

٥ - أن زهاب الريح برماد أعمالهم وتبذرها دلالة على بعدهم

في الضلالة يبين عن ذلك قوله تعالى :

ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ

بينما يهتم التحليل الثاني في سور النور ببيان جملة أخرى من الأحوال

والمشاعر منها :

١ - بيان وهم الأمل المقصود الذي تعلق به الذين كفروا ورجوه

من هذه الأعمال يدل على ذلك كلمة (سراب) وفيها تجسيد

للخداع والوهم والضياع .

٢ - بيان أن ظهور حقيقة هذا الأمل وأنه وهم إنما يكون عند شدة

حاجتهم إليه دل على ذلك كلمة (بقيعة وطمأنان)

٣ - بيان أن الذين كفروا سمعوا سمياً حسيثاً وراء هذا الأمل
الجواهم الخادع دل على ذلك قوله تعالى :

* حتى إذا جاءه *

٤ - بيان أن الواقع كان على النقيض من المتوقع . دل على ذلك
قوله تعالى :

وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فُوقَهُ حِسَابَهُ

فأما التمثيل الثالث فإنه يركز على بيان :

١ - خلوا أعمالهم من نور الحق لكنها أعمال فاسدة باطلة لأنها
غير مبنية على إيمان بالله والعمل لوجهه الكريم يدل على
ذلك كنه كلمة (ظلمات) .

٢ - بيان أن تلك الظلمة انطبعت على قلوبهم فحالت بينهما
ومين روية الحق . يدل على ذلك :

أَوْضَاءٌ فِي قُلُوبِهِمْ

٣ - بيان أن ظلمة الأعمال في تضاعف وتزايد وانها ظلمات متراكبة
متراكمة تتردد في صدورهم . يدل على ذلك قوله تعالى :

رَوَّادُورٌ مِّنْ قَوْهِ مَوْجٍ

٤ - بيان أنها أنواع من الأعمال الفاسدة كالاتقادات الباطلة
والفتن وزناغل النفس وغير ذلك ما توج به قلوب أهل الباطل .

يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ ظَلَمَاتُ بَعْضِهَا تَوْقٌ بَعْضِينَ

٥ - بيان أن ظلمات أعمالهم بلغت السحاب فلا سماء تبصر ولا أرض

وأن ذلك مثال للرين والطبع على القلوب يدل على ذلك

قوله تعالى : **مَنْ تَوَلَّى سَفْهَانَ**

٦ - بيان أن قلب الكافر يصبح من كرة تلبسه مظلمات أعماله

لا يعقل ولا يبصر يدل على ذلك قوله تعالى :

لِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا

٧ - بيان أن أعمال الكفار لا حقيقة لها ولا وجود وإنما هي ظلمات

يدل على ذلك قوله تعالى :

وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ

ويهتم التشبيه الرابع ببيان :

١ - بيان ضالة أعمال الكافرين وحقارتها وأنها شيء لا يعبأ به

ولا يلتفت إليه تمثله كلمة هباء .

٢ - بيان تنافر أعمالهم وتمزقها كل ممزق بحيث لم يترك لها أثرا

تدل عليه كلمة (منشورا) .

وهكذا يتضح لنا أن كل تشبيه يهتم بإبراز معاني وأحوال وشاعر تتفق

مع السياق الذي ورد فيه .

١ - ففي سورة إبراهيم تجسد أن (الرماد) وهو ما يبقى

بعد احتراق الشيء يتلاءم مع جهنم .

وهذا المشهد المكفهر الذي اشتدت به الريح في يوم عاصف فلا يكاد المرء يستسيغ بلع هواءه الممزوج برماد وفتح عينيه أو أذنيه / يتناسب وكيف مع العذاب الذي لا يستسيغه الكافر ولا يكاد ينحدر من حلقه .

فبين هذه العناصر من التلاؤم والتناسق ما ترى وكلها معاني تدل على المحق والسحق و عدم الانتفاع والعجز عن الاستدراك .

كما تتلاءم هذه العناصر من ناحية الجزالة والقوة والشدة وتنافر موادها مع السياق الذي وردت فيه والذي يحوطه عذاب غليظ .

٢ - تأمل كيف اختتمت الآيات هنا بقوله تعالى :

لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ . لأن المراد تأكيد محقق

هذه الأعمال وضياعها وتبديدها .

بينما جاء النظم في سورة البقرة لَأَيُّ قَدْرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا

لأن المراد تأكيد عدم قدرتهم على شيء وعجزهم عن إدراك

ثواب ما عملوا .

٣ - وهذا التشبيه وان كان يشترك مع قوله تعالى :

* وقد منا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً * من ناحية بيان

تبدد أعمال الكافرين وتمزقها بحيث لم يبق لها أثر إلا أن هذا التشبيه

الثاني يتميز عن الأول بدقة بعناصره ورقتها وليونتها لتمثل معنى الضآلة

والحقارة ثم التناثر والذهاب بها كل مذهب وأن هذا يتناسب مع السياق

الذي تنزلت فيه الملائكة وأتسى أمر الله يفشاء هذا الجلال والرهبة

والكبرياء فناسب أن تكون أعمالهم مقابل ذلك في منتهى الضعف وغاية الوهن .

كما أن وصف الأعمال بهذه الضالة والوهن والحقارة يتلاءم مع قوله تعالى :

* لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَتَوَعَّتُوا كَبِيرًا * وفي الحديث (يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرِينَ
يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال يفشاهم الذل من كل مكان) . (١)

فناسب أن تكون أعمالهم التي هي صورة لذواتهم كذلك .
لأن الجزاء من جنس العمل .
٤ - وقد يكون من أسرار التنوع في تمثيل أعمال الكافرين بالرماد

- والله أعلم - أن الكفار الذين تمثلهم هذه السورة الكريمة على صعيد واحد

حيث يجمعهم باطلهم وجاهليتهم لما أرادوا بالملة الحنيفية المثلة في

أبي الأنبياء إبراهيم (عليه السلام) شرا وذلك حين ألقي في النار فجعلها

الله بردا وسلاما مناسب أن يلحقوا جزاء يجانس أعمالهم ويتناسب مع اسم

هذه السورة الكريمة التي يدل اسمها على مقصودها .

٥ - كما جاء تشبيه أعمال الكافرين بالسراب والظلمات متناسبا

ومتناسقا مع السياق الذي وردت فيه .

لأنه سبحانه لما ذكر حال المؤمنين وما هم عليه من نور ويقين

والحامل لهم على ذلك الفوز العظيم والنعيم المقيم الذي يصيرون إليه ذكر

مقابل ذلك مآل الكافرين والحامل لهم على هذا الخسران البين فناسب

أن يعطف هذا المعنى على ذلك عطف القصة على القصة ليكون بينها

هذا التناظر اليديع .

(١) الأندلس المفرد للبخاري ، باب الجهرص ١١٣ .

التقابل

٦ - ثم تأمل / البديع بين هذا الذي أقام حياته على وهم

وسراب وبين أولئك الذين أقاموها على نور من ربهم فزادهم نورا .

٧ - قارن بين هذا الظمان المتوهم الذي ألهاه سراب

بقية ففضى عمر ساعيا لاها وراءه حتى أهلكه الظما عندما جاءه ولم

يجده شيئا .

وبين أولئك الرطبة قلوبهم المخيبة النسيجه إلى ربها بالفدو

والآصال تشبها لأنفسهم وابتغاء مرضاته فأنى تلهيهم تجارة أو بيع عن

ذكر الله ؟ .

٨ - ثم قارن بين العاقبتين فهناك عطاء واسع بغير حساب

وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ

وها هنا غضب جم وتوفية حساب :

وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ

٩ - كما تجد هذا التناسب والتقابل يمتد من ناحية

أخرى من السياق المقابل للمثل فترى هذا الظامي وحده في شدة الرضا

وهو يتحرق ظما ويتلوى كمدا بينما الوجود حوله رى خصب يمطر وابلسه

ويصيب برده من يشاء . (١)

(١) انظر الآية ٤٣ / سورة النور .

١٠ - ثم تأمل كيف يمتد هذا التناسق والتقابل بين هذه

الظلمات في قلب الكافر وكيف تتضاعف وتتكاثر بحيث إذا أخرج يده لم يكده يراها .

ومين ذلك النور في قلب المؤمن وكيف يترابط فيتزايد فهو

نور قـد تناصر فيه المشكاة والزجاجة والمصباح والزيت حتى

لم يبق ما يقوى النور ويزيده إشراقاً وبده باضاءة بقية . (١)

١١ - وازن بين هذه القلوب المعرضة عن رسول الله

صلى الله عليه وسلم وكيف تتكاثر فيها الظلمات . (٢)

ومين تلك العقلة على بيوت الله كيف يتضاعف فيها النور

والإيمان .

١٢ - ثم تأمل هذا التقابل العجيب بين هذه الظلمات

في ذلك العمق الغائر والتي ختم عليها فلا تقوم فيها حياة لأعمال ومين

(١) الكشاف ٣ / ٦٨٠

(٢) انظر آية ٤٨ / سورة النور .

قدرة الله في ذلك العلو والشاهق على بعث الحياة من بين ركام السحاب
وأخراج النور من بين ظلمات الدجى الفاسق .^(١)

١٣ - وبعد فإن ما نقف عليه من هذا السبك البارع والنظم

الجليل والتناسق الديدع الذي لا يتناهى حسنه ومجاله وفضله وجلاله
إنما هو ما يتقاطر إلينا من هذا الفيض السخي والخير الخصيب من مآدبه
الله التي لا يشبع منها العلماء . ولك أن توازن بين هذين التمثيلين وكيف
جمع الله فيهما بين أمور متضادة لتعبر عن ضياع أعمال الكافرين وعدم
نفعها وهذا من يدعي أسلوب القرآن الكريم الذي يمثل لك الشيء بالشيء
وضده .

وازن بين (سراب ببيعة) يقابله (بحر لجي) .

وبين هذه القبة المجدبة ليس فيها قطرة ماء .

وبين بحر لجي يفيض ماء .

بين شدة الضوء هناك وشدة الظلمة هنا .

ومع ذلك فالعاقبة واحدة فهناك **لَمَجِيدَةٌ شَيْئًا** وهنا : **إِذَا أَخْرَجَ**

يَدَهُ لَمْ يَكِدْ لِيَمُوتَ فالروئية والبصيرة قد طمست والأعمال قد ضاعت

وفنيت والهلاك محقق به من كل جانب .

(١) انظر آية ٤٧ / سورة النور .

١٤ - كما تعود أسرار التنوع في تشبيهات أعمال الكافرين بالسراب

والظلمات إلى المواد اللفوية التي بنيت منها التشبيهات فنلاحظ مثلاً :

أن عناصر التشبيه الأول وهي (السراب القيمة الظمان) بينها هذا التجاذب

الشديد والتقارب البديع الذي يؤكّد الوهم ويضعفه ، تأمل كيف يفري

هذا السراب ذلك الظامي ، فيعطفه نحوه ويجذبه إليه .

كما نجد هذا التقارب والتلاؤم بين عناصر التشثيل الآخر من (ظلمات

وحرلجي يفسّاه موج) ليؤكّد شدة الظلمة وتضاعفها .

الفصل الخامس :

التشبيه الذي يمثل أوصاف المخالفين
من المنافقين وأسرار تنوعه .

المدخل :

ورد ذكر النفاق والنافقين في القرآن الكريم في عدة مواضع

وبأساليب بلاغية مختلفة يبين فيها سبحانه أن النفاق مرض في القلب

يحول بين صاحبه وبين نور الحق وصحة اليقين قال تعالى :

فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا (١)

وأن ما يظهره المنافقون من نور الإسلام في الدنيا لا يحو ولا يزيل ظلمة

قلوبهم ، وتمظم حاجتهم إلى هذا النور في كرب يوم القيامة :

يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا

انظرونا نقبئس من نوركم (٢)

ولما كان أمر هذه الطائفة خطيراً ولاؤها عظيماً جلى سبحانه حقيقة

أمرها وما تنطوى عليه دخائل نفوسهم وما هم فيه من حيرة وشك في مثلين

يديعين يرى من خلالهما التخيل في صورة المحقق والمتوهم في معرض

المتقين والغائب كالمشاهد (٣) ليكون في ذلك أبلغ تأكيد وأعظم تقرير

(١) البقرة / ١٠٠

(٢) الحديد / ١٣

(٣) انظر الكشاف ١ / ١٩٥

على سوء حالهم وفساد سريرتهم وخسران عاقبتهم .
وسأقف بإذن الله وتوفيقه في هذا الفصل على أسرار التنوع
وراء تشبيه المنافقين بالذى استوقد ناراً وبأصحاب الصليب-

قال تعالى :

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي
أَسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ
فِي ظُلُمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ بَدَأَ بِكُمْ عَمِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ
﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ
أَصْبَحَهُمْ فِي سَاءِ مَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّوَادِ حَذَرًا لِمُوتٍ وَأَلَلَّهُ مُحِيطٌ
بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا
أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ
لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

من أسرار المناسبة :

تمتد المناسبة بين سورة البقرة وآخر سورة الفاتحة فما أجمّل

هناك فصل هنا ، وهذا من بديع أسلوب القرآن الكريم .

فقد تناولت سورة الفاتحة الحديث عن ثلاثة أصناف من الناس

على وجه الإجمال بينما تناولت البقرة هذه الأصناف بشيء من التفصيل . (١)

فبدأت ذلك بنفي الريب عن كتاب الله الصبين ، ثم بينت حال

ومآل الذين آمنوا به واهتدوا بهداه وهم المتقون ، ثم بينت صفة

وعاقبة الكافرين الذين طبع على قلوبهم فهم لا يوفون ، ثم أتت ذلك

بذكر المنافقين الذين خالط قلوبهم الريب والتبست أقوالهم وأفعالهم

فخفوا أمرهم وعظّم بلاؤهم فأبان الحق سبحانه عن أحوالهم بما هتك

من سرائرهم وكشف من ضمائرهم ليكون الناس على بينة من أمرهم وليكون

في ذلك ردحاً لهم وزجراً .

(١) انظر نظم الدرر ١ / ١ .

من أسرار اللغة والنظم :

قال تعالى :

مَشَاهِرُ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا . . . وقعت هذه الجملة موقع

البيان والتقدير من الجمل الماضية لذلك لم تعطف عليها وكان بينها وبين ما قبلها كمال اتصال . (١)

ثم تأمل كيف جاء المشبه به صورة فردية وهي قوله تعالى :

” كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا “

مع أن المشبه هي حالة جماعة المنافقين ويكاد يغلب هذا على أسلوب القرآن

الكريم في أمثاله التي يعبر بها عن المخالفين وأحوالهم وأعمالهم .

فذلك الظمان اللاهث وراء السراب في حرقة الصحراء ، وذلك

السايح في ظلمات بحر لحي (إذا أخرج يده لم يكد يراها) (٢) ، وهذا

الصفوان الأجرد وسط طبيعة ثرة خصبة تتفجر ينابيعها (٣) بالحياة ،

(١) التحرير والتنوير / ١ / ٣٠٢ .

(٢) سورة النور / ٣٨ - ٤٠ .

(٣) سورة البقرة / ٢٦٤ .

كلها صور فردية تعبر عن جماعة المخالفين وأعمالهم وأحوالهم ، ولعل
حكمة مجيئها على هذه الهيئة هو أن في هذه الصورة مزيد إيحاش وتنفير
وكان صاحبها وحده وسط هذه الأهوال والحيرة والشك يتخبط ويعاني
وذلك أشد وقعا عليه وأنكى له .

وتلك هي حقيقة هذه الفئة الذين لا جماعة لهم في الواقع

* تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى * (١)

ثم تأمل ما وراء (استوقد) من الكد والكبح والطلب والإلحاح

في حصول ذلك والتأكيد والحرص عليه والحث والاستدعاء له ووراء ذلك

الحاجة الطحة لهذا الطلب والاستيقاد .

ثم تأمل كيف يكون انطفأؤها - مع حاجته هذه إليها -

أنكى له . (٢)

" ووقود النار سطوعها وارتفاع لهبها " . (٣)

في تنكير (نار) ما يوحي بأنها نار عظيمة ارتفاع لهبها وسطوع ضوءها

(١) الحشر / ١٤

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية / ١٣٠ .

(٣) الكشف / ١٩٧ ، البحر المحيط / ١٧٥ .

حتى أضاءت ما حولها . (١)

فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ

جملة مفعلة على جملة استوقده . (٢) وأضاء . يأتي متعدياً وهو الأصل كما

في قول الشاعر :

أَضَاءَتْ لَهُمْ أَحْسَابُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ

دَجَى اللَّيْلِ حَتَّى نَظَّمَ الْجَزَعُ ثَابِتَهُ

ويأتي قاصراً (لازماً) بمعنى صار ذاتاً ضوء كقول الشاعر :

يضيء سناء أو مصابيح راهايب

أَمَالَ السَّلِيْطَ بِالذَّبَالِ الْمُفْتُلِ

والآية لا تضيق عن هذين المعنيين أي فلما أضاءت النار الجهات حوله

وهو بمعنى ارتفاع شعاعها و سطوع لهبها أو فلما أضاءت النار واشتعلت

وكرضوءها في نفسها . (٣)

ذَهَبَ اللَّهُ نُورَهُمْ

تأمل كيف أخرج الكلام هنا على خلاف مقتضى الظاهر وهذا من

(١) انظر الكشاف ١/٣٠٠

(٢) التحرير والتنوير ١/٣٠٧

(٣) المصدر السابق ١/٣٠٨

بديع أسلوب القرآن إذ أن مقتضى الظاهر والسياق أن يقول (ذهب الله
بنوره وتركه) ليعود الضمير على (الذي استوقد ناراً) ولكن جمع
الضمير، والتعبير (بالنور) عوضاً عن (النار) أوحى بهذا الانتقال البديع
الذي يدل على أن الله سبحانه أذهب نور الإيمان
من قلوب المنافقين . (١)

وقريب ما ذهب إليه ابن عاشور ما جوزه الكشاف من اعتبار قوله

تعالى :

ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ

استثناءً وأن التمثيل ينتهي عند قوله تعالى :

فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُمْ

ويكون جواب (لما) محذوفاً دلت عليه الجملة المستأنفة . (٢)

(١) التحرير والتنوير ١ / ٣٠٩ .

(٢) الكشاف ١ / ١٩٩ .

وينبه صاحب الكشاف إلى النكت البلاغية وراء هذا الحذف فيقول :
(وكان الحذف أولى من الإثبات لما فيه من الوجازة مع الإعراب عن الصفة
التي تحصل عليها المستوقد بما هو أبلغ في اللفظ في آراء المعنى
كأنه قيل :

" فلما أضاءت ما حوله خمدت فبقوا خابطيين في ظلام متحيرين
متحسرين على فوت الضوء خائبين بعد الكدح في إحياء النار " (١)
ومعنى (نَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ) أى أطفأ نارهم .

وفي التعبير عن (النور) بدل (النار) لأنه المقصود من
إيقاد النار . كما أن المقصود من التجارة الريح فالريح هو الشرة المرجوة
كما أن النور هو الغاية المقصودة .

والشابهة بين الإسلام الذى أظهروه بقولهم : (آتانا) وبين
النور قائمة ، وقد شاع استعمال النور في التعبير عن الإسلام في القرآن
الكريم .

كما شاع استعمال الظلمة في الكفر .

ثم تأمل ما وراء إسناد الذهاب إلى الله سبحانه وتعالى من
آن الذي ذهب بنورهم هو القوى العزيز الذي لا راد لما
أخذ ولا مرسل لما أسكه (١) فهو أشد في تحقيق الذهاب وتأكيده .
ولأن تعدية الفعل بالباء فيه معنى الاستصحاب والإسك وفي
ذلك من المبالغة والتأكيد ما فيه . (٢)
ومنها أنه حدث بأمر خفي أو أمر ساوي لأن الكل يخلق الله
تعالى . (٣)
ومنها أيضا إشعار بغضب الله عليهم إذ أطفأ نارهم وذلك
لأنهم استوقدوها لغير مرضاة الله وهي إما نار مجازية كنار الفتنة
والعداوة للإسلام .
أو حقيقية أوقدها الخوفا للفساد والإفساد . (٤)

-
- (١) روح المعاني ١٦٦/١ - الكشاف ٢٠١/١ .
(٢) انظر أبو السمود ٥١/١ .
(٣) المصدر السابق .
(٤) انظر الكشاف ٢٠٠/١ - روح المعاني ١١٥/١ .

(وتركهم في ظلمات لا يبصرون)

تأمل ما وراء (تركهم) من الرمن والطرح والنبد كأنهم كالشيء
الذى لا يعبأ به ولا يلتفت إليه ولا يخطر ببال . (١)

ثم تأمل كيف أكد شدة هذه الظلمات وتضاعفها وتراكبها
وتراكمها وإطباقها بحيث لا ينفذ فيها بصر وذلك بجمعها وتكثيرها
واتباعها بقوله (لا يبصرون) .

ثم إنك إذا عدت إلى هذا الجمع في (ظلمات) وجدت أنه يشير
إلى أحوال كثيرة من أحوال المنافقين كل حالة منها كأنها ظلمة فكفرهم
ظلمة وكذبهم ظلمة واستهزاؤهم بالمؤمنين ظلمة وهكذا .
(٢)

ثم تأمل ما وراء حذف مفعول (لا يبصرون) فكأنه أوهم بأن
الفعل غير متعد وفي ذلك إيحاء بأن حاسة البصر عندهم كأنها معطلة
ثم تأمل كيف يتناسب هذا مع قوله تعالى في السياق السابق :

(٣) . وَيَسْمَعُونَ فِي ظُلُمَاتٍ مِمَّا جَعَلْنَا
بَيْنَهُمْ سُبُحًا مِّنْ ظُلُمَاتٍ يَبْعَثُونَ

(١) انظر الكشف ١ / ٢٠٠ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ١ / ٣١٢ .

(٣) البقرة / ١٥ .

« والعنه في البصيره كالعن في البصر وهو التحير والتردد » (١)

وإذا ما عدت إلى هذه الجملة وهي قوله تعالى :

وَتَرَكَّهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ

تجدها تقريراً وتوكيداً للمضمون جملة :

ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ

وليس في ذلك تكراراً لأن الكلام ينمو وتكثر فوائده بهذا التكرار إذ أن

هذه الجملة بالإضافة إلى أنها تؤكد معنى الجملة السابقة إلا أنها

تضيف إلى ذلك معنى التحقير والازدراء في (تركهم) وشدة الحيرة

والتخييط فسي هذه الظلمات التي جمعت ثم نكرت ليزيد ذلك من

هولها وشدتها وإطباقها ثم عن البصر والبصيرة وسط ذلك كله فسي

قوله :

لَا يُبْصِرُونَ ۝ صُمُّ بِكْرٍ عَمِي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ .

ثم تأمل قول الزمخشري في معنى هذه الآية إذ يقول : (٢)

(١) أبو السعود ٤٧/١

(٢) الكشاف ١/٢٠٣ - ٢٠٤

* كانت حواسهم سليمة ولكن لما سدوا عن الإصاغة إلى الحق سامعهم وأبو أن ينطقوا به ألسنتهم وأن ينظروا ويتصروا بعيونهم جعلوا كأنما أيفت شاعرهم وانتقضت بناها التي بنيت عليها للإحساس والإدراك كقوله :

صم إذا سمعوا خيراً ذكرتُ به

وإن ذكرتُ بسوءٍ عندهم أذنوا

وعن ابن عباس : صم بكم عمي لا يسمعون / ولا يبصرونه ولا يعقلونه . (٢)

وقوله تعالى :

صم بكم عني

أخبار لمبتدأ محذوف ، وحذف المسند إليه في مثل هذه المقامات أخرجت عليه لغة العرب وكان السياق يشتد ويحتد ، فيكون للإيجاز مع الحذف هذا الوقع الشديد التأثير في النفس والحس .

وقوله تعالى : لا يرجعون ، فيها عدة وجوه منها :

* أي لا يعودون إلى الهدى بعد أن باعوه أو عن الضلالة بعد أن اشتروها . (٣)

(١) أيفت : أصابتها آفة .

(٢) الطبري ١ / ١١٤ .

(٣) الكشاف ١ / ٢٠٧ .

ومنها : " أنهم بمنزلة المتحيرين الذين بقوا جامدين في مكانهم

لا يبحر حون ولا يدرون أيتقدمون أم يتأخرون " . (١)

ومجيء الجلة الاسمية يفيد ثبوت ذلك ودوامه واستمراره .

ثم تأمل كيف أشرى حذف المتعلق في قوله (لا يرجعون) المعنى وأفساد

أنهم لا يرجعون عن أحوال كثيرة .

ثم إنك إذا ما عدت إلى هذه الآية وجدت بها تقريراً وتأكيذا للضمون

ما قبلها وإيذاناً بأنهم مستمرين في ظلماتهم لا يخرجون منها لأنهم فقدوا

أدوات المعرفة وآلات الحس التي يستدلون بها على طريق النجاة أو

يشعرون بها أنهم في خطر وفساد .

أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُضِلُّونَ وَلَكِنَّ لَا يَشْعُرُونَ

فهم في غيهم يعمهون وفي ظلمات ظلومهم ونفاقهم يترددون فأنى يرجعون .

وقد ذكر المفسرون (٢) لهذا التشيل وجوها كثيرة وذلك لأن

التشيل في القرآن الكريم لا يقتصر على وجه واحد للشابهة بل هو مبني

على الطي والديج والشرء والخصوبة والإيجاز والاكتناز وتعدد وجوه

(١) الكشاف ٢٠٧/١ .

(٢) انظر البحر المحيط ٧٦/١ . والفخر الرازي ٨١/١ .

الشبه والعلاقات الدقيقة التي تربط الشبه بالشبه به والتي لا تظهر إلا أثناء التحليل المتأنى والمدارسة والمتابعة والتذوق الواعي البصير للمعاني الكلم وسرائر النظم.

من تلك الوجوه التي ذكرها المفسرون لهذا التشيل قولهم :

(إن الذي يستوقد النار^١ إنما يستوقدها لیسدفع بها الأذى عن نفسه ويحییها فإذا انطفأت عنه كان قد عرض نفسه للهلاك وكشف عنها ستار الأمن وهذه حال الناطق الذي يحقن دمه بالإسلام وبيحه بالكفر .

ومنها أنه يهتدى بنور الإسلام فإذا ارتكس ونكس فقد زال

عنه ذلك النور فضل وتاه وغشيتة ظلمة كفره ونفاقه .

ومنها أن المستضيء بهذه النار إنما يستضيء بنور خارجي

لا ينبع من ذات نفسه وداخل قلبه أي نور مستعار فظلمة نفسه لا تزال كما هي على أن ما حواه مضاء متقد .

ولما كان هذا الضوء ضوء خارجي لا يحوطه سياج يحييه

كان عرضة للذهاب والهلاك فإذا انطفأ ضل صاحبه وهلك فهو مثال لمن

أقريلسانه ولم يلج إيمانه قلبه فكان إيمانه كالمستعار .

ومنها أنه شبه إقبالهم على المسلمين بالإضاءة وإدبارهم

(١)

وتوليهم إلى شياطينهم بضدها .

وإذا كان المراد بالعشبه منافقي اليهود كان وجه الشبه هو
استفتاحهم على أعدائهم وما كانوا يستنصرون به عليهم بحال المستوقد
ناراً فلما بعث عليه الصلاة والسلام كفروا به ونافقوا فذهب عنهم ذلك
(١)
النور.

والمهم هو وصف شدة الحيرة والتخبط والتردى لمن يكون له
نوراً ويستوقد ناراً لغاية ما ثم تطفأ ناره فيصبح أشد حيرة منه قبل
ذلك لأنه عرف ثم وأبصر ثم عن ولم ثم جهل فلا إصار لهم ببصر
ولا بصيرة. (٢)

(١) المصدر السابق .

(٢) انظر البقاعي نظم الدرر ١/٢٠١ .

أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ

وَالصَّيْبُ : السَّحَابُ الْمُخْتَصُّ بِالصُّوْبِ وَهُوَ قَيْعِلٌ مِّنْ صَابٍ

يَحْضُوبٌ قَالَ الشَّاعِرُ :

* فَكَأَنَّمَا صَابَتْ عَلَيْهِ سَحَابَةٌ * (١)

وَالصَّيْبُ : المَطْرَ الَّذِي يَصُوبُ أَي يَنْزِلُ وَيَقَعُ وَيُقَالُ لِلسَّحَابِ

صَيْبٌ أَيْضًا قَالَ الشَّمَاخُ :

* وَأَسْحَمُ دَانَ صَادِقُ الرِّعْدِ صَيْبٌ * (٢)

قال الزمخشري " شبه دين الإسلام بالصَّيْبِ لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر وما يتعلق به ، وشبه الكفار بالظلمات وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق ، وما يصيب الكفرة من الإقزاع والبلايا والفتن من جهة أهل الإسلام بالصواعق .

والمعنى أو كمثل ذوى صيب والمراد : كمثل قوم أخذتهم السماء

على هذه الصفة فلقوا منها ما لقوا " (٣)

(١) فردان الراغب مادة (صوب) .

(٢) الكشاف ١ / ٢١٤ .

(٣) المرجع السابق ١ / ٢٠٩ - ٢١٠ .

ومجيء الكاف مع حرف العطف (أو كصيب) فيه إشارة إلى

إخلاف الحالين الشبهيين .

والمراد بالصيب هنا القرآن أو هدى الإسلام وتشبيهه بالغيث

ورد في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول :

(مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ الْكَبِيرِ الْغَيْثُ / أَصَابَ

أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ ..) (١)

وهكذا يتضح لنا مجعلاً أن هذا التشثيل تصوير لأحوال نفوس

المنافقين حين يحضرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ويستمعون

إلى كتاب الله وحين يلتقون المؤمن فيتظاهرون أمامهم بالإيمان ثم ما

وراء ذلك ما يختلج في صدورهم وما يجاذب نفوسهم

حين يستمعون إلى آى الوعيد لا مثالهم وآى البشارة للمؤمنين وما يقولونه

لحظة أمن ثم ينكصون عنه إذا ما خلوا إلى شياطينهم . وغير ذلك

من المعاني والأحوال التي يبين فيها ويجليها الوقوف المتأني أمام

معاني الكلمات .

(١) مختصر صحيح البخارى للإمام زين الدين الزبيدى رقم ٧٠ ص ٤٠ .

فورا تنكير صيب : إيحاء بأنه نوع من المطر شديد عظيم وسخي

كريم فاضل من أرجاء السماء وغمر الوجود .

ثم تأمل كيف أفادت الكلمة ببادتها (صوب) وبمخارج

حروفها وطريقة بنائها من الصاد إلى اليا الشددة والياء عن شدة

الانصباب والخير الذي عم وفاض . (١)

وشدة الصيب تستدعي شدة الظلمة التي تكاثفت من كثافة

السحب فكثافة الانسكاب بالإضافة إلى ظلمة الليل .

ثم تأمل ما وراء هذا القيد (من السماء) من الإشارة إلى

علو مصدره وسمو مورده وصفائه ونقاؤه وإحاطته وعمومه ، وأنه صيب

عام نازل من غمام مطبق آخذ بالافاق . (٢)

فِيهِ ظَلَمَتْ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ

تأمل كيف يصور لك التشثيل هذه الجوانب التي طفت على

نفوسهم فانخلعت لها قلوبهم جزعا ووصت آذانهم رعبا وكادت أبصارهم

أن تخطف إنَّ الحق الذي تجلجل به السماء وتتغشى رحمة الوجود

(١) انظر أبو السمون (١ / ٥٢ - ٥٣ .

(٢) انظر الكشاف ١ / ٢١١ .

لم ينلهم منه إلا ظلمات ووعده وقره .

ثم تأمل ما وراء هذه الظلمات من الإيحاش والغمة التي تعترى

نفوسهم إنها ظلمات الشبهات والشكوك والريب الذي يخالط قلوبهم . (١)

ثم تأمل ما وراء هذه الظرفية (فيه ظلمات) من الإشارة

إلى شدة هذا الصيب والتهويل والتعظيم لآمره بحيث طفت ظلماته

فهي غالبية على غيرها من ظلة الليل والغمام وهذا أعظم في بيان

شدته . (٢)

ثم ذلك الرعد القاصف والبرق الخاطف يقرع أسماعهم ويكاد

يعمي أبصارهم من زواجر القرآن ووعده ووعيده . (٣)

أو أن هذا البرق الشديد اللعنان هو ما يشرق من نور الحق

وضيائه وسط ظلمات نفوسهم وشبهات قلوبهم .

(١) انظر التحرير والتنوير ١/٣١٢ .

(٢) انظر (أبو السعود) ١/٥٣ .

(٣) انظر الكشاف ١/٢٠٩-٢١٠ .

وهكذا نقف على جلال التمثيل في القرآن ودقته حين يصور

لك كيف أحاط هذا الفزع والجزع والهول والرعب بجميع منافذ الحس

لديهم فأطبق عليهم من ظلمات تفتال بهولها ووحشتها نفوسهم

ورعد وصواعق تعيم آذانهم ويرق يكاد يخطف أبصارهم فإذا هم فسي

شك وحيرة بين شي وقيام وتبصر فظلام .

ثم تأمل كيف تتوالى الأحوال فتستأنف الجمل الحالية التي

تكشف عن دقائق نفوسهم وما يختلج في صدورهم إذ :

يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ

تأمل هذا التناسب البديع والتدرج في التصوير وهذه الحركة

الخارجية حركة أيديهم المضطربة الفزعة تلج آذانهم ثم ما وراء ذلك

من حركة قلوبهم الموجلة المذعورة التي ترتجف حذر الموت .
(من الصواعق والحذر والموت)

ثم تأمل هذه الكلمات/ وكيف أضفت جوارع الرعب والهلع وشبح الموت

والهلاك بالإضافة إلى شدة الحيرة والتخبط .

المرسل في جعلهم

ثم تأمل ما وراء هذا المجاز / أصابعهم في آذانهم، والمراد : رؤوس الأصابع

من المبالغة في التصوير الذي ينبىء عن مبلغ الخوف والحذر . يقسول

الزمخشري :

وهذا من الاتساعات في اللغة التي لا يكاد الحاصر يحصرها

كقوله تعالى :

فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ
وَالسَّارِقَةَ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا (١)

وقوله تعالى: وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ

اعتراض راجع إلى المنافقين وهو في رجوعه يتناسب ويتلاءم

مع قوله تعالى :

ذَهَبَ اللَّهُ سُنُورَهُمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ

حيث رجع إلى الشبه . (٢)

ووراء ذلك أن حذرهم وما صنعوا لا يفني عنهم شيئاً ولا ترد

حيلهم بأس الله بهم .

ثم تأمل ما وراء التعبير (بالكافرين) وإظهاره موضع الضمير

من الإشارة إلى أن ما أصابهم وما دهمهم من الأمور العالكة والخطب

العظيم بسبب كفرهم .

-
- (١) الكشاف ٢١٧/١
(٢) التحرير والتنوير ٣٢١/١

يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَرَهُمْ (١)

يكاد : يقارب (يقال كَادَ يَفْعَلُ إِذَا لَمْ يَكُنْ قَدْ فَعَلَ) (١)

والخطف : (وَالْإِخْتِطَافُ الْإِخْتِلَامُ بِالسَّرْعَةِ) . (٢)

وفي الأساس (وَمِنْ الْمَجَازِ الْبَرْقُ يَخْطِفُ الْبَصَرَ) . (٣)

ثم تأمل ما وراء كلمة (يخطف) من تكرر ذلك واستمرار تجدده فهم

في رعب دائم ، وعدم أمن أو يقين إلى صحة إيمانهم .

يقول أبو السعود : " إيراد (كلما) مع الاضائة (وإذا) مع الإظلام

للإيذان بأنهم حراس على المشي مترقبين لما يصححه ، فكلما وجدوا

فرصة انتهزوها ولا كذلك الوتوف ، وفيه من الدلالة على كمال التحمير

وتطير اللب ما لا يوصف " (٤) وذلك في قوله تعالى :

كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْوَاهُ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا

(١) الراغب مادة (كيد) .

(٢) الراغب مادة (خطف) .

(٣) الأساس للزمخشرى مادة (خطف) .

(٤) أبو السعود ١ / ٥٤ .

ذلك
وما يوه كد/ هذه الظرفية في قوله : «لَمْ يَشَوْا فِيهِ»

إذ أن المشي في محل البرق وموضع إشراق ضوئه .

والمعنى : مشوا لأجل الإضاءة فيه ، وفي ذلك إشارة إلى

ضعف قواهم ومزيد خوفهم ودهشتهم وشدة حيرتهم لذلك لم يشير

القرآن إلى سرعتهم في ذلك ، وفي حذف مفعول (أضأ) ما يشير

إلى فرط الحيرة وأنهم كانوا يخطبون خبط عشواء ويشنون كل مشى .^(١)

وَإِذَا أَخْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا

أى وقفوا متحيرين غاية التحير، والظلمة بعد شدة الضوء

ولمعان البرق تكون أشد وضاخبا أعظم حيرة من ذي قبل .

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

تأمل هذا الكلام البديع وكيف أشار إلى أن الرعد والبرق

الشبه بهما قد بلغا غاية القوة ومنتهى الشدة بحيث لم ينعمسا

من إتلاف سمع هو^{لا} المنافقين أصحاب الصيب والذهاب بأبصارهم

إلا مشيئة^ر الله وقدرته سبحانه وذلك لحكمة يريد^رها .

(١) روح المعاني ١٧٦/١ وانظر البحر المحيط ١٠٩٠/١

وهذا يعني أن المنافقين لشدة نفاقهم وترددهم وشكهم واستهزائهم بالمؤمنين وإعراضهم عن الحق تكاد أسماعهم وأبصارهم أن تتلف فلا ينتفعوا بها ولكن الله أبقاها لهم استدراجاً لهم وإملاءً ليزدادوا إثماً وضيقاً . (١)

وفي ذلك من التهديد لهم والوعيد ما فيه . التهديد بأنهم إن لم يقلعوا عن كفرهم ونفاقهم فإنَّ الله قادر على أن يطمس قلوبهم ويختم على أسماعهم وأبصارهم فلن يهتدوا إنزلاً أبداً .

(١) التحرير والتنوير ١/٣٢٢-٣٢٣ .

من أسرار التنوع في التشبيه الذي يمثل أوصاف المخالفين من المنافقين :

رأينا كيف أن الوقوف أمام الكلمات والجمل وساءلتها ، ومحاولة

الكشف عما وراءها من سرائر النظم وبديع المعاني هو الذي يجلب لنا

أسرار التنوع وراء كل تشيل .

فمناصر التشيل الأول ومواده تتكون من الذي يكذب ويلج في طلب

الاستيقان - أي المستوقد نارا - والنار والإضاءة لما حوله ثم انطفاء تلك النار

وخمودها والظلمات التي ظلوا فيها لا يبصرون عندما ذهب الله بنورهم

وانعدام حواسهم التي يبصرون ويسمعون ويتكلمون بها فهم لا يرجعون ،

يقابل ذلك في التشيل الثاني " أصحاب الصيب " .

والصيب البالغ الشدة وما فيه من ظلمات ووعد برق وصواعق

ثم حركاتهم المضطربة من وضع أصابعهم في آذانهم واحتلاج صدورهم

حذر الموت ومشيمهم تارة ثم قياسهم أخرى في ضوء البرق .

وتم قدرة الله عليهم وإحاطته بهم وإبقاؤهم سمعهم وأبصارهم لحكمة

يريدها مع تهديدهم بأن الله قادر على الذهاب بها .

يقول ابن القيم :

" ف ضرب للمنافقين بحسب حالهم مثلين : مثلا ناريا ومثلا مائيا

لما في النار والماء من الإضاءة والإشراق والحياة فإن النار مادة النور والماء

مادة الحياة وقد جعل الله سبحانه الوحي الذي أنزله من السماء متضمنا
لحياة القلوب واستنارتها ولهذا ساء رُوحا ونورا وجعل قابلية أحياء في
النور ومن لم يرفع به رأسا أمواتا في الظلمات". (١)

١ - الصورة الأولى أو التشيل الأول يتشل قوما لهم حاجة ماسة
إلى استيقاد نارٍ وأنهم بعد الجهد والنصب والطلب أضأت لهم
النار ما حولهم وتبينوا وأبصروا فهم أهل علم ومعرفة أي بعد أن عرف
المنافقون طريق الإسلام وأدركوا أنه الحق والهدى غليت عليهم عصبيتهم
وجاهليتهم ونزعتهم لتقليد آباءهم فاتبعوا شهواتهم فذهب عنهم الإسلام^{ضوء}
وألغشت فيهم نور الفطرة وتعطلت قواهم الحسية والشعورية فهم بمنزلة
الصم اليكم العمي .

بينما التشيل الثاني : يركز على هذا الخير الذي فاض وهم الوجود
ويؤكد أن مصدر هذا الهدى والنور الذي أنكره الناكرون إنما هو من
مصدر إلهي سام لا ريب فيه ولكن ظلمات الشك والريب حالت بينهم وبين
هذا الخير والانتفاع به على أنهم وجه فهم قوم مترددون بين مجلس رسول
الله صلى الله عليه وسلم وسماع آيات القرآن وبين شياطينهم الذين إذا خلوا

(١) أعلام الموقعين لابن القيم (١/١٥٠-١٥١)

بهم قالوا لهم (إنا معكم، إنما نحن مستهزئون) فيصائرهم وعقولهم ضعيفة
ولضعفها تشتد (عليهم زواجر القرآن ووعيده وتهديده وأوامره ونواهيته
وخطابه الذي يشبه الصواعق) . (١)

التنوع أن

٢ - من أسرار / التمثيل الأول يوء كذ هاب الله بنورهم وتركهم في ظلمات
لا يبصرون بينما لا يزال القوم في التمثيل الثاني حيارى مترددين بين

إبصار وإظلام .

التنوع أن

٣ - من أسرار / التمثيل الأول يوء كذ الله سبحانه وتعالى فيه بأنهم لا يرجعون
عن ضلالتهم التي اشتروها أو لا يعمدون إلى الهدى بعد أن باعوه فهم
... قد ضلوا ولا عودة لهم .

بينما يهدد القرآن الكريم أصحاب الصيب بأنهم إن ظلوا على نفاقهم

فإن الله قادر على الذهاب بسمعهم وأبصارهم ، أو أنه سبحانه إنما يدع

لهم أسماعهم وأبصارهم مستدرجا لهم ليطأوا في غيهم وطفيانهم وفي

ذلك من الاستهزاء بهم والتهكم مافيه : يقول تعالى :

اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ

يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَشْرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ

فَأَرَبَّتْ تَجَارِبُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

(١) اعلام الموقعين ابن القيم (١/٥٠٠)

(٢) البقرة / ١٥ - ١٦

تأمل إلى هذه التجارة التي هي رأس مالهم وإلى الهدى والعلم

الذي كانوا يحرصون عليه أشد الحرص كيف باعوه وجعلوه سبباً للضلالة .

٤ - من أسرار / التتبع أن المثل الناري في الصورة الأولى يركز على أن الضوء خارج عن

مستوقده منفصلاً عنه ولو اتصل ضوءها به ولا يسهل لما ذهب فهو ضوء مجاوره

لا ملابسه ومخالطه (١) وهو ضوء أرضي استوقده صاحبه يمثل كلمة

الإيمان التي قالوها مخادعة ورياء .

بينما الضوء في المثل المائي ضوء ساوى لا يدلهم في إيقاده

يمثل النور الذي يفسحهم عند حضورهم مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وسماعهم

لآيات الكتاب ولكن ظلمات صدورهم وما هم فيه من شك وحيرة يحول بينهم

وبين الانتفاع به .

٥ - من أسرار التتبع أنه بنى التمثيل الأول على الأفعال الماضية وكأنها

صورة قامت وتحققت وتمت فلا عودة لهم .

بينما يمثل التمثيل الثاني صورة حاضرة متجددة مستمرة وكأنها

مأثرة أمام أعيننا لا يزال البرق فيها يضيء تارة ويظلم عليهم أخرى ولا يزال

القوم فيها حيارى مترددين يعانون أشد أنواع الظلمات والحيرة والشك -

والتخبط لأن البرق لا يخطف إلا بصر من كان في ظلمة شديدة وهول رهيب .

(١) انظر التفسير القيم ص ١١٦ .

ويرى صاحب الكشاف :

" أن الصحيح الذي عليه علماء البيان أن التشيلين جميعا من
جملة التشيلات المركبة دون العفرة^{لا تشكلن} لواحد واحد هوشي* يقدر تشبيهه
به وهو القول الفحل والمذهب الجزل* (١)

والذين يذهبون إلى أن التشبيه الثاني أبلغ من الأول كالزمخشري

وأبوحيان وغيرهما لأنه أدل على فرط الحيرة وشدة الأمر وفظامته وأن
العرب يتدرجون من الأهلون إلى الأغلظ (٢) غابت عنهم حقائق

منها :

أن كل شبيه في القرآن الكريم في موضعه بليغ بل هو الأبلغ

وليس في القرآن بليغ وأبلغ أي ليس في بلاغته تفاوت وإنما يأتي مراعاة

لمقتضى الحال والسياق والمعنى الذي جسي* به لتقريره.

والقرآن ينتقل من الصورة الأقل تركيبا إلى الصورة الأكثر تركيبا

وخصوية لأن هذا هو منطق اللغة والعقل والفطرة .

(١) الكشاف ٢١١/١ .

(٢) انظر الكشاف ٢١٣/١ والبحر المحيط ٨٥/١ .

فالصورة الأولى أجملت لهم عاقبتهم وما هم فيه من عدم الانتفاع

بنور الإسلام . والثانية كشفت عن دخائل نفوسهم بصورة أدق وما

يعتريهم عند سماع القرآن وعندما يخلون إلى شياطينهم وترددهم في

حيرتهم وشكهم ونفاقهم .

الفصل السادس :

الشبهات التي تمثل أحوال الناس عند البعث
وأسرار تنوعها .

المدخل :

أفاض القرآن الكريم في الحديث عن أحوال الناس عند البعث
وفي يوم القيامة وقد ورد ذلك على طريق الحقيقة كما ورد عن طريق
التشبيه والتشيل .

قال تعالى :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ①
تَرَوْنَهَا نَذْهَلُ كُلَّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَانٍ حَمْلَهُ
حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَهُمْ يَسْكَرُونَ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ
شَدِيدٌ ②

وقوله تعالى :

يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرًّا ③ ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ④

وقوله تعالى :

يَوْمَ نُنْفِخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ⑤ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ⑥
وَسِيرْنَا فِي الْجِبَالِ فَكَانَتْ سُرَابًا ⑦

(١) الحج / ١ - ٢٠٠

(٢) ق / ٤٤

(٣) النبا / ١٨ - ٢٠

وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُوحٍ فِي

الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ۝

كما ورد على طريق التشبيه :

فَقَوْلَ عَنَّمْ يَوْمَ بَدِيعِ الدَّاعِ إِلَى الشَّيْءِ تُنَكَّرُ ۝ خُشَعًا أَبْصَرَهُمْ

فقال تعالى :

يَا يَحْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ۝

وقال تعالى : يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْتُوثِ ۝ وَكُنُوفُ الْجِبَالِ

كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ۝

يَوْمَ يَحْرُجُونَ

وقال تعالى :

مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝ خَتِيعَةً

أَبْصَرَهُمْ تَرْهَفُهُمْ ذَلَّةً ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ۝

وسأقف بإذن الله على أسرار التنوع وراء كل صورة من صور التشكيل :

والملاحظ أن العناصر أو المادة اللغوية التي تجمع بين هذه

التشبيهات هي الجراد المنتشر ، كأنهم إلى نصيب

يوفضون ، الفراش المبتوث .

(١) الكهف / ٩٩ .

(٢) القمر / ٧ .

(٣) القارعة / ٢ - ٣ .

(٤) المعارج / ٤٣ - ٤٤ .

وهو
وهي وان كان يجمعها معنى عام / إسرعهم إلى الداعي خاشعة
أبصارهم في غاية الذلة والضعف والوهن والتهالك والتهافست
إلا أن كل صورة تتفرد بمعان وإيحاءات تتناسب مع السياق الذي
وردت فيه.

قال تعالى :

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نَّكَرٍ ۖ خُشَعًا
أَبْصُرُهُمْ يُجْرُونَ ۚ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۗ

من أسرار المناسبة :

تتميز سورة القمر بآنها حطة رهيبية عنيفة على المكذبين

بالنذر من تهديد ووعيد واعتذار وإنذار وهول راجف وفزع مزلزل :

فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِي ﴿١﴾

ابتدأت بالحديث عن الساعة وأنها قريبة جدا وقدمت بين يديها آية

تدل على إكرام لرسول الله - عليه الصلاة والسلام - لا إثباتا لنبوته لأن

نبوته ثابتة بنزول القرآن .

تأمل ما وراء **أَفَرَأَيْتَ السَّاعَةَ** من تحقق وقوعها وأن ما سيقع

هو عند الله واقع لا محالة .

ثم تأمل ما وراء انشقاق القمر من قسرة الله تعالى في آية

من أعظم آيات الله في الكون فإن كان القمر ينفطر ويتشقق استجابة

لأمر الله فكيف بهذه القلوب الجاهلة المعرضة تنكر وتكذب وتدعي

أن ذلك سحر مستمر :

(٢) **فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوَّشَدُّ قَسْوَةً**

(١) القمر / ١٨ .

(٢) البقرة / ٧٤ .

وإن يروا آية يرضوا ويقولوا
سحر مستمر ○ وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ○
ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مزيد جر ○ حكمة بلغة فأتغن
النذر ○

تأمل إلى موقفهم من آيات الله في الكون ومن الحق الذي بلغ
الغاية والنهاية في الحكمة والهداية والبيان ما زادهم إلا إعراضا
وتكديبا اتباعا لا هوائهم لا استنادا إلى حجة هذا في الوقت الذي
تجد فيه كل ما في الكون يسير لغاية يستقر إليها ونظام يقوم عليه وثبات
واستقرار في كل سنن من سنن الكون والحياة حتى وظائف الأجسام والأعضاء
لا سلطان للأهواء عليها فهذا الاستقرار يتجلى في كل شيء وفي كل أمر
من بين أيدينا وخلفنا إلا هو الكافرين هم المضطربون المخالفون
لسنن الله في الوجود والمنقادون لأهوائهم تتجازبهم كيف تشاء فدعهم
حتى يأتي يوم ينتهي فيه كل شيء إلى مستقره فتأمل حالهم ومصيرهم
في ذلك اليوم. قال قتادة : " إن الخير يستقر بأهل الخير والشرب بأهل
الشر. وقيل يستقر الحق ظاهرا ثابتا والباطل زاهقا زاهبا ". (٣)

(١) القمر / من آية ١ إلى آية ٥ .

(٢) في ظلال القرآن ص ٣٤٢٨ الطبعة التاسعة .

(٣) انظر البحر المحيط ٠١٧٤/٨

من أسرار اللغة والنظم :

فَنَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرًا ①

تأمل التناسب والتقابل البديع فكما أعرضوا عنك يا محمد وعن الحق الذي جئت به رحمة وهدى فأعرض عنهم وتولى عنهم في أحلك ساعاتهم وأعسر أيامهم .

* أو فأعرض عنهم فإن الإنذار لا يجدى فيهم * (٢)

والنكر - الإنكار ضد العرفان ويقال أنكرت كذا ونكرت وأصله أن يرد على القلب ما لا يتصوره وذلك ضرب من الجهل . . . والنكسر : الدهاء والأمر الصعب الذي لا يعرف * (٣)

وفي قوله (شي نكر) وجوه منها :

* أي يوم يدعو الداعي إلى الشيء الذي أنكروه * (٤)

وقيل (نكر) أي منكر لا ينبغي أن يكون أو يقع لأنه يرد بهم

في الهاءية . (٥)

-
- (١) القمر / ٦٠
(٢) البحر المحيط / ٨ / ١٢٤٠
(٣) الراغب مادة (نكر) .
(٤) تفسير الفخر للرازي / ١٦ / ٣٤٠
(٥) المصدر السابق .

فهو أمر صعب وشاق عليهم كالحساب والوقوف بين يدي الله
يوم القيامة ولم تكن نفوسهم قد تهيأت لتصوره والإيمان به واعتقاده ،
فجأها واغتالها لهوله .

خَشَعًا أَبْصَرَهُمْ

تأمل كيف وصف الأبصار بالخشوع ولم يصف به قلوبهم لأن
خشوعهم هنا عن ذلة وإهانة من شدة الهول فهم أذلاء ، وقدم الحال على
الفعل لمزيد الاهتمام به . (٢)

فراء هذه الكناية الواصفة خَشَعًا أَبْصَرَهُمْ ما في البصر
الخاشع من معنى الاستسلام والخضوع الدائم الملازم لهم في ذلك اليوم
يقول الطبري :

" وإنما وصف جل ثناؤه بالخشوع الأبصار دون سائر
أجسامهم والمراد به جميع أجسامهم لأن أثر ذلته كل ذليل وعزة كل
عزيز تتبين في ناظره دون سائر جسده . " (٣)

- (١) القمر / ٥٧
(٢) انظر روح المعاني ٥٨٠ / ٩
(٣) الطبري ٥٥٣ / ٩

(١) يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ

تأمل ما وراء يخرجون من استحضار ذلك المشهد العظيم
الذى يكون عليه الناس حين يخرجون من قبورهم في جوارح الهسول
والخوف .

كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ

ثم تأمل كيف يركز التشبيه هنا على معنى الكثرة والتوسع والانتشار
على غير نظام مع تسليط الضوء على معنى التخائل والضعف والوهن الذى
هم فيه والمتجلى في أبصارهم الخاشعة .

يقول ابن فارس :

نشر * أصلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى فَتْحِ شَيْءٍ وَتَشَعُّبِهِ * . (٢)

والجراد : معروف * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ

وَالْقُمَّلَ * . (٣)

ويجوز أن يجعل أصلاً فينشق من فعله جَرَدَ الأَرْضَ وضح أن

يقال سعى بذلك لجرده الأَرْضَ من النبات * .

(١) القمر / ٥٧ .

(٢) المقاييس مادة (نشر) .

(٣) الأعراف / ١٣٣ .

تأمل هذا وما وراء ذلك من الإيحاء بأنهم جراد
ليست لهم ما يقدمونه لأنفسهم لأنهم جردوا نفوسهم
من إيمانها وكل ما ينفعها عند ربها، ثم إن كلمة "منتشر" تعبير صادق
حي حركي يوحي بعدم انضباط نفوسهم وانتظامها بسنة الله في الوجود
وشوع الحيرة والفزع والهول والاضطراب فيهم .
كما أن في التعبير "بالجراد المنتشر" ما يتلاءم مع جو السورة
من "أعجاز نخل منقعر" "هشيم محتظر" فكما توحى بالهلاك
والفناء .

مُطْعِنِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾

(٢) : (سرعين إليه قال أبو عبيد مادي أعناقهم) .

تأمل حركة أعناقهم وما وراءها من الإسراع الحثيث الجاد إلى
ما ينتظرهم من هول، ثم التسمير المنبي عما يختلج في صدورهم من
كرب وغمة * هذا يوم عسر * وكل ذلك على إيقاع واحد وتناسب في
السيك والنظم يتناسب مع جو الهلع والفزع والرعب مع مشهد يوم القيامة
وأحوال الناس عند البعث .

(١) القمر / ٨٠

(٢) روح المعاني ٩ / ٨٠٠

قال تعالى :

فَدَرَّهْمٌ يُمْسِكُهُمْ وَيَسْبِقُهُمْ أَعْيُنُهُمْ فِى الْآخِرَةِ
يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ
سِرَاعًا كَانَهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ
تَرَهْقُهُمْ ذُلَّةٌ ذُلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

من أسرار المناسبة :

حينما نتأمل المناسبة بين نهاية السورة الكريمة وهي قوله

تعالى :

فَذَرَهُمْ

يَخُضُّوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يَلِغُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ○ يَوْمَ يُخْرِجُنَا
مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ○ خَشِيعَةً
أَبْصَرُهُمْ تَرَهَفْنَاهُمْ ذَلَّةٌ ذَلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ

وبين بدايتها وهي قوله تعالى :

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ○ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ

نقف على هذا التناسب البديع ورد العجز على الصدر السدى

يوء كد فيه سبحانه أن هذا العذاب سيحل بالكافرين ولا

يستطيع أحد رده ، والذي أصابهم بسبب طغيانهم وجحودهم وتسردهم

على طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم .

ثم يتدرج الحديث عن ذلك اليوم الموعود الذي يتحقق فيه

هذا الوعيد . وفي هذا الجوالطيء بالرهبة والخشية تصعد الملائكة إلى

السماء تنزل بأمره ووحيه . ثم ترى الجبال تتطاير وتتناثر كالعيسن

المنفوش ، والسماء تذوب كالمهل ، والكل في هم شاغل ، وفزع هائل -

وَلَا يَسْعَىٰ حَمِيمًا

ولا يثبت في ذلك اليوم العظيم إلا الذين يصدقون بيوم الدين
والذين يصف القرآن الكريم كيف كان تصديقهم لذلك اليوم تطبيقا عملياً
على حياتهم قلباً وقالباً روحاً وجسداً :

أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ (١)

ثم يعرض مقابل ذلك النعيم والتكريم حال المشركين الذين يسرعون الخطى
في الدنيا إلى مجلس رسول الله عليه الصلاة والسلام مادي أعناقهم إليه ،
مقبلين بأبصارهم عليه (٢) لا رغبة في هديه ونوره ولكن استهزاءً به
وبأصحابه .

قال المفسرون : " كان المشركون يجتمعون حول النبي صلى الله عليه
وسلم حلقة حلقة يسمعون كلامه ويستهزئون به وبأصحابه ويقولون إن دخل
هوء لآء الجنة - كما يقول محمد - فلندخلها قبلهم ، فنزلت الآية (٣) .
ثم قارن إسرأعهم في الدنيا استهزاءً بالدين وإسرأعهم في الآخرة ،
وكيف يستهزىء الله تعالى بهم فيقول :

يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ

حيث شبه حالة إسرأعهم إلى موقف الحساب بحالة إسرأعهم وتسابقهم في
الدنيا إلى آلهتهم وطواغيتهم وفي هذا من التهكم بهم والسخرية والازدراء
ما فيه .

(١) المعارج / ٣٥٠ .
(٢) انظر الكشاف / ٤ / ١٦٠ .
(٣) انظر تفسير أبي السعود ١٩٥ / ٥ وتفسير الخازن ٤ / ١٥٢ .

من أسرار اللغة والنظم :

الخوض : هو الشروع في الماء وَالْمُرُوفِيهِ وَاكْرُمًا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ

فِي مَا يُدْمُ الشَّرُوعُ فِيهِ . (١)

والنصب : من نَصَبُ الشَّيْءِ وَوَضَعُهُ وَضَعًا نَاتِقًا كَنَصَبِ الرُّمَحِ وَالْبِنَاءِ

وَالْحَجَرِ وَالنَّصِيبِ الْحِجَارَةَ تَنْصَبُ عَلَى الشَّيْءِ . (٢)

* وَهُوَ كُلُّ مَا نَصَبَ فَعْبِدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ * (٣)

يُوفَضُونَ : مُضَارِعُ أَوْفَضَ .

* أَوْفَضَ إِيفَاضًا أَسْرَعَ * . (٤)

ثم تأمل كيف تأتي كلمة (كلا) ردعاً لهم عن الطمع في دخول

الجنة وعلّة ذلك أنهم ينكرون البعث والجزاء .

ثم يأتي الأمر والنهي للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يترك ما أهّمه

من أمر عنادهم وكفرهم ويدعهم في خوضهم ولعبهم . (٥)

(١) الراغب مادة (خوض) .

(٢) الراغب مادة (نصب) .

(٣) الزمخشري ، ١٦٠ / ٤ .

(٤) المقاييس مادة (وفض) .

(٥) انظر التحرير والتنوير ٢٩ / ١٨١ .

حَتَّىٰ يَلْقَا يَوْمَهُمُ الَّذِي يَوْعَدُونَ ﴿١﴾

انظر ما وراء هذا التعبير من رحلة طويلة فيها ما فيها من جهد وتمب ومعاناة وعمر طويل أضاعوه فيما لا يجدى ولا يشر ثم هم يلاقوا يومهم الذي يوعدون يوم يخرجون من الأجدات سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون .

ثم تأمل الحال التي آلكوا إليها بعد تكبر وعناد في الدنيا إلى منتهى الضعف والذلة والهوان وهم يسرعون الخطفى إلى الداعي/مستيقين كأنهم يستيقنون إلى أنصابهم . (٢)

يقول ابن عاشور : وفي هذا التشبيه إيحاء إلى أن إسراعهم يوم القيامة إسرَاعٌ دَعٌّ ودفعٌ جزاءً على إسراعهم للأصنام . (٣)

وقارن بين إسراعهم لمجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم استهزاءً مادين أعناقهم إليه مقبلين بأبصارهم عليه وبين إسراعهم يوم القيامة خاضعين خاشعين من الذل (ينظرون من طرف خفي) خَشِيعَةً أَبْصَرَهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ

-
- (١) المعارج / ٤٢ .
(٢) الكشاف / ٤ / ١٦٠ .
(٣) التحرير والتنوير / ٢٩ / ١٨٣ .

والرهق : من رَهِقَهُ الأَمْرُ غَشِيَهُ بِقَهْرِهِ . (١)

كما أن من لطائف التشبيه الإيحاء / التعب والمشقة والجهد

الذى يبذلونه أو بذلوه لا يطائل من وراء السعي إلى الانتصاب بجانب

ما يوحيه من معنى الذل والمهانة والخضوع يوحي أيضا بأنه سعى

إلى حجارة لا تضر ولا تنفع وأنه سعى لا ثمرة من وراءه وكذلك هم يوم

القيامة ما يوءد أنهم لن يسعوا إلى شيء إلا للعذاب والهلاك +

(١) الرابع مادة (رهق) .

قال تعالى :

الْقَارِعَةُ^١ ① مَا الْقَارِعَةُ ② وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ③
يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ④ وَتَكُونُ
الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ⑤

من أسرار المناسبة :

سورة

تتحدث/القارعة عن القارعة وأهوالها والآخرة وشدائدها وما يقع فيها من أحداث عظام وأهوال شداد كخروج الناس من قبورهم وانتشارهم وكثرتهم كالغراش الصبوث المتهافت هنا وهناك وما يحدث للجبال من تطاير ونسف كالصوف المنبث .

أن

ثم تأمل كيف قرن الناس إلى الجبال إشارة وتنبية إلى/تأثير القارعة في الجبال هذا التأثير فما عساه يكون حال الناس فيها .
ثم يتحدث عن الجزاء على الأعمال وأنها تقاس بثقلها وخفتها في الميزان .

وسميت القارعة لأنها تفرع القلوب والأسماع بهولها .

ومناسبتها لما قبلها لأنه لما ذكر سبحانه وقت بعثرة القبور (١)

فكان مناسبا ذكر يوم القيامة . (٢)

(١) في السورة التي قبلها - المعاديات آية ٢٩ .

(٢) انظر البحر المحيط ٥٠٦/٨ .

من أسرار اللغة :

القرع : "ضرب شي على شي" (١)

"والقرع الضرب بشدة واعتماد ثم سميت الحادثة العظيمة
من حوادث الدهر القارعة ...

ومن أسماء يوم القيامة القارعة. وأما سر تسميتها ففيه وجوه منها :

أن القارعة هي التي تفرع الناس بالاهوال والإقزاع ، وقيل تفرع أعداء
الله بالمذاب والخزي والنكال لأن الموت منهن آمنون (وهم من فرغ
يومئذ آمنون) . (٢)

يقول ابن عاشور :

" وأطلقت القارعة على الحدث العظيم وإن لم يكن من الأصوات

كقوله تعالى :

(٣)

وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ

وقيل : تقول العرب قرعت القوم قارعة إذا نزل بهم أمر فظيع ولم أقف

عليه فيما رأيت من كلام العرب قبل القرآن . (٤)

(١) الراغب مادة (قرع) .

(٢) الفخر الرازي (بتصرف) ٧٠ / ١٦ .

(٣) الرعد / آية ٣١ .

(٤) التحرير والتنوير ٣ / ٥١ .

والفراش " شبههم بالفراش في الكثرة والانتشار والضعف والذلة
والتطاير إلى الداعي من كل جانب كما يتطاير الفراش إلى النار.
قال جرير :

إن الفرزدق ما علمت وقومه مثل الفراش غشين نار المصطفى
وفي أمثالهم : أضعف من فراشه وأذل وأجهل .
وسمى فراشا لتفرشه وانتشاره " . (١)

" وقال الزجاج الفراش هو الحيوان الذي يتهاوت في النار وسمى
فراشا لتفرشه وانتشاره " . (٢)

والمبشوث : " الباء والثاء أصل واحد وهو تفريق الشيء وإظهاره يقال
بشوا الخيل في الغارة وبث الصياد كلابه على الصيد والله تعالى خلق
الخلق وبشهم في الأرض لمعاشهم وفي القرآن وَزَرَأْنِي مَبْشُوثَةً (٣)
أي كثيرة متفرقة . وبثت الحويث أي نشرت " . (٤)

والمهن المنفوش : (النفش نشر الصوف ونفش الغنم انتشارها
والنفش بالفتح الغنم المنتشرة) . (٥)

-
- (١) الكشاف ٢٧٩/٤ .
(٢) الفخر الرازي ٧٠/١٦ .
(٣) الغاشية / ١٦ .
(٤) المقاييس مادة (بث) .
(٥) الراغب مادة (نفش) .

تأمل هذا البدء المهول الذى فيه من التشويق والترغيب إلى

معرفة ما سيكون ، القارعة ، ما القارعة .

ثم تأمل هذا القرع المفزع والهول الرهيب الذى ترى فيه الخلق

على غير نظام فى ضعف وذلة ومجيء وذهاب ستطارون مستخفون فى حيرة

الغراش الذى يتهافت على الهلاك وهم يسرعون إلى الداعي الذى يدعوهم

إلى المحشر . (١)

ثم انظر إلى التناسق البديع بين شدة القرع ومنتهى الضعف والذلة

والهوان الذى آل إليه الناس فى ذلك اليوم وذهابهم إلى غير جهة على

غير نظام ، لأن شدة القرع وعظم الهول يدعو لعدم الانضباط والتهالك

والتهافت .

وهذه الكاف فى (كالغراش البثوث) توحى بظنهم أنزل من

الغراش لأن الغراش لا يعذب وهم يعذبون .

ثم تأمل كيف جاءت جملة :

يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ

بيانا للإبهام الذى فى قوله تعالى * ما القارعة *

وقوله : وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٢)

تهويل إثر تهويل .

(١) انظر روح المعاني ٠٢٨٢/١٠ وانظر التحرير والتنوير ٣٠/٥١١

(٢) التحرير والتنوير ٣/٥١٢

ثم انظر كيف جاء هذا التعبير البديع وهذا التقابل المجيب بين هذين الكونين : كون الناس (كالقراش المبتوث) وهو إيجادهم بعد عدم وبعثهم بعد موت ، وكون (الجبال كالعهن النفوش) في انتشارها وتفتتها واضمحلالها فهو كون يوءن بزوال وفناء فهذا عالم يولد ويظهر وآخر يزول ويرحل ، والكل في حالة زهول وفزع وتطاير وخفه وضعف وزله . (١)

ثم تأمل كيف تقاس الاعمال في ذلك اليوم العظيم بثقل الموازين وكيف يتقابل مشهد الخفة والتطاير بمشهد الثقل والرضى والاطمئنان :

فَأَمَّا مَنْ تَفَلَّتْ مَوَازِينُهُ ۖ فَهُوَ فِي عَيْشَةٍ رَّاضِيَةٍ

وأما الكافرون فما أشبه أعمالهم بهم في خفتها وتطايرها وهونها

في نار جهنم :

وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۖ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ

نَارُ حَامِيَةٍ

من أسرار التنوع :

وذلك نخلص إلى أن التشبيه لا حوال الناس عند البعث وان كان يشترك في معنى عام وهو وصف ضعفهم وذلتهم وهوانهم مع كرتهم وانتشارهم وإسراعهم الخطى نحو الداعي في جو رهيب من الهلع والفرع المحاط بهم إلا أن لكل صورة من صور التشبيه معرضا ومعنى يتلاءم مع السياق الذي وردت فيه .

١ - التشبيه في سورة القمر :

يصف أهوال يوم القيامة حين يدعو الداعي ، فينبعث الموتى من قبورهم ويخرجون منتشرين في هذا المشهد الرهيب وهو يركمز على خروج الناس من جوف الأرض وانتشارهم على ظهرها كالجسراد المنتشر في الكرة والتدافع وجولان بعضهم في بعض وتموجهم واضطرابهم ويتلاءم مع السياق السابق الذي وصف عدم انضباطهم في الدنيا وذلك باعراضهم عن سنن الله في الكون ولشريعته وهدية ونوره فكانوا عرضة للأهواء تتجاذبهم وتتناوشهم من كل مكان فهم اليوم كذلك لا يأمنون من الفرع الأكبر بل يضطرون ويتماوجون ويجول بعضهم في بعض من شدة الهول والفرع .

بينما التمثيل في سورة المعارج : يركز على طريقة إسراعهم

في ذلك اليوم وركابهم إلى نصب يوفسون» لأن الجو والسياق حولهم مليء
بالرهبة والخشوع والخضوع حيث تنزل الملائكة بأمره ووحيه .

ثم هو يقابل بين إسرعهم في الدنيا بمجلس رسول الله - صلى الله

عليه وسلم - مستهزئين به وأصحابه ، وبين إسرعهم في الآخرة إجابة

للداعي في رهبة وخضوع واستسلام مطلق يتناسب مع جو العبودية والخضوع
والرهبة لله سبحانه وتعالى .

فكان التمثيل في سورة القمر في يوم القيامة عامة والتمثيل في سورة

المعارج في موقف خاص من مواقفه .

التنوع أن التشبيه

٢ - من أسرار / في سورة المعارج وصف أبصارهم بأنها (خاشعة) على وزن

(فاعلة) لتفيد دوام خشوعها وخضوعها ، ولأن تخاذل النفس وتماسكها

إنما يظهر في أحوال البصر .

بينما وصف البصر في سورة القمر بقوله : (خُشِعًا أَبْصَارُهُمْ)

زيادة في التهويل والتفريع لأنهم يدعون إلى شيء نكروا شديد صعب

تأمل الضمتين على الحرفين الأول والثاني وما فيها من معنى ارتفاع

الشدّة . (١)

(١) انظر التصوير البياني ، د / محمد محمد أبو موسى ص ٢٩ .

أن

٣- من أسرار التنوع التشبيه في سورة المعارج يؤكّد بطلان سعيهم وأنه سمي

لا شرة من وراءه لأنه أشبه يسعى من سعى لمن لا يملك بهم ضرا ولا نفعا

فهم يسعون " كأنهم إلى نصب يوفضون " .

بينما نجد أن التشبيه في سورة القارعة :

يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ
كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ

يتناول بجانب الكرة والانتشار على غير نظام معنى التخازل

والوهن والضعف الذي يكون عليه حال الناس عند ابتعاشهم من قبورهم فسي

ذلك المشهد الذي يقرع القلوب بهوله .

ويبين أنهم تخاذلوا أشد التخازل بحيث لم يبق فيهم

من قوى

بقية / وتماسك فصاروا كالفراش المبعوث وهذا يتناسب مع شدة القرع وهول

الموقف ، والفراش مثل في الوهن والضعف ومثل في الخفة والحماقسة

والتهافت والطيش .

التنوع أن

٤- من أسرار / التشبيه الأول في سورة القمر وصف الجراد بالانتشار بينما التشبيه

في سورة القارعة وصف الفرّاش بالهث، وبينهما فرق . والفرق بين الهث والانتشار

أن الانتشار فيه فضل تماسك لا يوجد في الهث، ولذلك تقول العرب :

نشر عليه ثوبه ولا تقول بثه .

هـ - من أسرار التنوع الفرق بين الصياغتين فالمشوث مفعول من بث وقع عليه

البث والمنتشر اسم فاعل من انتشر حدث منه الانتشار.

فهم في التشبيه الأول كالجراد الذي ينتشر بنفسه وهو يتناسب مع

* أعجاز نخل منقر * (وهشيم محظّر) وهكذا .

بينما التشبيه الثاني كالغراش المشوث أى الذى يبث غيره وهو

يتناسب مع تلك الجبال التي تفرق وتنفس ويتحلل ألوانها وأصباغها وتتراعى

ألوانا شتى فتكون مثلاً في الخفة وفي اختلاف الألوان وهكذا تتناسب

مع الغراش المشوث . (١)

(١) انظر التصوير البياني ، د / محمد محمد أبو موسى ص ٣٠ .

لِسَانِي

الخاتمة

قامت هذه الدراسة على إدراك أسرار التنوع في تشبيهات القرآن الكريم وكان لا بد للوقوف على ذلك من إمعان النظر في آيات التحليل ومدارستها كلمة كلمة وجطة جطة وترسم كل ذلك توسا وأعيا في ضوء السياق الذي وردت فيه ومحاولة استخراج ما وراءها من فيوضات وأحوال وأسرار .

والإحاطة بكل أسرار التنوع أمر خارج عن طاقة البشر وإنما وقفنا على ما فتح الله به علينا وما تقاطر منها إلينا .

ففي الفصل الأول : انتهيت فيه بعد التحليل والمداولة والموازنة

الى أن تشبيهات الحياة الدنيا وإن كانت تشترك في معنى عام وهو تشبيه حال الدنيا في نضرتها ومهجتها وافتتان الناس بها ثم ما توأول إليه من الهلاك والفناء إلا أن لكل تشبيه معرضا ومعنى يتلاءم مع السياق الذي ورد فيه واستقى منه .

فالمثل الأول في سورة يونس يهتم ببيان من يجفي فسي الأرض ويفتر بالحياة الدنيا ويشدد تعلقه بها ويقوى إعراضه عن أمر الآخرة والتأهب لها . ويبين عن أنهم قد بلغوا في الفتنة بها غايمة الطفيان حتى ظنوا القدرة عليها والتمكن منها وفيه إبراز لسلطان العلم الذي سخره الله للبشر فحادوا به عن الجادة حين توهموا أنهم العالمون بالدنيا المتحكضون منها .

فهو مبني على التفصيل والتحليل لتفلفل هذه الحياة الدنيا في قلوب القوم ثم ما آل اليه حالهم حين باغتهم أمر الله ، بينما نجد أن التمثيل الثاني في سورة الكهف مبني على الطن والدمج ، لأنه هنا يركز على جانب سرعة زوال هذه الحياة الدنيا الذي يكاد ينطق بالتعبير عنها هيئة المشبه به بجملة الثلاث القصار وأن هذا يتناسب ويتلاءم مع السياق الذي تحدث فيه سبحانه عن اغترار المشركين بأموالهم وأولادهم وافتخارهم بها على فقراء المسلمين - وظنهم أنها لن تبيد أبدا * وَمَا مَاءَ أَطْنُ أَنْ نَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَطْنُ السَّاعَةَ فَتَأْتِيهِ التَّقَابِلُ اليديع بين طول الأمل في البقاء وانكار البعث مع قصر الحياة الدنيا وسرعة الفناء .

في حين أن التمثيل الثالث في سورة الحديد يهتم ببيان شدة الإعجاب بالحياة الدنيا من حيث هي لهو ولعب وزينة وتفاخر وتكاثر بالأموال والأولاد / حالت بينهم هذه الأمور عن المسارعة لطاعة الله والإنفاق في سبيله لأنهم إنما يستبقون المال لإنفاقه في لذائذها وشهواتها ، هذا بالإضافة إلى فروق ودقائق أخرى ظهرت أثناء التحليل والموازنة .

وفي الفصل الثاني ظهر لي أن تشبيهات الإنفاق في سبيل الله وإن كانت تشترك في معنى عام ألا وهو مضاعفة الأجر والثواب . إلا أن التشبيه الأول يهتم بالمضاعفة الحسابية التي تتمثل في حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ بينما يبرز التمثيل الآخر للإنفاق في سبيل الله أشرا آخر للإنفاق ، وهو ما يعود به الإنفاق على نفس صاحبه بحيث تعتاد الخير

فلا يصدر عنها إلا فضائل الأعمال ويصبح الإنفاق سجية من سجاياها إن أصابها وابل أشرت وأمرعت وإن لم يصبها وابل فطل أي فهي مرعسة مشرة وفيه حث على تكرير الإنفاق لتربية هذه الطلعة .

كما ظهر من أسرار التنوع في هذا الفصل الانتقال من الصورة البسيطة التركيب في المثل الأول إلى الصورة الأكثر تركيباً وخصوبة ويعود ذلك لتكاثف الأحوال وثرأ المعاني حيث النفوس مليئة مفعمة بمعاني العطاء والخير مبتغية وجه الله وفيه تدرج في تربية النفس لأن الأمور المحسوسة هي أول ما تدركه ثم ترتقي إلى ابتغاء مرضاة الله بينما نجد أن تشبيهات الإنفاق رثاء الناس والمصحوبة بالمن والأذى ، ونفقات الكافرين وإن كانت تشترك في معنى عام وهو بيان إحباط العمل وإبطاله وضياعه إلا أنها تتميز بمعان تتناسب مع السياق الذي وردت فيه والعلامة التي من أجلها كان إحباط العمل ، فالعرائي الذي مثله **صَنَوَانَ عَلَيْهِ تَرَابٌ** لم شرأعماله أصلاً لخلو قلبه من الإيمان بالله الذي يرجو به ثواباً أو يخشى عقاباً فعلته وآفته تصرأصل العقيدة وجوهرها .

بينما المن والمؤذي بلغت نفقتها غاية الوفرة والكرة والخصومة ثم طرأ عليها ما أحبطها وأفسدها وهو أحوج ما يكون اليها .

أي أن صدقته وقمت صحيحة ثم بطلت بالمن والأذى بينما العرائي لم يأت بالعمل مقبولاً صحيحاً بل أتى به باطلا مردوداً .

ومن أسرار التنوع بين هذه الجنة التي أصابها إعصار فيه نار فاحترقت وبين تلك الريح الشديدة البرودة ^{التي} * أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته * وأن الإعصار الذي فيه نار أشبه بحرق المن والأذى

وتمزيقه لأواصر المحبة وإشعاله الحقد والبغض في النفوس، فناسب أن يكون الجزاء من جنس العمل .

أما الريح الباردة فهي أشبه بالموء منين الأشداء على الكافرين الذين أهلكوا حرث هوء لاء الظالمين الذى بذلوه لمحاربة الله ورسوله فالحرث هنا في أجواء شديدة الحرارة والاتقاد / لأنها لاشعال الفتنة والفرقة بين المسلمين ومحاربة دين الله فناسب أن تكون هذه الريح الشديدة البرودة لإطفاء نار الكفر والبغض وإخماد شوكة المشركين إلى جانب فروق دقيقة ولطائف عجيبة ظهرت أثناء التحليل والموازنة .

وفي الفصل الثالث انتهيت إلى أن تشبيهات الحق والباطل وإن كانت تشترك في معنى عام هو بقاء الحق وزوال الباطل واضمحلاله إلا أن كل تشبيه منه يتميز بتناول جانب من جوانب هذا المعنى لم يتناوله غيره .

فالتشبيه الأول يمثل الحق إبان نزوله من السماء وكيف تطقته تلك الطائفة الموءمنة واستجابت له فتصدى لها أهل الباطل بالتكذيب والانكار وقد جاء التعبير عنه بالأفعال الماضية (أنزل - سالت - احتل) التي أفادت تحقق وقوعه وأنه تمثيل لصورة قامت وتمت .

بينما التمثيل الثاني جاء التعبير عنه بلفظ المضارع فسي (يوقدون) ليدل على صورة متجددة ومستمرة يلابس الباطل فيها معدن الحق وينبغل فيه ولكن الشدائد والمحن التي تمثلها عملية الإيقساد على معدن الحق تطرد زيد الباطل فلا يلبث أن يزول ليبقى جوهر الحق الصافي المثل له بالماء النافع والمعدن الذى تتخذ منه الحليمة والمتاع .

ثم تأتي النتيجة المترتبة على نزول الحق ومقائه في الأرض ^{أند} وهي
تشبيث جذور شجرة التوحيد في القلب المثل لها بالكلمة الطيبة واجتثاث
كلمة الكفر والشرك المثل لها بالكلمة الخبيثة .

كما نلاحظ أن من أسرار التنوع مراعاة التشميل لأحوال البيئة
المعاشية . . حيث تجد الصورة الأولى المثل بها الحق أقرب إلى
أهل البادية، بينما الثانية هي من واقع الحضرة وتشارك الألفاظ بجرسها
وقوتها أورخاوتها في التعبير عن ذلك .

وفي الفصل الرابع انتهيت إلى أن تشبيهات أعمال الكافرين وإن
كانت تشترك في معنى عام ^{رشي} أنها باطللة لا غاية لا منفعة فيها ولا خيسر
يرجى منها مهما عظمت وكثرت إلا أن لكل صورة من صور التشبيه معرضا
ومعنى تتميز بها تتناسب وتتلاءم مع السياق الذي وردت فيه .

فالتشبيه الأول **كَكْرِمَانِ أَشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ** يدل على المحق

والسحق وعدم الانتفاع والعجز عن الاستدراك وفي عناصره من الجزالة
والقوة ما يتناسب مع المعنى الذي سيق له وهو وإن كان يشترك مع قوله
تعالى **وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا** فسي
بيان تبدد أعمال الكافرين وتمزقها بحيث لم يبق لها أثر إلا أن الثاني
يتميز بدقة عناصره ورقتها لأنها تشل معنى الضالة والحقارة ثم التناثر
والذهاب بها كل مذهب وهذا المعنى يتلاءم مع السياق الذي ورد فيه .

كما لاحظنا أسرار التنوع وراء تشبيه أعمال الكافرين بالسراب ،
والظلمات لأنها وردت في سياق يتحدث عن حال الوء منين والحامل لهم
على ذلك الفوز العظيم ثم ما يمضون إليه من نعيم مقيم فذكر مقابل ذلك

مآل الكافرين من الخيبة والخسران المبين ثم عطف عليه الحامل لهم على
هذا الخسران وهو خلوا أعمالهم من نور الحق وتلبسهم بالظلمات .
ومن أسرار التنوع أيضا أن السراب يمثل أعمالهم الحسنة
والظلمات تمثل أعمالهم الفاسدة كالفتن والكفر والشرك وذنابل النفوس
وغيرها .

ولاحظنا التناسق البديع بين المثليين وسياق الآيات حيث
ترى هذا التقابل الرائع بين من أقام حياته على وهم وسراب وسعى لاهثا
وراءه حتى وجد الله فوفاه حسابه وبين الذين أقاموها على نور من
ربهم فزادهم نورا .

كما نجد التقابل بين هذه الظلمات في قلب الكافر وكيف
تتكاثف وبين ذلك النور في قلب المؤمن وكيف يتضاعف وقد تناصرت فيه
المشكاة والزجاجة والمصباح والزيت وهكذا . . .

إلى غير ذلك من الفروق والدقائق التي تجلت في ضوء التحليل
والمداولة والموازنة .

وفي الفصل الخامس وقتت على أن تشبيه النافقين بالمستوقد
نارا وبأصحاب الصيب وإن كان يشترك في معنى عام وهو طاهم فيه من
شدة الحيرة والتردد والتخبط لانطماس بصائرهم وتشككهم في دين الله
إلا أن لكل تشبيه سياقه ونسقه الذي يتميز به .

فالصورة الأولى تمثل قوما لهم حاجة ماسة إلى استيقان نار ،
وإنهم بعد الجهد والنصب أضاعت لهم فتبينوا وعرفوا فهم أهل علم

بعد أن ^{وَضَلُّوا} عرفوا/أنكروا/وظلمت عليهم جاهليتهم فذهب الله بنورهم وتركهم
في ظلمات لا يبصرون .

بينما التشيل الثاني يبين عن هذا الخير الذي فاض عليهم ولم
ينضموا به ولم يصيبهم منه إلا صواعقه ووعده وقرقه أي هذا الهول والفرع
الذي أحاط بهم من كل جانب ونفذ إليهم من كل حاسة .
التشيل الأول يؤكّد الله فيه أن القوم لا يرجعون عن غيهم
وضلالتهم ، بينما الثاني لا يزال القوم فيه حيارى مترددين بين شي وقيام
وتبصر فظلام .

وفي الفصل السادس وقتت فيه إلى أن تشبيهات أحوال الناس عند
البعث وان كانت تشترك في معنى عام وهو وصف ذلتهم وضعفهم وهوانهم
وتهالكهم وتهافتهم ذلك اليوم إلا أن كل صورة تفرد بمعان وإيحاءات
تناسب مع السياق الذي وردت فيه .

ففي سورة القمر يصفهم بالجراد المنتشر في تدافعهم وتزاحمهم
واضطرابهم وعدم انضباطهم وذلك يتناسب مع السياق الذي وصفهم فيه تعالى
في الدنيا بأنهم كانوا غير منضبطين لشريعة الله تتجاذبهم الأهواء وتتناوشهم
من كل مكان .

والتشيل الثاني يركز على طريقة إسرعهم في ذلك اليوم وكأنهم
إلى نصب يوفضون لأن السياق حولهم مليء بالرهبة والخشوع تنتزل فيه
الملائكة بأمر الله ووحيه وهو يقابل بين إسرعهم في الدنيا لمجلس رسول الله
صلى الله عليه وسلم مستهزئين به وأصحابه وبين إسرعهم يوم القيامة
إجابة للداعي في خضوع واستسلام مطلق .

وفي سورة القارعة يركز التشبيه بجانب التعبير عن الكثرة والانتشار على غير نظام معنى التخاذل والوهن والضعف الذي يكون عليه حال الناس عند اليعث ويسمن عن أنهم تخاذلوا أشد التخاذل وذلك يتناسب مع شدة القرع وهول الموقف .

ومع تلك الجبال التي أضحت كالعهن المنفوش في اختلاف الوانها وخفتها .

ومن الأصول التي وقفنا عليها وراء أسرار التنوع في تشبيهات القرآن الكريم (١) تناول المعنى الواحد في كل مرة من جانب من جوانبه التي تتلاءم مع الغرض الذي سيق له والسياق الذي ورد فيه .

(٢) الانتقال في تنوع التشبيهات من الصورة البسيطة التركيب إلى الصورة الأكثر تركيباً وتعقيداً تدرجاً في إقناع النفس وتلاوفاً مع تكاشف الأحوال ووفرة المعاني وسخائها .

(٣) التعبير عن المعنى الواحد بصورتين متضادتين أو متقابلتين ، كالمثل المائي والناري والماء والنار عنصران يفلبان على أكثر تشبيهات القرآن ، فالماء هو الحق الذي نزل من السماء فسالت به أودية بقدرها . وهو الصيب الذي أصاب القوم من هدى القرآن وخيره ولكنهم لم ينتفعوا به وهو الوابل الذي أزال التراب عن الصفوان / زكت به الجنة ذات الربوة وهو الماء الذي اختلط بنبات الأرض لتمثيل الحياة الدنيا وهو الفيث الذي أعجب الكفار نباته .

وهو السراب الذي تراءى للظمان .

وهو البحر اللجج الذي تكاثفت فيه الظلمات .

والنار هي النار التي استوقدها المستوقد ليستضي بها ،
وهي النار التي أحرقت أعمال الكافرين فأصبحت رمادا تشتد به
الرياح ، وهي النار التي أوقدت على معدن الحق لتذهب زبد الباطل ،
وهي ضمن الجائحة التي جعلت ما على الأرض حصيدا في تمثيل
الحياة الدنيا أوهشما تذرؤه الرياح .

وهي النار في الإعصار الذي أحرق الجنة ذات الأنهار
والأشجار والثمار .

ومن الصور المتقابلة أيضا التعبير عن المعنى الواحد بأجواء حارة
جافة كسراب بقيعة، وأجواء رطبة ندية كبحر لحي .

(٤) كما أن من أسرار التنوع وأصوله مراعاة أحوال البيئة المعاشية
والحضارية كالتعبير بصورة مستقاة من البادية وأخرى من الحضر في تمثيل
الحق والباطل .

(٥) من أسرار التنوع وأصوله مراعاة المستوى الفكري والحضارى والتقدم
العلمي .

فصورة السراب الذي تمثل للظمان صورة عامة تراعي مستويات
الإدراك الأولى لدى الناس .

أما تمثيل البحر اللحي وتكاثف ظلماته تحتاج إلى قدر عظيم من
الرؤية والتأمل والتفكير فضلا عما وراءه من الإعجاز العلمي في القرآن والذي
لم يدرك إلا في العصر الحديث .

٦ - من أسرار التنوع وأصوله أن يبني التشيل مرة على التحليل والتفصيل وأخرى على الطي والدمج تلاؤم ما مع السياق الذي ورد فيه والفرص الذي سيق له .

٧ - من أسرار التنوع وأصوله الانتقال من الحسى الى المعنوى وذلك لأن الأمور المحسوسة أول ما تدركها النفس ثم ترتقي بعد ذلك كالتشيل للانفاق في سبيل الله في صورة المضاعفة الحسابية لا ثارة محور الطمع في الريح ثم الانتقال الى ابتغاء مرضاة الله لأن النفس هنا زاخرة مغممة بمعاني الخير زاكية مبتغية وجه الله والنفقة وارفة الظلال دائمة الاثمار .

٨ - من أسرار التنوع وأصوله أن لكل مثل بناؤه ونظمه وعناصره ومعانيه وظلاله التي تتناسب مع السياق الذي ورد فيه فالماء المخطط بنبات الأرض يتلاءم مع الريح الطيبة والبحر ، والدهشيم الذي تذروه الرياح يتلاءم مع الجنة الخاوية على عروشها . والظلمات التي تتكاثف في بحر لجي تتناسق مع النور الذي يتضاعف في مشكاة فيها مصباح وهكذا .

بعد فالحمد لله الذي وفقني لخدمة كتابه الجليل والكشف عن بعض أسرار بيانه ولا يزال القرآن الكريم مأدبة الله التي لا يشبع منها العلماء ينطوى على لطائف وأسرار لا تتناهى نرجوا الله الكريم أن يهدى إليه حلة العلم وطلابه ليفتقوا كمامه ويستخرجوا وداعه .

وما توفيتني إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ،

وقل ربي زدني علما ،

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

مِنْ نَسْلِ الْإِسْرَائِيلَ وَالْمَلَائِكَةِ

المصادر والمراجع

- الأُذُب المفرد

للإمام الحافظ محمد بن اسماعيل البخارى رضي الله تعالى عنه ، دار
- أساس البلاغة
تأليف الإمام جابر الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري

تحقيق عبد الرحيم محمود

دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت لبنان .

- أسرار البلاغة

تأليف الإمام عبد القاهر الجرجاني

دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت لبنان .

- أسرار التكرار للكرماني

لتاج القراء محمود بن حمزة بن نصر الكرماني

دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا

ط / الثالثة ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م . دار الاعتصام .

- الاتقان في علوم القرآن لشيخ الاسلام جلال الدين عبدالرحمن السيوطي ،

ط / الرابعة ١٣٩٨ - ١٩٧٨ م .

- الإعجاز البلاغي

د / محمد محمد أبو موسى

ط / الأولى ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٤ م

الناشر مكتبة وهبه .

- إعجاز القرآن للباقلاني

أبي بكر محمد بن الطيب

تحقيق السيد أحمد صقر ط / الرابعة

دار المعارف .

- اعلام الموقعين عن رب العالمين

تأليف شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أبي بكر المعروف

بابن قيم الجوزية

- حققه وفصله وضبط غرائبه وعلق حواشيه

محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الفكر بيروت لبنان .

- الامثال في القرآن الكريم

د / محمد جابر الفياض

ط / الاولى ١٩٨٨ م

(ب)

- بديع القرآن

لابن أبي الإصبع المصري

تقديم وتحقيق د / حفني محمد شرف ، ط / الثانية ، دار نهضة مصر

للطبع والنشر القاهرة .
- بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، تأليف مجد الدين محمد بن يعقوب

الفيروزآبادى - توزيع دار الباز للنشر والتوزيع ، مكة المكرمة .

المكتبة العلمية بيروت لبنان . تحقيق : الاستاذ عبد العليم الطحاوى .

- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدرامات البلاغية .

د / محمد محمد أبو موسى

مكتبة وهبة ، القاهرة .

(ت)

- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن

لابن أبي الإصبع المصري

تقديم وتحقيق د / حفني محمد شرف

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، لجنة إحياء التراث الإسلامي

القاهرة ١٣٨٣ هـ .

- التصوير البياني

دراسة تحليلية لمسائل علم البيان

د / محمد محمد أبو موسى

ط / سنة ١٩٨٠ م - مكتبة وهبه القاهرة

- تفسير أبي السعود

المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم

للإمام أبي السعود محمد بن محمد العمادى

• دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان •

- تفسير البحر المحيط

لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الندلسي الفرناطي

ط / الثانية ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م

• دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع •

- تفسير ابن كثير

أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي

ط / سنة ١٩٨١ م • دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع •

- تفسير التحرير والتنوير

تأليف الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور

الدار التونسية للنشر •

- تفسير الفخر الرازى

المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب

للإمام محمد الرازى فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر

ط / الأولى ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م

• دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع •

- تفسير القرآن الحكيم (المنار)

محمد رشيد رضا ، ط / الثانية .

دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت لبنان .

- التفسير القيم

للإمام ابن القيم

جمع محمد اويس الندوي ، تحقيق محمد حامد الفقي

دارالعلوم الحديثة بيروت لبنان

- تلخيص البيان في مجازات القرآن

تأليف الشريف الرضي

تحقيق وتقديم د / علي محمود مقلد

منشورات دار مكتبة الحياة بيروت لبنان .

(ث)

- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن

للرمانى والخطابى وعبد القاهر الجرجاني

تحقيق محمد خلف الله ود / محمد زغول سلام

ط / الثالثة ، دار المعارف بمصر

(ج)

- الجامع لأحكام القرآن

أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبي

دار احياء التراث العربي بيروت .

- جامع الأصول في أحاديث الرسول

تأليف الإمام مجد الدين أبي السعادات المبارك ابن محمد

ابن الأثير الجزري

تحقيق : عيد القادر الأرنؤوط ، ط / ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م

نشر وتوزيع مكتبة الحلواني و مطبعة الملاح ومكتبة دارالبيان .

- جامع البيان عن تأويل آي القرآن
تأليف أبي جعفر محمد بن جرير الطبري
دارالفكر . بيروت ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م
- الجامع الصحيح

للامام أبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري

دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان .
- الجمان في تشبيهات القرآن لابن نايقا البخداري
الدكتور: مصطفى الصاوي الجويني ، الناشر منشأة المعارف الاسكندرية .
- حاشية الشهاب السماة عناية القاضي وكفاية الرازي على تفسير البيضاوي
دار صا در بيروت .
- درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز
الخطيب الاسكافي برواية ابن أبي الفرج الاردستاني ،
منشورات دار الافاق الجديدة بيروت ، ط/الرابعة ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م

- دلائل الاعجاز

تأليف الشيخ الإمام أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد

الجرجاني النحوي
قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر
الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة .

(ر)

- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للذُّلُوسِي

١٤٠٢ هـ / ١٩٨٣ م دار الفكر بيروت .

(ص)

- صحيح البخاري

للامام أبي عبد الله محمد بن اسماعيل بن إبراهيم بن المفيضة

ابن بردزبه البخاري الجعفي

دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع .

- صفوة التفسير

تأليف محمد علي الصابوني

دارالقرآن الكريم بيروت .

- الصورة في التراث البلاغي

مجلة كلية اللغة العربية ، أم القرى السنة الثانية

١٤٠٤-١٤٠٥ هـ

(ظ)

- الظواهر الجغرافية بين العلم والقرآن

تأليف د / عبد العليم عبد الرحمن خضر ، الدار السعودية للنشر والتوزيع .

(ع)

- عمدة القارى شرح صحيح البخارى للشيخ الامام بدرالدين أبي محمد

محمود العيني ، دار احياء التراث العربي بيروت لبنان .

(غ)

- غرائب القرآن وغرائب الفرقان

نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين القمي النيسابورى

تحقيق إبراهيم عطوة عوض

مطبعة مصطفى البابي الحلبي

ط / سنة ١٩٦٤ م القاهرة .

(ف)

- في ظلال القرآن

سيد قطب - دار الشروق . ط : التاسعة . ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠ م .

(ك)

- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل

تأليف أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي

دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت لبنان .

(ل)

- لِبَابِ التَّأْوِيلِ فِي مَعَانِي التَّنْزِيلِ (تَفْسِيرُ الْخَازِنِ)

علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن
طبعة دار الفكر .

(م)

- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز

للقاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي

تحقيق المجلس العلمي بفاس ، ط/ الثانية ١٤٠٣هـ / ١٩٨٢م
- مختصر صحيح البخاري

تأليف الإمام زين الدين أحمد بن عبد اللطيف الزبيدي
تحقيق إبراهيم بركة ، دار النفائس ، ط/ الثانية ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م
- مختصر صحيح مسلم

للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري

تحقيق محمد ناصر الدين الألباني

المكتب الإسلامي بيروت .

- معاني القرآن

تأليف أبي زكريا يحيى بن زياد الفراء

عالم الكتب بيروت .

- معجم مقاييس اللغة

لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا

تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون

دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

- المفردات في غريب القرآن

تأليف أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني

تحقيق وضبط محمد سيد كيلاني

دار المعرفة بيروت لبنان .

من الإعجاز البلاغي للقرآن

د/ صباح عبيد دراز

دار التوفيقية للطباعة بالأزهر

- من أسرار التعبير في القرآن - صفاء الكلمة -

د/ عبد الفتاح لاشين ، ط/ دار المريخ

- من بلاغة القرآن

تأليف أحمد أحمد بدوي ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة .

(ن)

- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور

للامام المفسر برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي

ط/ الأولى ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م

مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد الدكن الهند .

- النظم القرآني في سورة الرعد

تأليف محمد بن سعد الدبيل

عالم الكتب .

- نيل الأوطار - شرح منتقى الأخبار للشوكاني للمحمد بن علي الشوكاني ،

ط/ ١٩٧٣ م ، دار الجيل بيروت ، شرح وتعليق : منير آغا الدمشقي .

فہرست المواقف

فهرس الموضوعات الاجمالي

<u>الصفحة</u>	<u>الموضوع</u>
أ- ح	المقدمة
٢٧-١	التمهيد : جهونا العلماء السابقين في بيان أسرار التنوع الفصل الأول : التشبيهات التي تمثل الحياة الدنيا
٨٧ -١	وأسرار تنوعها
	الفصل الثاني : التشبيهات التي تمثل الإنفاق وأسرار
١٦٠ - ٨٦	تنوعه ويتضمن الإنفاق في سبيل الله والإنفاق المشوب بالمن والاذى أو الرباء أو الكفر
	الفصل الثالث : التشبيه الذي يمثل الحق والباطل وأسرار
٢١٩ - ١٦١	تنوعه
	الفصل الرابع : التشبيهات التي تمثل أعمال الكافرين
٢٧٧ - ٢٢٠	وأسرار تنوعها
	الفصل الخامس : التشبيه الذي يمثل أوصاف المخالفين
٣٠٩-٢٧٨	من المنافقين وأسرار تنوعه
	الفصل السادس : التشبيهات التي تمثل أحوال الناس عند
٣٣٦ - ٣١٠	البعث وأسرار تنوعها
٣٤٧- ٣٣٧	الخاتمة
٣٥٧- ٣٤٨	المصادر والمراجع
٣٥٨	فهرس الموضوعات الاجمالي